أ. د. حسين سعد

براديغمات البحوث الإعلامية

الإبستمولوجيا - الإشكاليات - الأطروحات

دار المنهل اللبناني



براديغمات البحوث الإعلامية

الإبستمولوجيا - الإشكاليات - الأطروحات

يتناول هذا الكتاب، الأطر المعرفية في علوم الإعلام والاتصال، أو البراديغمات المسيطرة في علوم الإعلام والاتصال.

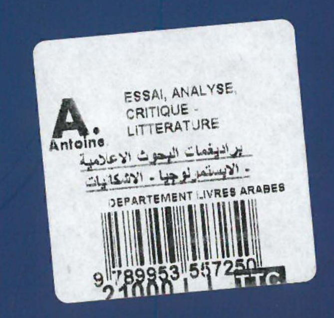
ومن هذه الزاوية بالذات تتحدد أهمية موضوعه، ومنهجية دراسته، ومن زاوية قدرته على بناء أطر نظرية، ومعارف علمية تتيح للباحث الرؤية الممكنة لمقاربة موضوعه، ضمن الحقل البحثي والخلفيات العقلية والنظرية التي تحكم المقاربات والمداخل والرؤى المنهجية.

ومادة «الأطر المعرفية» تختلف عن علم المناهج، كما أنها تختلف عن النظريات الاتصالية والإعلامية وتنطلق المادة من الإبستمولوجيا بوصفها فلسفة العلم أو «نظام من الأفكار» يبحث في أسس العلم ومصادره وأهمية «نظرياته» وهي التي قادت إلى تطور البحث بدلالة «البراديغمات» مقابل تفسير تقدم العلم بدلالة المبادئ.

ولأن المكتبة الأكاديمية فيما خص الإعلام تكاد تبدو خاوية تماماً لجهة توفر كتاب يشكل دليلاً يأخذ بيد الطالب والباحث في إدارة أبحاثه وفقاً للمعايير المعمول بها عالمياً.

لذلك كان هذا المؤلَّف، علّه يسد نقصاً في المكتبة العربية ويساهم في إغناء البحوث الإعلامية.

المؤلف





ISBN 978-9953-557-25-0

أ. د. حسين سعد

براديغمات البحوث الإعلامية

الإبستمولوجيا - الإشكاليات - الأطروحات

دار المنهل اللبناني

براديغمات البحوث الإعلامية

الإبستمولوجيا - الإشكاليات - الأطروحات

أ. د. حسين سعد

الطبعة الأولى

2017م - 1438هـ

ISBN 978-9953-557-25-0



الناشر: دار المنهل اللبناني

بيروت - النويري، سنتر حمادي - ط6 - Bloc-B

هاتف: 631654 (01) - خليوي: 920930 (70)

بريد إلكتروني: dar-almanhal@hotmail.com

الموقع الإلكتروني: manhal-alubnani.com

التوزيع: مكتبة رأس النبع

بيروت - رأس النبع - شارع محمد الحوت

هاتف: 631654 (01) - 920930 (70) - تلفاكس: 633432 (01)

الإهداء

إلى أبي وأمي

المقدمة

هذا الكتاب هو أوّل محاولة مكتوبة حول مقرّر دراسي جامعي، بدأت بتدريسه قبل سنوات خلت في المعهد العالي للدكتوراه. هذا المقرر هو الأطر المعرفية في علوم الإعلام والاتصال، أو البراديغمات المسيطرة في علوم الإعلام والاتصال.

موضوعه يتجاوز المقرّر بحد ذاته في إثارة مشكلات معرفية ومنهجية في الميادين التي فرضتها المتغيرات العلمية والتقنية والاجتماعية والنفسية كمحاور للبحوث والدراسات الأكاديمية.

ومن هذه الزاوية بالذات، تتحدّد أهمية موضوعه، ومنهجية دراسته، ومن زاوية قدرته على بناء أطر نظرية، ومعارف علمية تتيح للباحث الرؤية الممكنة لمقاربة موضوعه، ضمن الحقل البحثي والخلفيات العلمية والنظرية والميتافيزيقية التي تحكم المقاربات والمداخل والرؤى المنهجية.

ومادة «الأطر المعرفية» تختلف عن علم المناهج، كما أنها تختلف عن النظريات الاتصالية والإعلامية.

وتنطلق المادة من الإبستمولوجيا، بوصفها فلسفة العلم أو «نظام من الأفكار يبحث في أسس العلم ومصادره وقيمته وأهمية نظرياته» (Le Robert, terme épistémologie)، وهي التي قادت إلى تطور البحث بدلالة "البراديغمات" مقابل تفسير تقدُّم العلم بدلالة المبادئ.

إنّ هذا التحوّل المعرفي الهائل أو الثورة في إدارة الأبحاث العلمية وقيادتها، يحتاج إلى كتاب يتناول هذا الموضوع، ويتتبع مسائله، بدءاً من النقطة التي بدأ منها، إلى الثورات المتتالية في المناهج البحثية، ويشرح ما

عصي منه على الأذهان، ويبسّط المبادئ التي يرتكز عليها من أجل تعميم الفائدة، ومساعدة الطلاب والباحثين على مقاربة الأبحاث من هذه الرؤية للعلم وللعالم على حد سواء.

ولأن المكتبة الأكاديمية في ما خصّ بحوث الإعلام تكاد تبدو خاوية تماماً، لجهة توفر كتاب يشكل دليلاً يأخذ بيد الطالب أو الباحث في إدارة أبحاثه، وفقاً للمعايير المعمول بها عالمياً، فإن هذا البحث يشكل استجابة لهذا التحدّي.

تلازمت على نحو جليّ مسألة التربية العلمية مع ظهور العلم عن طريق البراديغمات، وأتاح هذا الطريق للطالب تعلّم البحث كمهنة، عبر المقررات الدراسية، والانخراط في المتحدات العلمية، التي تمكنه من دراسة براديغمات المتحد العلمي، والتمرّس بها، وهي منتشرة في الكتب الدراسية والمحاضرات وتمارين المختبرات، ويشكّل هذا الكتاب وسيلة من وسائل التربية على المنهج العلمي من هذه الزاوية.

ولا تقتصر فائدة هذا الكتاب على الباحثين في العلوم الإعلامية والاتصالية، بل تتعدى هؤلاء إلى الباحثين في حقول العلوم الإنسانية والاجتماعية عامة.

وهذا المؤلَّف بحدّ ذاته، قوامه أربعة أقسام متساوقة ومتطابقة ومتعاونة في سبيل البرّ بالغاية المرجوة منه.

تناولنا في القسم الأول الإبستمولوجيا، بوصفها نظرية المعرفة أو نظرية العلم، من المنطق إلى المنهج، ومن بيكون إلى ديكارت، والنقد الإبستمولوجي الديكارتي للتراث المعرفي السابق، وصولاً إلى المدارس الإبستمولوجية في لمحة فيها بعض التفصيل، من تجريبية هيوم إلى وضعية كونت، وتطورية داروين وصولاً إلى حقبة بروغ البحوث العلمية بالبراديغم كإطار معرفي مع توماس كون.

واقتحمنا في القسم الثاني لجَّة الإعلام كمهن وعلوم وبحوث، في

محاولة لاستنباط هذا العلم وتتبع مسائله، ومباحثه، والكشف عن مدى ارتباطه بالعلوم الاجتماعية والإنسانية وعلوم اللسانيات الحديثة، والغاية كانت ولا تزال تأصيل هذا العلم، كعلم عربي، وإن كان غربي النشأة والهوى.

وقادنا التصنيف النمطي للعلوم إلى عوالم كارل بوبر الثلاثة، عالم الأجسام، وعالم الوعي واللاوعي وعالم منتجات الفكر والحضارة.

ونظراً للمنحى المعرفي، الذي نحوناه باعتماد البراديغمات بوصفها «بنيات نظرية» ذات تركيب نسقي، رأينا أن الترتيب المنطقي يقتضي أن نبدأ بنشأة المهن الإعلامية، والتطورات التقانية، والوسائل والمرتكزات التي أدت إلى تشكل وتطور الإعلام القديم الجديد كمهن باقتصاديات هائلة وعاملين من الطباعة إلى الصياغة فالتحرير والكتابة، بدءاً من المطبعة وصولاً إلى الحواسيب الخارقة الذكاء. والهواتف المحمولة والإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي.

وبعد أن حددنا خاصيات علوم الإعلام، توقفنا عند أبرز الأعمال المؤسسة لنظريات الاتصال الحديثة من السيبرنطيقا إلى نظرية الإعلام ومساهمة رومان جاكوبسون، والبلاغة الحديثة مع رونالد بارت ومساهمة العلوم الإنسانية والاجتماعية، فضلاً عن مساهمة ماكلوهان والمقاربة اللغوية، البرغماتية.

وفي القسم الثالث، توقفنا عند المسائل، بأنواعها الثلاثة، المحاور البحثية، البراديغمات المستخدمة في الإعلامين القديم والجديد، ثم توقفنا عند الإشكالات المعرفية لهذ البراديغمات أو المقاربات.

وفي القسم الرابع والأخير، قاربنا بعض المفاهيم المنهجية، وتكوين مشكلة البحث والإشكاليات، بنشأتها واستخداماً، وصولاً إلى بناء إطار التحليل النظري، ولا سيما استخدام المفاهيم وبناء الفروض والمتغيرات وعليه، يمكن وصف القسم الأخير من هذا المؤلَّف، بالقسم الميثولوجي. والهدف من وراء ذلك كان الأخذ بيد الطالب والباحث، وتعويده على

الاندماج في المشكلة البحثية، عبر الإطلاع على الطرائقية المعتمدة، وتعويده أيضاً على الاطلاع على الأبحاث المنشورة، ومحاولة نقدها، واعتبارها نماذج صالحة للبحث.

ومن بين الأطروحات الجديدة التي توصلت إليها عبر المكابدة البحثية، والعمل اليومي المضني، في البحث والتفتيش عن التحولات المنقوصة في براديغمات المعرفة، في دعوة للتخلي تدريجياً عن الأخذ بنظرية المبادئ في العلم، واستبدالها بنطرية البراديغم.

وكأيّ عمل معرفي، لا يخلو هذا المؤلَّف من هنات أو رداءات تأليفية، وربما ثغرات، وأخطاء، هي «شيمة كل محاولة جريئة أولى» كما ردّد توماس كون.

ومع ذلك، يبقى هذا العمل محاولة جادة، على طريق بناء عقل بحثي، وعلماء بحّاثة، بمواصفات تليق بالمهمات والغايات البعيدة في تأسيس علم إعلام عربي يحتفظ بالأصالة والابتكار.

I

الإبستمولوجيا:
نقد المناهج وولادة البراديغم

تمهيــد :

الغاية من هذا القسم التعريف بفلسفة أو نظرية المعرفة "الإبستمولوجيا"، وكيف ظهرت مع منطق أرسطو، وتطورت مع منهج ديكارت وأورغانون فرنسيس بيكون، وصولاً إلى ظهور نظرية المناهج في العلوم، والتي أحلّ مكانها توماس كون نظرية البراديغم، لفهم اكتشافات العلوم وتقدّم المعرفة.

والبدء بـ"الإبستمولوجيا" له ما يسوّغه، بعد الثورة المعرفية الهائلة في العلوم كافة، ومسائلها ومناهجها، حتى نظرياتها.

فمن جهة كان لا بدّ من ربط العلم بمناهجه، واعتبار دراسة المناهج، أو مبادئ العلوم وقواعدها شرطاً من شروط المعرفة العلمية.

ومن جهة كان لا بدّ من فتح الطريق منهاجياً للوصول إلى نظرية كون في البراديغم كأبرز فلاسفة العلم في القرن العشرين المنصرم.

ومن جهة ثالثة، ولأن المعرفة ليست بنهائية أو منزّلة أو حتمية، كان لا بدّ من استتباع المناهج أو الشروط العقلية والفكرية لممارستها مذ كانت المعرفة هي الفلسفة أو أم العلوم. وصولاً إلى نشأة العلوم واستقلالها بمواضيعها ومناهجها ونتائجها النظرية، وللإضاءة أيضاً على طبيعة المعرفة العلمية ومناهجها النقدية، التي تكشف الأخطاء، وتطرح طرائق التخلص منها أو طردها.

ودراسة هذا القسم تبدأ بالتعريفات، وتمضي إلى المنطق الأرسطي ونقده، وولادة منهج ديكارت، والتعليم الجديد لبيكون، مع التوقف عند المدارس الإبستمولوجية الأربع: التجريبية، الوضعية، التطورية والثورية (توماس كون).

1 - الإبستمولوجيا: Epistemology, Epistémologie

باختصار شديد، هي دراسة العلم، من وجهة نظر فلسفية، يعني دراسة الأسس والمسلمات التي توجه الخطوات الهادفة إلى حين إدراك الواقع، وهي تتألف من لفظتين: (Episté) وتعني المعرفة، و(logie) فلسفة أو علم، أي فلسفة العلم. وعرّفها المعجم الفلسفي (Vocabulaire Philosophique) بأنها بحث نقدي في مبادئ العلوم، وفي الأصول المنطقية لهذه المبادئ. وأوجب التمييز بين فلسفة العلوم ونظرية المعرفة. (وهبة، كرم، شلالة. المعجم الفلسفي، مفرد إبستمولوجيا)[1].

وفي معجم Le Robert، نجد رابطاً ما بين الفلسفة والعلم. فالإبستمولوجيا هي:

1 - نظام من الأفكار يبحث في كُنه أسس العلم.

Système d'idées qui cherche à établir les fondements d'une science.

2 - دراسة نقدية للعلوم، مخصصة لتحديد: مصدرها، قيمتها، أهميتها بالنسبة للعلم (Le Robert, terme épistémologie).

Etude critique des sciences, destinée à déterminer leur origine, leur valeur, leur portée (Théorie de la connaissance).

مِن هذه العدسة، يتعين تحديد ما هو العلم أولاً، وتحديد مصادره وأسسه ثانياً، والتوقف عند قيمته، وأهميته ثالثاً، ثم رؤية كيفية حصول النقد للأسس والمنطلقات العلمية، فالإبستمولوجيا تبحث في أسس المعرفة قبل أن تسلّم بنتائج العملية المعرفية.

أ - ما هو العلم؟

هو مجموعة من المعارف العامة حول موضوع أو شيء، هو معرفة

---

(1) يشير المعجم الفلسفي إلى أن بعض الفلاسفة يعتبرون أن بحث نظرية المعرفة هو بحث وهمي. وهو يبحث في النسبة بين الذات العارفة والموضوع المعروف، وقد ذاع استخدامه في منتصف القرن التاسع عشر.

Savoir تمتلك موضوعاً للدراسة هو الوقائع Faits، والعلاقات المحققة، وفقاً لمناهج محددة، كالملاحظة، والتجربة، والفروض، والاستدلال.

والعلم هو أيضاً معرفة صحيحة (Exacte)، عمومية (Universelle)، ومحققة (Véritable)، يعبّر عنها بالقوانين (Les lois). (LE ROBERT, terme science).

والعلم، كما يحدد هدفه برتراند راسل[2] Bertrand Russell، يرمي إلى اكتشاف، بواسطة الملاحظة والتفكير المرتكز إليها، الوقائع الجزئية (المفردة) بادئ الأمر حول موضوع ما، ثم اكتشاف القوانين (Les lois) التي تُعيد ربط هذه الجزئيات الواحدة بالأخرى، مما يسمح (في الحالات الملائمة) بإعادة رؤية (توقّع) هذه الأحداث في المستقبل (Russell, science et religion, p. 7).

ويتفق مع هذه الوجهة فيلسوف العلم الفرنسي هنري بوانكاري[3] (Henri Poincaré) في كتابه القيّم "قيمة العلم" (La valeur de la science)، عندما ينظر إلى العلم بأنه "طريقة في تقريب الحوادث التي تفصل بينها المظاهر، رغم أنها مرتبطة بقرابة طبيعية وخفية، فالعلم هو نسق من العلاقات" (بوانكاري، قيمة العلم. ص160).

ومن هنا موضوعية العلم، على خلفية العلاقات، التي تُشكّل روابط بين الحوادث. وموضوعية العلم تعني "أن نعرف العلاقات الحقيقية بين الأشياء" (م. ن، ص.ن.).

---

(2) برتراند راسل: فيلسوف ومنطقي ورياضي بريطاني. وضع مع الفيلسوف وايتهيد كتاب "أسس الرياضيات". نال جائزة نوبل للآداب عام 1950. من كتبه المترجمة إلى العربية: تاريخ الفلسفة الغربية.

(3) هنري بوانكاري (1854-1912): فيلسوف علم فرنسي، ورياضي شهير. أشهر مؤلفاته "الطبولوجيا الجبرية" Topologie algébrique، والطبولوجيا تعني تحديد موقع الشيء الهندسي بالنسبة للأشياء، وليس بالنسبة لشكله أو حجمه.

إن المعرفة العلمية هي معرفة تصنع براهينها، والنظريات العلمية مستخرجة بطريقة صارمة من وقائع أو أحداث بالملاحظة والتجربة.

والعلم كمفهوم يرتقي إلى الثورة العلمية في القرن السابع عشر من غاليله إلى نيوتن.

يفرض البحث في العلم أو المعرفة العلمية مناقشة الطريقة العلمية أو المنهج .La méthode هذا المنهج هو الذي ترتبط به مصادر المعرفة على هذا النحو أو ذاك.

ب - المنهج أو الطريقة العلمية: La méthode scientifique

قبل ظهور المنهج (La méthode)، كان منطق أرسطو[4] أو المنطق الصوري أو الشكلي (La logique formelle) هو الأداة للكشف عن الخطأ في التفكير، وعصمة الذهن عن الوقوع فيه، وموضوعه الاستدلال، أي استنتاج شيء من شيء، هو السائد في المعارف والشرط الذي لا بدّ منه لكل فلسفة أو معرفة. والمنطق، في نظر ابن خلدون[5]. "قانون يهتدي به العقل في نظره إلى التمييز بين الحق والباطل" (ابن خلدون، المقدمة، ص993).

واعتبر أرسطو أن المنطق بوصفه علم قوانين الفكر، أو علم التفكير الصحيح، يجب تعلمه قبل الخوض في أي علم آخر. فهو (أي المنطق) آلة العلوم، وهي تستخدمه، وعرف بالأورغانون.

وتعددت كتب أرسطو المنطقية من المقولات (الجوهر والأعراض التسعة) (الجوهر (Substance) هو الشيء القائم بنفسه، وتستند إليه جميع المحمولات، مثل: إنسان، حجر، رجل، طاولة. الأعراض أو المحمولات، وعددها تسع. وهي: الكمية (Quantité) وتجيب على

---

(4) أرسطو Aristote (384-322ق.م): هو فيلسوف وعالم إغريقي، وواضع علم المنطق.

(5) ابن خلدون: (1332-1406) مؤرخ ومفكر عربي، وواضع أسس علم العمران، أشهر مؤلفاته: المقدمة.

السؤال: كم؟ الكيفية (العرض) Qualité، وهي الصفة التي تتعاقب على الجوهر كاللون مثلاً بالإضافة أو العلاقة (Relation) معناها ضم شيء إلى شيء. المكان (Lieu)، الزمان (Temps)، الوضع (Position)، الملك (Possession) (في يده)، الانفعال (Passion) (مذهول). إلى كتاب العبارة والتحليلات الأولى (يبحث بالاستدلال على وجه الإجمال) والتحليلات الثانية (وهو يبحث في الشروط الصحيحة الواجب توفرها في البرهان، فضلاً عن "الجدل" والأغاليط (سوفسطيقا).

فالمفردات والقضايا (المقدمات) هي التي يتألف منها القياس (Syllogisme)، ويعود الفضل إلى أرسطو دون سواه بوضع قوانين القياس. وعرّفه أرسطو بأنه "كلام متى وضعنا فيه شيئاً، لزم عنه شيء آخر بالضرورة" (ماجد فخري، أرسطو، ص33) ويعني بالشيء الموضوع، المقدمتين الكبرى والصغرى، وبالشيء الآخر النتيجة التي تلزم عنهما.

ويتألف علم المنطق بوصفه علم الاستدلال من:

1 - الإستدلال المباشر (Déduction immédiate) ويعرف بالاستنباط أو القياس.

2 - الإستقراء (Induction): وهو استنتاج قضية من قضيتين أو أكثر من القضايا الجزئية، أي الانتقال ممّا هو جزئي أو خاص إلى ما هو عام أو كليّ، فهو ينطلق من كل الحالات لا بعضها. وفي مثل هذه الحالة يدعى استقراءً تاماً. والاستقراء هو منهج البحث العلمي.

وتبنى المعرفة عند أرسطو على مقدّمات ضرورية أي لا تبرهن، وهي المبادئ (Les principes)، ندركها بقوة الحدس، أو (بالبداهة)، وهي ثلاثة أشكال:

1 - البديهيات، وهي قوانين الفكر، أو القواعد المنطقية التي ترتكز عليها سائر المعارف: كقانون الهوية: أ=أ (أحمد هو أحمد) وقانون عدم التناقض (Principe de non contradiction). وهو أن الشيء لا يمكن أن يكون هو ذاته ونقيضه معاً. أب و/ب في الوقت نفسه. وهذا يفيد

ثبات الحقيقة وعدم تنافضها. وقانون الثالث المرفوع: Le principe du tiers-exclais ومعناه أن لا بدّ أن يتصف بصفة ما أو نقيضها ولا وسط بينهما. مثال: الأستاذ في الصف أو في غير الصف: أو أ إما ب أو لا ب.

2 - الأوضاع: التي تفيد وجود الشيء أو عدمه، ومنها تنطلق المباحث في العلوم.

3 - التحديدات: التي تعرف منها ماهية الشيء على سبيل التصور (وهي التعريفات).

شكّل منطق أرسطو ونظرياته في الطبيعة وما وراء الطبيعة والسياسة والأخلاق سلطة المعرفة في الحقبات التي عرفها الفكر والعلم الإنسانيين من الحقبة اليونانية إلى الحقبة الهلينية إلى الحقبة العربية والإسلامية امتداداً إلى أوروبا المسيحية في القرون الوسطى، وبات تعلّم المنطق سمة المفكر والمثقف والعالم منذ أيام أرسطو حتى عصر النهضة في أوروبا، ودخول الغرب اللاتيني الأزمة الحديثة، وبناء العالم الحديث، وبناء العلم الذي هو السمة الكبيرة التي طبعت الغرب وما زالت.

أدى اكتشاف الإغريق الطبيعة* إلى اكتشاف العلم. وأدى اهتمام القرون الوسطى بالطبيعة إلى ولادة العلم الحديث ومناهجه، ويمكن أن "نجد في القرون الوسطى مصدرين لهذا الاهتمام في المعرفة الموضوعية: التجارة التي سعت في البلاد البعيدة النائية وراء الذهب والكماليات الثمينة والبهارات، وتأثير العلم الإغريقي الذي جاء نتيجة لاكتشاف أرسطو عن طريق العرب" (جون راندال. تكوين العقل الحديث. ج1، ص328).

أمّا مناهج المعرفة والاستدلال التي وضعها أرسطو في كتبه المنطقية

---

* الطبيعة (Physique): حدد الإغريق القدماء معنى الطبيعة بأنها الكون من دون البشر وثقافتهم. وترتب على هذا التعريف ظهور فكرة الموضوعي، وفصلها عن الذاتي، أي أن العالم له وجود مستقل عن أي تصوّر ذاتي.

من القياس إلى الاستقراء ونظام الأولويات والتعاريف والنظرة إلى الطبيعة بأنها نزوع إلى الكمال وانتقال من القوة إلى الفعل، فكانت موضع نقد ورفض وتعنيف بدءاً من علماء الفلك ككوبرنيق، وغاليله وكبلر وتيخو، وصولاً إلى فرنسيس بيكون[1] Francis Bacon (1561-1626) ورينيه ديكارت Rene Descartes (1590-1650) في القرن السابع عشر، وهو عصر ظهور المنهج (La méthode)، على أنقاض تعاليم أرسطو في القياس والاستدلال والاستقراء.

بيكون والتحرّر من الأصنام والأوهام (Idols):

وضع بيكون الأورغانون الجديد (Novum organun) أو البناء الرائع عام 1620، لكنه عرض أكثر أفكاره في المنهج في كتاب بالإنكليزية عنوانه "تقدّم التعليم" أو المعرفة (The advancement of learning) كتبه عام 1605، وأكّد فيه الحاجة إلى منهج جديد أو أداة جديدة للكشف "يحل محل نظرية القياس التي أصبح إفلاسها واضحاً للعيان" (راسل، حكم الغرب، ج1، ص59).

دعا بيكون إلى الاعتماد على الوقائع، ودعم أدلته بشواهد الإدراك الحسيّ، واتخذ الاستقراء[2] منهجاً. وعرض بيكون مختلف أشكال الخطأ التي تعرّض لها عقل الإنسان وصنفها في أربعة أنواع، أطلق عليها "الأصنام أو الأوهام" (Idols). وهي:

1 - أوهام القبيلة (أو النوع البشري) التي نقع فيها لمجرّد كوننا بشراً[3].
2 - أوهام الكهف: وهي نقاط الضعف في كل فرد أو شخص.

---

(1) فرنسيس بيكون: فيلسوف انكليزي، واضع أسس المادية التجريبية الحديثة. قال بسيطرة الإنسان على الطبيعة، ودافع عن العلم التجريبي.

(2) يلاحظ راسل أن الاستقراء لم يكن فكرة جديدة بذاتها، فقد استخدمها أرسطو، لكن طريقة الاستخدام اختلفت، ولم تعد تعداداً بسيطاً للأمثلة أو الجزئيات.

(3) تحكم أمانينا في اتجاه تفكيرنا. توقع أن نجد في الظواهر الطبيعية نظاماً يزيد على ما هو موجود فعلاً.

3 - أوهام السوق: الأخطاء الناجمة عن ميل الذهن إلى الانبهار بالألفاظ[1].

4 - أوهام المسرح: وتنشأ عن المذاهب والمدارس الفكرية[2] (راسل، م.ن، ص62).

حددت النهضة هدف العلم والمعرفة العلمية بتوسيع سيطرة الإنسان على الطبيعة لا أي شي آخر، ولا الانبهار بسلطة القدماء. ومن زاوية أن حاجة الناس هي إلى طريقة لاكتشاف الحقائق الجديدة، لا لتعليم الحقائق المعروفة أو إقامة الدليل عليها، لخّص بيكون في ما كتبه هذا التغيّر الفكري العميق. والذي يحمل في مضامينه نقداً إبستمولوجياً لأسس العلم الأرسطي.

النقد الإبستمولوجي عند بيكون:

1 - الطبيعة مصدر المعرفة الحقة وليس التأملات والتفسيرات ذات المظهر الخادع. فهي (الطبيعة) "أدق مرّات ومرّات من الحواس والفهم" (برينتون، تشكيل العقل الحديث، ص134)، ولكنها تحتاج إلى مَن يدرك وقائعها.

2 - لا يصلح القياس المنطقي لمعرفة الطبيعة، فهو يقوم على "المبادئ الأوّلية للعلوم، ويطبق عبثاً على البديهيات الوسيطة، ويقود إلى التسليم بالقضية شكلاً ويفلت منه الموضوع" (م، ن، ص،ن).

3 - يتألف القياس المنطقي من قضايا. وتتألف القضايا من كلمات، والكلمات رموز لأفكار، فإذا تشوشت الأفكار ذاتها (وهي أصل الموضوع) وتعجلنا تجريدها من الوقائع سيفتقد البناء الفوقي اليقين الراسخ. لكل هذا نضع أملنا الوحيد في الاستقراء كمنهج أصيل" (برينتون، تشكيل العقل الحديث، ص135).

4 - إن أفكارنا عارية عن الصواب سواء أكانت منطقية أم طبيعية. فالجوهر والكيف والفعل والانفعال والماهية ليست أفكاراً صحيحة،

---

(1) وهذا أكثر ما يظهر وينتشر في الفلسفة.

(2) وهنا إشارة إلى مذهب أرسطو.

ناهيك عن الثقل والضوء والكثافة والندرة والرطب والجاف والتولد والفساد والجاذبية والنفور والعنصر والمادة والصورة وما شابه ذلك، فجميعها أفكار خيالية وغير محدد المعنى بدقة (م، ن، ص، ن).

يقوم منهج الاستقراء عند بيكون على الملاحظة أولاً، والبدء من الحواس والجزئيات صعوداً إلى أكثر البدهيات تعميماً. وهذا منهج الصدق الثابت والمقرّر.

أرسى بيكون أسس الاستقراء، واضعاً القواعد الأولى الحقيقية لإجراء التجريب. وسمّى مجموع هذه القواعد باسم قنص بان[1] (La chasse de Pan)، في محاولة منه لبحث طبائع الأشياء أو الكيفيات التي توجد عليها.

ومنهج بيكون هذا يقوم على مرحلتين: مرحلة التجريب، ومرحلة تسجيل التجربة أو اللوحات.

المرحلة الأولى:

1 - **تنويع التجربة**، في إنتاج ظاهرة ما أو إحداث ظاهرة من الظواهر[2]، وهذه تؤدي إلى كشف خواص جديدة لطبائع الأشياء.

2 - **إطالة التجربة**، لمعرفة أثر السبب في النتيجة[3].

3 - **نقل التجربة**: أي تطبيق المعلومات التي توصلنا إليها إلى فرع آخر من صناعة جديدة للإفادة منها.

4 - **قلب التجربة أو عكسها**، أي التعرّف إلى أثر العلة في وضع مقلوب[4].

---

(1) بان إله الطبيعة والبراري والصيد عند اليونان.

(2) مثل صناعة الورق من لب الخشب أو قصاصات الثياب.

(3) فنحن لو عرضنا سائلاً لدرجة حرارة خفيفة حدث عنه تقطير، وإذا استمرينا طويلاً حدث عنه تصعيد، فنصل إلى ظاهر جديدة.

(4) تسخين قضيب الحديد. فالحرارة تنتقل من أعلى إلى أسفل بطريقة أسرع فلنبدأ من أسفل إلى أعلى، لنرى الأثر.

المرحلة الثانية:

وهي لوحة الحضور ولوحة الغياب ولوحة تفاوت الدرجات.

1 - **لوحة الحضور**: تسجيل الحالات التي يمكن مشاهدتها أو التحقق منها بالنسبة إلى الظاهرة[1]. فعلى الباحث في لوحة الحضور أن يسجّل كل الأحوال الممكنة لحدوث الظاهرة: معرفة الحاضر والغائب.

2 - **لوحة الغياب**: وليس المقصود بها الأحوال التي لا تحدث فيها الظاهرة، وإنما المقصود بالغياب ملاحظة ما يحصل إذا غابت حالة من حالات الحضور[2]. وهذه الحالة محدودة ويمكن تسجيل لوحة الغياب.

3 - **لوحة تفاوت الدرجات**: وتعني تسجيل الدرجات المتفاوتة (المتباينة) في الظاهرة المدروسة[3].

وبهذا تكون اللوحات وافية بالغرض، مما يؤدي إلى اكتشاف مجموعات من العلوم لم يكن متاحاً من دون إجرائها (عبدالرحمن بدوي. مناهج البحث العلمي، ص158-161).

نقد إبستمولوجي لطريقة بيكون:

يلاحظ عبدالرحمن بدوي أن منهج بيكون ليس بالدقيق، ولا يعدو كونه مجموعة من النصائح والإرشادات تقدّم للمجرب البحث أثناء التجربة.

على أن النقد لبيكون وطريقته جاء على نحو أكثر قساوة من راسل، الذي وصف منهجه بأنه "يصلح للانطباق على البحث الإحصائي. أما في ما يتعلق بصياغة الفروض فقد كان بيكون على خطأ في اعتقاده أنها مبنية

---

(1) مصادر الحرارة: 27 حالة منها: لمس جسم بارد في الشتاء فيشعر بالاحتراق. الاحتكاك، الصواعق، الاختمار، أشعة الشمس، الصاعقة، حرارة الكائنات الحية.

(2) مثال: الحضور: حرارة الشمس. الغياب: الكسوف أو الليل.

(3) ومثال: كمية الكهرباء التي تحدث بواسطة عمود كهربائي أو مولد كهربائي أو احتكاك.

على الاستقراء، التي تكون مهمته اختبار الفروض. والواقع أن بيكون كان مخطّئاً كل الخطأ عندما اعتقد بإمكان وجود أداة للكشف يستطيع المرء عن طريق تطبيقها آلياً أن يميط اللثام عن أسرار جديدة مذهلة للطبيعة"[1].

هذا أولاً، والنقد الثاني الذي أشار إليه راسل يتعلق برفضه للقياس الأرسطي. وهذا أدى به إلى "الإقلال من أهمية وظيفة الاستنباط في البحث العلمي.. وهو (بيكون) لم يبدِ تقديراً كبيراً للمناهج الرياضية التي كانت قد بدأت تتطور في عصره، لأن دور الاستقراء في اختيار الفروض ما هو إلا جانب بسيط من جوانب المنهج" (راسل، حكمة الغرب، ج2، ص60-61).

وفي رأي راسل، وهو أبرز فلاسفة المنطق الرياضي الحديث، أنه "بغير الاستنباط الرياضي الذي يقودنا من الفروض إلى موقف عيني قابل للاختبار، لا تتوافر لدينا معرفة ما يتعيّن علينا اختباره" (راسل، ص64).

ويختم راسل نقده طريقة بيكون، وحتى بيكون نفسه بالإشارة إلى أنه "وعلى الرغم من كل ما أبداه من اهتمام بالبحث العلمي، قد فاتته جميع التطورات الأكثر أهمية في عصره تقريباً. فهو لم يعرف أعمال كبلر، وعلى الرغم من أنه كان يتلقى العلاج على يد هارفي، فإنه لم يعرف بأبحاث طبيبه عن الدورة الدموية" (راسل، حكمة الغرب، ج2، ص62).

نقد بوبر[2]:

كان نقد كارل بوبر لمذهب بيكون العلمي هو الأهم والأخطر في أن

---

(1) يصف د. فؤاد زكريا نقد راسل لبيكون، من هذه الناحية، بأنه ينطوي على قدر من التجني، لأن بيكون - في نظره - لم يكن أصلاً من أنصار وضع الفروض في البحث العلمي، ويحذر منها بوصفها قفزات عقلية غير مأمونة. (راجع هامش(1) ص61 من كتاب حكمة الغرب ج2.

(2) كارل بوبر (Karl Popper) (1902-1994): أكبر فيلسوف علم في القرن العشرين. وهو فيلسوف انكليزي، نمساوي المولد. يعتبر من أغزر المؤلفين في فلسفة العلم والمناهج العلمية والسياسة والاجتماع. من مؤلفاته: منطق الكشف العلمي، بحثاً عن عالم أفضل، المجتمع المفتوح وأعداؤه. أسطورة الإطار. الحياة بأسرها حلول لمشكلات.

معاً. وتكمن أهميته في تحديد موقع صاحب "الأورغانون الجديد" في تاريخ العلم، وخطورته في تبيان قصوره عن خدمة العلم في القرن العشرين وما تلاه.

وصف بوبر منهج بيكون، لا سيما منهجه الاستقرائي القائم على الملاحظة بأنه "دوغما" المعتقد اليقيني القاطع، أو عقيدة العلم الجديدة، أو مذهب الملاحظة (Observationism)، وشرحه كما يلي: "الإنسان عجول، تستهويه النتائج السريعة، ومن ثم يقفز إلى الاستنتاجات، وهذا هو المنهج التأملي العتيق، الطالح، يسميه بيكون "منهج استباقات العقل". وهو منهج زائف، لأنه يؤدي إلى انحيازات (Anticipations). بيكون هو الذي صاغ مصطلح "انحياز" (Prejuda) (بوبر، أسطورة الإطار، ص111).

ومنهج بيكون، كما شرحه بوبر، يقوم على:

1 - تنقية عقولنا من كل انحياز، أي من كل الأفكار المسبقة، من كل النظريات (الخرافات والأوثان) التي تصلنا.

2 - قراءة كتاب الطبيعة، بعد أن أصبحت عقولنا خالصة. "وكل ما علينا هو أن نفتح عيوننا، أن نلاحظ الأشياء بصبر، وأن نسجّل ملاحظتنا بعناية، بغير أن نسيء تأويلها أو أن نشوّهها، وسوف تتكشف أمامنا طبيعة أو ماهية الشيء الملاحظ" (بوبر، م، ن، ص، ن).

بعد ذلك، يوجه بوبر النقد التالي لأسس المنهج البيكوني:

1 - يعتبر بوبر أن دعوة بيكون إلى تطهير عقولنا من الانحيازات أو النظريات المسبقة أو السابقة على البحث العلمي، فكرة "ساذجة وخاطئة". فمعرفة الانحيازات لا يتحقق إلا من خلال التقدم في العلم، تمهيداً لنبذها. (فكرة الأرض المسطحة أو فكرة الشمس المتحركة) هي انحيازات، ما كان يمكن معرفتها أو اكتشافها من دون التقدّم في المعرفة. فقاعدة "طهّر نفسك من الانحيازات" ليس لها إلا نتيجة خطيرة، وهي أنك قد تحاول مرة أو اثنتين، وتعتقد

أنك نجحت، ونتيجة لهذا تتشبث أكثر بانحيازاتك وعقائدك القاطعة، وخصوصاً تلك التي لا تكون على وعي بها" (بوبر، أسطورة الإطار، ص113). والعقل إذا ما جرى تطهيره على هذا النحو، لا يكون خالصاً بل خاوياً.

2 - إننا نعمل دائماً بنظريات، ولو كنا على غير وعي بأننا نعمل بالنظريات. ويتوجب علينا أن نحاول صياغة النظريات التي نتمسك بها صياغة واضحة، لأن "هذا يجعل من الممكن أن نبحث عن نظريات بديلة، وأن نميّز بين نظرية وأخرى على أسس نقدية" (بوبر، ص114).

3 - يتوقف بوبر عند ما يسمّيه "مشكلة بيكون"، وهي خشيته من أننا "إذا أوّلنا الوقائع في ضوء النظريات المسبقة أو "الانحيازات"، فسوف يجنح بنا الأمر نحو جعل الوقائع تثبت وتدعم هذه الانحيازات، والانحيازات بهذا تجعل من المستحيل أن نتعلم من الخبرة" (بوبر، م، ن).

وبتبسيط أكثر إذا كانت "النظريات المسبقة" هي الانحيازات، فتصبح عقبة أمام تقدّم العلم أو حاجزاً يصعب اجتيازه، من خلال الملاحظات والتجربة.

ويرد بوبر على بيكون بمثال من التحليل النفسي ونظرياته بالتساؤل التالي: "هل نستطيع تصوّر أي سلوك إنساني لا نتمكن من تأويله في حدود التحليل النفسي؟ إذا كانت الإجابة بالنفي، نستطيع القول إن أي ملاحظة يمكن تصوّرها يمكن تأويلها في ضوء نظرية التحليل النفسي (وهذا تدعيم للنظرية)، ولكن إذا أمكن أن نقول هذا بصورة سابقة على أي ملاحظة فلا يجب نعت هذا التدعيم بأنه تجريبي أصيل أو قائم على الملاحظة" (م. ن.).

منهج ديكارت **Méthode de Descartes**:

لم يقتصر هدم القياس الأرسطي على بيكون رائد المنهج العلمي، القائم على "الملاحظة والتجريب"، بل بلغ الأمر شأوه مع رينيه

ديكارت[1] (René Descartes)، واضع أسس الفلسفة الغربية الحديثة، ومؤسس المنهج القائم على الحدس والاستنباط العقليين، والذي أراد من خلاله بناء العلم من أوله على حقيقة أولى يقينية، شكلت معياراً للعلم اليقيني، الذي لا يرقى إليه أدنى شك، ومن هذا المعيار حاول بناء المبدأ الكليّ؛ فاستنبط المبادئ المباشرة للأشياء، وأعاد بناء العالم الحقيقي.

أول شرط من شروط التفلسف، عند ديكارت، الشعور بضرورة المنهج. وهو "الطريقة الصحيحة الموصلة إلى جميع الأشياء (المعارف) التي يقدر عليها عقلي" (ديكارت، مقالة الطريقة، ص9). وكلمة الصحيحة تعني الصواب لا الخطأ، واليقين لا الشك.

1 - النقد الإبستمولوجي الديكارتي للتراث المعرفي السابق:

شكّل نقد ديكارت لمجمل التراث المعرفي وأدواته، وهو ما عُرف بالشك الديكارتي منطلقاً لبناء المنهج أو الطريقة لحسن قيادة العقل والبحث عن الحقيقة في العلوم أو مقالة الطريقة (1637) (Discours de la méthode). فالمنهج هو الطريق إلى العلم اليقيني، وهذا لا يجده:

❖ في الآراء التي اعتقدها من قبل، فهي مجرّد آراء محتملة.

❖ إن كثرة "الأصوات ليست دليلاً ذا قيمة على الحقائق التي يصعب كشفها، لأن من الأقرب إلى الاحتمال أن يجدها رجل واحد، من أن يجدها شعب بأسره" (ديكارت، مقالة الطريقة، ص98). وهذا يعني طرح الآراء التي تصفق لها الجماهير، جانباً، لأن المقياس للتفريق بين الحق والباطل، لا يكون بعدد مؤيدي هذا الرأي أو ذاك.

❖ التخلّي عن المعارف المتأتية عن التجربة الحسيّة، لأن "كل ما

---

(1) رينيه ديكارت René Descartes (1596-1650م): فيلسوف ورياضي وعالم طبيعة فرنسي، مبدع الهندسة التحليلية، وعالم الطبيعيات. من أهم مؤلفاته: كتاب العالم (Traité du monde)، التأملات (Les Médiations)، كتاب المبادئ (Principes de philosophie)، كتاب الأهواء (Des passions)، مقالة الطريقة (1637) (Discours de la méthode).

تلقيته، حتى الآن، على أنه أصدق الأمور وأوثقها، قد اكتسبته بالحواس، أو عن طريق الحواس، غير أني وجدت الحواس خدّاعة، في بعض الأوقات، ومن الحكمة أن لا نطمئن أبداً كل الاطمئنان إلى مَن يخدعنا، ولو لمرة واحدة" (ديكارت، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ص48).

وترك أقيسة أرسطو المقيّدة لحركة الذهن الطبيعية، لأنها لا تساعد على اكتشاف الحق. "وفي ما يتعلق بالمنطق، إن أقيسته وأكثر تعاليمه الأخرى لا تنفعنا في تعلم الأمور بقدر ما تعيننا على أن نشرح لغيرنا من الناس ما نعرفه منها... ومع أن هذا العلم يشتمل في الحقيقة على كثير من القواعد الصحيحة والمفيدة[1]، فإن فيه أيضاً قواعد أخرى كثيرة ضارة وزائدة، وهي مختلطة بالأولى، بحيث يصعب فصلها عنها" (ديكارت، مقالة الطريقة، ص100).

❖ شك ديكارت بعلوم الطبيعة والفلك والطب، باعتبارها علوماً مركبة، مادية. قد يتركب ما في فكرنا عنها صور مختلقة أو وهمية، كالامتداد، والكمية، والمقدار، والزمان الذي تدوم فيه. أما "الحساب والهندسة، فهي تحتوي على شيء يقيني، لا سبيل إلى الشك فيه، فسواء كنت يقظاً أو نائماً، هنالك حقيقة ثابتة، وهي أن مجموع اثنين وثلاثة هو خمسة دائماً، وأن المربع لن يزيد على أربعة أضلاع أبداً. إن حقائق قد بلغت هذه المرتبة، من الوضوح، لا يمكن أن تكون موضع خطأ، أو عدم يقين" (ديكارت، تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى، ص52).

مع أن ديكارت رسّخ في ذهنه معتقد فحواه "أن هنالك إلهاً قادراً على كل شيء.. فما يدريني؟ لعلّه قضى أن لا يكون هناك أرض، ولا سماء، ولا جسم يمتد، ولا شكل، ولا مقدار، ولا حيّز، ومع ذلك، أن

---

(1) منها، قواعد القياس، وقاعدة الانتقال من المعلوم إلى المجهول، وقاعدة تقسيم المعضلات.

أحس بهذه الأشياء جميعاً، فتبدو لي كائنة على غير ما أراها[1]، فإنه لا يتردد عن القول أنه كان مضطراً إلى "أن أتولى توجيه نفسي بنفسي" (ديكارت، مقالة المنهج، ص68). فراودته فكرة، من أن إحساسه بأن كل شيء زائف، يعني أنه يفكّر. وهكذا انقدحت الحقيقة في ذهنه "أنا أفكّر إذاً أنا موجود". وهذا هو الكوجيتوالديكارتي، اليقيني والصادق، هو مبدأ الفلسفة، الذي لا يمكن أن يتطرّق إليه الشك، وعليه عزم ديكارت عزماً صادقاً وثابتاً، على الالتزام بالقواعد الأربع للمنهج، من دون الإخلال بواحدة منها أو بأكثر للوصول إلى العلم اليقيني. وهي:

الأولى: أن لا أتلقى شيئاً على الإطلاق على أنه حق ما لم أتبين بالبداهة (البدهي أو البديهي، هو الأمر الذي تظهر حقيقته للعقل مباشرة. وهو ضد: الباطل، أو المحتمل القريب من الحقيقة) أنه كذلك، أي أن أعنى بتجنّب التعجل (التعجّل (Précipitation) هو الحكم على الشيء قبل أن يصل العقل فيه إلى البداهة واليقين) والتشبث بالأحكام السابقة (التشبث بالأحكام السابقة (Prévention) هو أن يكون للمرء أحكام يتشبث بها قبل النظر فيها، وهي عائدة لأيام الطفولة، والتقليد، ويسمى الرأي المبني على التشبث بالوهم)، وأن لا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل لعقلي في وضوح (وضوح (Clarité) ضد الغموض، الفكرة الحاضرة في الذهن. ومنها التذكر)، وتميّز لا يكون لديّ معهما أي مجال لوضعه موضع الشك" (تميّز: (Distinction)، اشتمال الفكرة على عناصر، وضدها الالتباس (Confusion). وهذه القاعدة تُعرف بقاعدة البداهة، التي تخرج من المعرفة ما هو باطل وتقتصر على الحقائق الضرورية.

وهذه القاعدة تعني عدم التسليم بأي علم أو إدراك ما لم يحصل بالحدس المباشر أو غير المباشر أو الاستنباط.

الثانية: أن أقسّم كل واحدة من المعضلات التي أبحثها إلى عدد من

---

(1) لكن ديكارت يستدرك أن الله لا يفعل، فهو كريم، رحيم، وهو منزه عن تضليلي، (تأملات ميتافيزيقية، ص52).

الأجزاء الممكنة واللازمة لحلها على أحسن وجه[1]. وهي تعني: لمّا كان مطلب اليقين يبدأ من الوضوح، فيجب تقسيم المركب إلى أجزائه البسيطة، أي مما هو تابع لغيره ومعقول بهذا الغير، والغرض بلوغ الحدس الذي هو المعرفة الحقة.

والتحليل قسمة البحث إلى مشكلات أبسط حتى الوصول إلى معان كلية البساطة، بحيث لا تقبل القسمة، ثم نعالج كل مشكلة على حدة. وكل مشكلة تحتوي على مجهول، لكشفه لا بدّ من البداهة، والتميّز والوضوح[2].

الثالثة: أن أرتّب أفكاري، فأبدأ بأبسط الأمور وأيسرها معرفة، وأتدرج في الصعود شيئاً فشيئاً حتى أصل إلى معرفة أكثر الأمور تركيباً، بل أن أفرض ترتيباً بين الأمور التي يسبق بعضها بعضاً بالطبع[3]. وهذه تسمى قاعدة التركيب (Synthèse).

ولقاعدة التركيب فرعان: "الأول التدرّج من المبادئ إلى النتائج. وذلك يكون بأن ننظر أولاً في حدّ من حدود المسألة، ثم في حدّ آخر، ثم في النسبة بينهما، ثم في حدّ ثالث، وهكذا حتى نأتي على جميع الحدود ونسبها" (يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص64).

والمهم، حسب ديكارت ليس التأليف بحد ذاته، بل الترتيب، أي ما يتصل بالنظام. وهو الفرع الثاني: "أي افتراض النظام حين لا يتبين نظام الحدود. والمقصود بالنظام "نظام الأسباب" الذي بموجبه تلزم معرفة حدّ من معرفة حدّ سابق لزوماً ضرورياً، وإذا لم ينتج النظام المفروض،

---

(1) وتسمى هذه القاعدة بفاعل التحليل Analyse.

(2) مثال: المطلوب: التعرّف إلى طبيعة المغناطيس.
المنهج القديم: تخيّل علة أو كائن حي، كالجذب أو المغناطيس.
المنهج الديكارتي: ردّ تلك العلة المجهولة إلى علة معلومة. ردّ الطبائع المعقدة إلى بسيطة (كالامتداد، والشكل والحركة).

(3) تكون الفكرة أيسر معرفة من غيرها عندما تكون متقدمة على غيرها في سلسلة الاستدلال. والفكرة الأيسر معرفة تكون أكثر بداهة، وأقرب إلى المبادئ الأولى.

افترضنا نظاماً آخر، إلى أن نصل إلى النظام الملائم: فهنا يتدخل العقل، إذ لا يقوم العلم إلا بالنظام" (كرم، م، ن).

والترتيب يعني أن تعرض أولاً الأشياء المعروفة من دون معرفة الأشياء التي تليها، وأن الأشياء التالية يجب أن ترتب بعد ذلك بحيث يكون إثباتها بالأشياء التي تسبقها. فإذا تصورت واحدة منها بالحدس انتقلت إلى الأخرى (بتعبير ديكارت) إلى أن أتبين كيف انتقل من رابطة إلى أخرى بسرعة، فأحصل على حدس للكل في وقت واحد.

وهذا يقتضي التمييز بين ما هو مطلق Absolue، وهو الشيء الذي لا ترتب معرفته على شيء آخر (كالبسيط والكليّ، والمستقيم)، وبين ما هو نسبيّ، ويعرف دائماً بشروط: مثل العلة بالنسبة للمعلول. والخاص بالنسبة للعام، والمركب بالنسبة للبسيط.

والقاعدة الرابعة (الأخيرة): أن أقوم في جميع الأحوال بإحصاءات كاملة ومراجعات عامة تجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئاً (ديكارت، مقالة الطريقة، (ص103-104) مع الهوامش). وهذه قاعدة الإحصاء أو الاستقراء. وتطالبنا بألا نغفل عن أيّ جزء من أجزاء المشكلة التي نريد حلّها، وأن نستعرض جميع استدلالاتنا، والإحاطة بها من خلال تصفحها مرات بحركة متصلة من حركات الفكر. وهذا الاستقراء يعني الانتقال من حدس إلى حدس لإدراك المسألة كلها، من دون أن أدع أي مجال للذاكرة.

وباختصار، فالمنهج الديكارتي يمكن إيجازه على النحو التالي: إذا أردت أن تصيب الحقيقة، فاطلب البداهة، وإذا أردت البداهة فاطلب في كل مسألة أبسط الأشياء. إذاً قسّم وحلّل. وإذا حصلت على حقائق بسيطة، بديهية، استخدمها لتصيب الحقائق المركبة أو المشكوك فيها. إذاً ركّب وألّف. وأخيراً افحص تأليفاتك وتحليلاتك لتتحقق من أنها مضبوطة وتامة. وهذا هو منهج البداهة والاستنباط العقليين.

النقد الإبستمولوجي لمنهج ديكارت:

يقتصر النقد الإبستمولوجي على منهج ديكارت فقط، وبملاحظات قليلة، وليس على فلسفته أي فلسفة ثنائية العقل والمادة أو النفس والجسد.

لا يحلّل منهج ديكارت أفعال العقل، ولا يتوقف عند صدقها، أو خطئها، كما يبين منطق أرسطو. فالمنهج عند ديكارت "يبيّن القواعد العملية التي يجب اتباعها لإقامة العلم" (كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص65).

أهم ما في مذهب ديكارت الفلسفي هو طريقة الشك المنهجي، كأسلوب إجرائي، ونقطة البداية لتجنب النتائج الشكاكة "هو أفكاره الواضحة والمتميزة، التي يجدها في نشاطه الذهني الخاص... فالأفكار مثل الامتداد والحركة مستقلة عن الحواس، وهي فطرية، ومثل هذه الصفات الأولية هي التي تولد معرفة المعنى الأصيل... فالفلسفة الديكارتية تؤكد الأفكار بوصفها نقاط البداية التي لا يتطرّق إليها الشك" (راسل، حكمة الغرب، ج2، ص72-73).

ويلاحظ برتراند راسل أن فكرة "أنا أفكّر إذاً أنا موجود"، ليست في ذاتها صحيحة كل الصحة. ذلك لأن هذه العبارة لا تكون سليمة إلا إذا اعترفنا بمسلمة مضمرة، هي أن الفكر عملية واعية بذاتها... ولو لم نفعل ذلك، لتساوى مع هذه القضية أن نقول: "أنا أمشي إذاً أنا موجود" (راسل، ص73).

فالعلم عند ديكارت استنباطي يضع المبادئ البسيطة الواضحة، ويتدرّج منها إلى النتائج. (كرم، ص65). والتجربة عنده تقتصر على إثارة الفكر، وتعريفنا أي نتائج الاستنباط هي المحققة بالفعل من بين النتائج المختلفة التي يستطيع العقل أن يستنبطها من المبادئ.

المهم بالنسبة لديكارت هو كيفية تطبيق مبادئ المنهج على المعرفة. والسؤال ما دام لكل علم مبدأ (أو مبادئ)، فأين نلتمس المبدأ الذي نقيم عليه العلم؟ والجواب في الفكرة الواضحة المتميزة، أي في البداهة،

والمعاني الفطرية غير الخاضعة للتجربة والحواس أو المأخوذة عن التقليد. وبيير غاسندي[1] (1592-1655) هو من المفكرين الذين عارضوا نظرية المعاني الفطرية، وبخاصة معنى الله، وإنكار ديكارت فكرة الجوهر الفرد، معتبراً أن القسمة إلى غير نهاية.

والأمر الأساسي في فكرة "الوضوح والتمييز" تكمن في الرياضيات التي هي المفتاح الذي يكشف لنا كل غوامض خبرتنا ويمحو كل مظاهر التشوّش.

الاستقراء والاستنباط: Induction et Déduction

على أنقاض الفكر السكولاني، المدرسي، المسيحي في القرون الوسطى، وتعاليم أرسطو في الطبيعة والنظرة إلى العالم، ومقولات المنطق التي وضعها في التصوّر والتصديق والتحليل والبرهان والمغالطة، سيظهر منهج الاستقراء مع بيكون Bacon، ومنهج الاستنباط والحدس مع ديكارت (Descartes) والاستقراء (Induction): هو عملية ذهنية، ترتكز على الصعود من الوقائع إلى القانون، من الحالات الفردية (Cas singuliers) إلى القضية العامة (Proposition générale)، أي التعميم. يُقال استدلال بالاستقراء (Raisonnement par induction).

والاستقراء هو حكم على كليّ لوجود ذلك الحكم في جزئيات ذلك الكليّ. إمّا كلها وهو الاستقراء التام (Induction complète) وإما أكثرها، وهو الاستقراء المشهور (Induction amplifiante) (وهبة، المعجم الفلسفي، استقراء).

والاستقراء هو حصيلة ارتكاز العلم على الملاحظة والتجربة، وذلك من خلال التعميم، المستخلص من حالات محدودة، أو غير محدودة من الوقائع الفردية، وذلك من خلال: الملاحظة، وتكرار الملاحظة، والتحقق

---

(1) بيير غاسندي: قسيس فرنسي، علّم الفسفة والرياضيات واشتغل بالطبيعات والفلك، أعجب بغاليلو ومذهب أبيقور، فكان من أنصار المذهب الحسيّ في المعرفة.

من المعطيات في شروط معينة، وهي:

1 - أن يكون عدد بيانات الملاحظة (Enoncés d'observation) الذي يرتكز عليه التعميم مرتفعاً.

2 - أن تكون الملاحظات متكررة في شروط مختلفة أو متباينة.

3 - أن لا يكون أي بيان مقبول من الملاحظة داخلاً في نزاع مع القانون العام المستمد من الملاحظة. إن عدداً من الملاحظات هو ضروري قبل إطلاق أي تعميم، وعلى الاستقرائي ألا يتعجّل صياغة النتائج.

من هنا، يبدو الشرط الثاني ضروري. مثال: كل المعادن تتمدّد عندما تسخن. إن حكم التمدّد لا يجوز تعميمه، إذا لم ترتكز ملاحظات التمدّد على تغطية عدد كبير من الشروط المختلفة (كالمعادن، وقضبان الحديد، الطويلة والقصيرة، والفضة والنحاس... إلخ) بحرارة مرتفعة أو منخفضة، وبضغط مرتفع أو منخفض. في هذه الحالة يكون من المشروع إطلاق التعميم.

الاستنباط أو الاستدلال المنطقي والاستنباطي:

Le raisonnement logique et déductif

يشكّل الاستدلال الاستنباطي موضوع علم المنطق، وهو استخراج النتائج من المقدمات. مثال:

1 - كل كتب المناهج البحثية ذات جدوى.

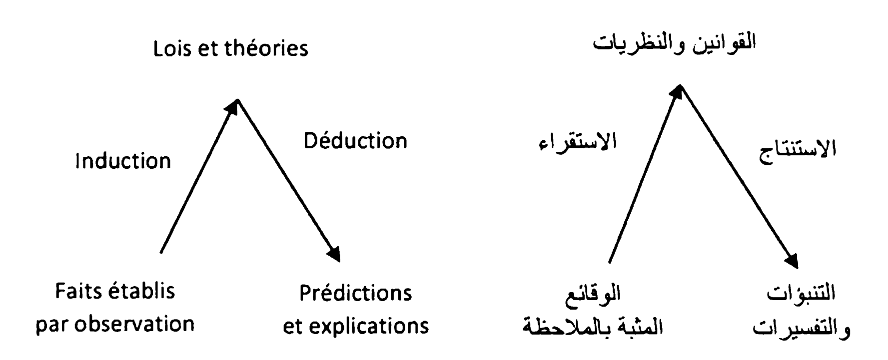
2 - كتاب فلان هو في المناهج البحثية.

3 - كتاب فلان ذي جدوى.

في المثال المتقدّم: 1 و2 هما المقدمات (3) النتيجة. فإذا كان 1 و2 صادقان، فـ3 ستكون صادقة. وإذا كانت 1 و2 صادقتان و3 كاذبة كان هناك تناقض (Contradiction).

ويعتمد الاستنباط على العقل، وليس على التجربة، وهو تطبيق القواعد الكلية على المفردات الجزئية، والترسيمة (Schéma) أدناه، توضح

الحركة الذهنية لكل من الاستقراء والاستنتاج أو الاستنباط.



وكما تظهر الترسيمة فإن الاستقراء يتّسم بما يلي:

1 - يسير الاستدلال من الوقائع إلى القانون، أي من:

أ - الجزئي إلى العام.

ب - من الفرضية بالملاحظة والحدس.

جـ - لا توجد قاعدة أو طريقة.

2 - النتائج توضع على أساس احتمالي، غير منطقي، أو نهائي.

3 - يمكن أن تحكم على صلاحية العلاقات بين القضايا المدركة بوصفها مقدمات باتجاه القانون الطبيعي.

أما الاستنتاج فآليات استدلاله على هذا النحو:

1 - الاستدلال يبدأ من النظريات إلى الفرض من حالة دقيقة:

أ - من العام إلى الجزئي.

ب - من الافتراض أو الفرض بالملاحظة والتحليل.

جـ - الاستدلال مباشر، ومتقدم وصارم.

2 - النتائج توضع على أساس استدلال صارم.

3 - يمكن أن نحكم بالمنطق المتحقق بين القضايا المكوّنة للنظرية.

ويلاحظ جوزايا رويس (Josiah Royce) أن قوانين الطبيعة التي يتم كشفها بالمناهج الإحصائية (الاستقرائية) والمقارنة لا تعتبر قوانين يقينية.

وإنما قوانين على درجة من الاحتمال. وتعتمد على عدد الحالات التي تمت ملاحظتها تجريبياً عند تطبيق مناهج الإحصاء والمقارنة، وعلى مقدار الحياد والموضوعية عند اختيار هذه الحالات والعيّنات" (جوزايا، مبادئ المنطق، ص38).

وفي نقد إبستمولوجي قوي للاستقراء، يضيف جوزايا "لذلك باتت مسألة التعميم من المسائل التي سادت كل الدراسات المتعلقة بالعلوم التجريبية" (م، ن ص39)، متسائلاً: كيف يمكن، أو يحق لنا التعميم أو الانتقال في أحكامنا من دراسة مجموعة معينة أو محددة من الوقائع إلى الحكم على مجموعة أكبر من الوقائع أو على مجموعة غير محددة من الوقائع.

يُشكّل الاستقراء والاستنتاج والفرض عناصر ثلاثة رئيسية للطريقة العلمية أو المنهج، والتي تحدّد مسار العلاقة بين النظرية والتطبيق في البحوث العلمية.

والمنهج هو "مجموعة من الخطوات التي يتبعها الذهن لاكتشاف الحقيقة أو البرهنة عليها" (LE ROBERT, terme Méthode).

والمنهج: (Method, Méthode) على العموم هو الطريق الواضح في التعبير عن شيء، أو عمل شيء، أو في تعليم شيء، طبقاً لمبادئ معينة، ونظام معيّن، بغية الوصول إلى غاية معينة (وهبة، المعجم الفلسفي، مادة منهج). وحسب بانج (Bunge) (1983). فالطريقة العلمية، هي نسق[1] أو خطة أو إجراء، منظم، وواضح، وخلاق، لبلوغ أمر ما سواء أكان مادياً أو ذهنياً (مفهومياً)، أو نظرياً.

والطريقة العلمية تكون:

1 - موضوعية Objectivité، غير ذاتية أو شخصية. وهي تستند إلى:

أ - المسلمات .Postulats

---

(1) نسق: نظام يجري عليه تطوّر شيء ما.

ب - إدراك عام .Portée universelle

أي تصحيح وطرح الإدراك الخاطئ.

2 - الاختبار مرة ثانية، وبطريقة صارمة، وملاحظة نسقية.

3 - تعدد وجهات النظر، ووضع المعطيات في سياقها، مثال: كل النظريات التي درستها كانت موضع نقد.

4 - إجراء التحقق وفقاً لمعايير صارمة:

أ - الحقيقة = قوانين ومبادئ عامة.

ب - شرح العالم أو تفسيره بوضع الفرضيات أمام الاختبار للتثبت منها.

مما تقدّم يمكن الانتقال إلى أبرز المدارس الإبستمولوجية. ويمكن التوقف عند أربع منها، وهي تختلف في طريقة الملاحظة، والتحليل، وتأويل الواقع:

أولاً - التجريبية: (L'empirisme)

يعتبر ديفيد هيوم[1] (David Hume) (1711-1776)، رائد المدرسة التجريبية في المعرفة، في القرن الثامن عشر. من مؤلفاته: كتاب في الطبيعة الإنسانية، ومحاولات فلسفية في الفهم الإنساني و"تحقيق في الذهن البشري".

استخدم منهج الاستدلال التجريبي، لبناء المعرفة وفقاً للمبدأ الحسيّ، من دون أية إضافة عقلية. شكل منهجه هذا نقيضاً لقواعد ديكارت وفلسفته العقلية في المعرفة.

والتجريبية (Empirisme) هي نظرية فلسفية، تنطلق من مسلمة كبرى أن جميع معارفنا تأتي من التجربة، من دون نظرية أو استدلال عقلي. وهي

(1) ديفيد هيوم (1711-1776)، فيلسوف ومؤرخ انكليزي.
تجريبيته مهدت للوضعية (Positivisme)، كان لنقده مبدأ السببية تأثير على كنط. من كتبه: في الطبيعة الإنسانية، محاورات في الدين الطبيعي، وتاريخ بريطانيا العظمى (3 مجلدات).

تعارض فطرية لأفكار المغروسة في العقل قبل التجربة. فلا معارف قبلية، حسب التجريبيين. بالنسبة إليهم، فإن مبادئ الفهم في العقل تنتج عن التجربة. فالذهن له المحل الثاني بالنسبة إلى الطبيعة والمعرفة الإنسانية التي هي ثمرة التجريب.

والإشكالية الكبرى، في المدرسة التجريبية، ولدى هيوم هي: كيف يمكن اكتساب المعرفة عن طريق التجربة؟

يتحدث هيوم عن انفعالات (Impressions) وعن أفكار (Idées). "والانطباعات هي أحجار البناء لكل تجربة" (راسل، حكمة الغرب، ج2، ص133).

وتتألف التجربة من إدراكات (Perceptions) متعاقبة، ولا ارتباط بين هذه الإدراكات، كما يعتقد العقليون. بل هناك علاقات بين المعاني (Relations).

والعلاقات تنشأ بفعل قوانين تداعي المعاني أو "مبدأ ترابط (Connexion) بين مختلف خواطر الذهن وأفكاره" (ديفيد هيوم، تحقيق في الذهن البشري، ص47): وهي القوانين الأولية للذهن، وهي: التشابه (Ressemblance)، التماس في الزمان والمكان[1] (Contiquity)، السبب والمفعول[2]" (م، ن، ص48).

ومبدأ التداعي أو الترابط هذا يحلّ مشكلة الانتقال من انطباع حسيّ أو إدراك حسيّ، واقعي، إلى شيء ما ليس موجوداً. "فأنا أرى صورة أحد أعرفه مما يجعلني أفكرّ فيه وهو غير موجود هنا" (باتريك هيلي، صور المعرفة، ص79).

وهذا يقود إلى البحث بعلاقة السببية، ونفي الارتباط الضروري بين الظواهر الماثلة لحواسنا.

---

(1) التماس أو التجاور.

(2) قانون العلية (السبب والنتيجة).

وهو (أي هيوم) يضع قواعد نحكم بها على العلل والمعلولات، وعددها ثمانية:

1 - العلة والمعلول ينبغي لهما أن يكونا متجاورين في المكان والزمان.
2 - السبب يجب أن يسبق النتيجة.
3 - وجود تلازم دائم بين السبب والنتيجة.
4 - السبب الواحد ينتج دائماً نتيجة واحدة. وهذا مبدأ يقول هيوم أننا نستمده من التجربة.
5 - حتماً تكون لأسباب متعددة نتيجة واحدة، لا بد أن يحدث ذلك عن طريق شيء مشترك بين هذه الأسباب جميعاً.
6 - القاعدة السادسة[1]: الاختلاف في النتيجة يكشف عن اختلاف في السبب" (راسل، حكمة الغرب، ج2، ص140).

إن خاصية الأشياء لا يستدل عليها بطرق قبلية، وإنما تنشأ عن التجربة. فلا يمكن لأحد أن يعرف قبل التجربة أن الماء يؤدي إلى الشَرَقْ وأن حرارة النار تحرق قبل التجربة. "والأسباب والمفاعيل لا تكتشف بالعقل، وإنما بالتجربة" (هيوم، تحقيق في الذهن البشري، ص54).

إن ما يعتبره العقليون بأنه علاقة سببية، ضرورية، حتمية الحدوث في المستقبل بين سبب وأثر أو مفعول أو نتيجة يعتبره هيوم اعتقاداً تسببت به العادة (Custom) أو الإلفة (Habit).

ويترتب على ذلك، إبستمولوجيا، أن الحقيقة لا تأتي من النظريات العقلية، بل من التجربة الداخلية والخارجية، أي من الانفعالات والأفكار والعلاقات. فالمعرفة وليدة التطبيق، وبالتالي فالمعرفة العلمية هي المبنية على وقائع ملاحظة وقابلة للقياس. والباحث التجريبي يهتم كثيراً بوصف التفاصيل في مجرى الاختبار والتجريب، لقبول النتائج المعرفية.

(1) يتوقف راسل عند القاعدة السادسة، ولا يرى داعي لذكر القاعدتين السابعة والثامنة.

ويستخدم الباحث التجريبي التحقيقات لتشخيص ما هو في الواقع، بطريقة أكثر دقة وموضوعية.

ثانياً - الوضعية: (Le positivisme)

ارتبطت الوضعية باسم أوغست كونت[1] (Auguste Comte) (1798-1857م)، بوصفها مرحلة متقدمة من مراحل المعرفة العلمية، الموضوعية. والمعرفة الوضعية مؤسسة على الملاحظة والتجربة، وليس على الحدس أو الاستنباط، وهي نزعة معارضة للمعرفة الميتافيزيقية[2]، أو اللاهوتية[3] وهي أحد أشكال المعرفة البشرية الثلاثة. وكونت أوّل مفكّر يذهب إلى أن "علم الاجتماع يجب أن يقيم أسسه بوضوح على علم الحياة" (راندل، تشكيل العقل الحديث، ج2، ص172). فقوانين علم الاجتماع هي الجزء المقابل لقوانين علم الحياة. والعلم، يتعين عليه أن يتطوّر ليبلغ "المرحلة الوضعية".

وخلاصة "الفلسفة الوضعية" أن النظرة العلمية الحديثة تقتضي أن تنحصر رؤية الباحث في حدود ما هو واقع، أي في حدود ما هو ظاهر لأعضاء الحس وأدوات التجربة (زكي نجيب محمود، قصة عقل، ص93). وبالتالي، فالعلم يدرس الظاهرة الملموسة والواقعية التي يمكن إخضاعها للتجربة.

طرح كونت سؤالاً مهماً في هذا السياق: انطلاقاً من درسنا للطبيعة هل يمكننا أن ندرس المجتمع؟ الفيزياء الطبيعية تدرس الظواهر الساكنة والمتغيرة، فهل يمكن دراسة فيزياء المجتمع أو "الفيزيقا الاجتماعية" وفقاً للمنهج الذي اعتمد في دراسة الظاهرة الطبيعية؟ إن اكتشاف قوانين الطبيعة،

---

(1) أوغست كونت (August Comte) (1798-1857م)، فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي. هو مَن وضع مصطلح علم الاجتماع (Sociologie). من مؤلفاته "الدروس في الفلسفة الوضعية" مذهب الفلسفة الوضعية أو مبحث سوسيولوجي مؤسس لديانة الإنسانية.

(2) المعرفة الميتافيزيقية أي الفلسفية التي تعيد أصل الظواهر إلى مبادئ فلسفية.

(3) المعرفة اللاهوتية: هي التي تعزو أسباب الظواهر إلى تدخّل الآلهة.

وعمل قانون السببية بطريقة موضوعية، هل يمكن أن ينسحب على اكتشاف قوانين المجتمع، بطريقة موضوعية، مع العلم أن المجتمع يتحرّك بإرادة الناس الذين يعيشون فيه؟

مع وضعية كونت تبدّل تصنيف العلوم: من العلم الطبيعي، إلى العلم الاجتماعي، ولم تعد السيادة لعلوم الرياضيات في هذا التصنيف. وانقلب نموذج الانتقال من الحسيّ إلى المجرّد مع الرياضيات إلى الانتقال من المجرّد إلى الحسيّ، مع الوضعية.

وترتّب على المدرسة الوضعية، إبستمولوجيا نتائج عدة على مستوى المسائل والمناهج:

1 - تبديل محتوى الأسئلة: في المرحلة اللاهوتية والفلسفية كان محتوى الأسئلة يتركز على ماهية الأشياء، والأسباب الموجبة لها. مع الفكر الوضعي تحوّلت الأسئلة إلى ما هو ممكن إنسانياً أي قوانين الظواهر المدروسة، والتحقق منها، وهي "قوانين التتالي والتشابه الثابتة" (أندريه، كريسون، تيارات الفكر الفلسفي، ص323).

2 - الكف عن دراسة المطلق، ودراسة الوقائع الجزئية التي تشكّل الظاهرة، والتي يمكن أن تخضع للتجربة. فالعلم ليس مجرد عملية تكديس وقائع، بل ينبغي أن "يُبنى على التجارب مثلما يشيّد البناء على الأسس" (م، ن، ص324).

3 - الفكر الوضعي لا يعطي نتائج المعرفة (النظريات والقوانين) سوى قيمة نسبية. فالمعارف هي تمثل العالم الخارجي. وهذا العالم "موضوعي" أما العلم به فهو ذاتي. لذا يجب أقامة توازن ما بين ما هو ذاتي وموضوعي، من خلال إخضاع الذاتي (معارفنا) للموضوعي (العالم). فالملاحظات عن الأشياء تكون بالحواس، والملاحظات تكوّن أفكارنا. فالعملية إنسانية، أولاً وأخيراً، وفي عصر ما. "وجميع معارفنا الحقيقية متعلقة بالبيئة، من حيث هي قادرة على التأثير فينا، وبالجسم من حيث هو حسّاس بهذا التأثير" (كريسون، ص325). والنظرية التي نعتبرِها الأفضل

تمثل بأفضل شكل مجموع الملاحظات المقابلة لها. فهي نسبية، وليست مطلقة.

4 - حتى يكون الفكر وضعياً، ينبغي ألا يُهتم إلا بما هو قابل للتطبيق إنسانياً. يجب عدم البحث عن المعرفة لمجرّد المعرفة. فكونت ضد التبحّر العقيم والخرافات غير القابلة للاستخدام. إنه يريد من العلماء أن يحولوا جهودهم إلى المواضيع التي تستدعي الاهتمام في كل عصر" (م، ن، ص326).

والعلوم لا يمكن أن يستنتج بعضها من بعض، كما نستنتج النتائج من المقدمات والمبادئ، بل العلم يتقدّم بأن تستمد العلوم الطرائق (المناهج) من بعضها، لا سيما الطرائق التي أعطت نتائج مثبتة، فالعلوم بحاجة إلى بعضها البعض كي تتشكل. والعقيدة الوضعية (Doctrine positive) تتألف من ستة علوم: الرياضيات، علم الفلك، الفيزياء، الكيمياء، علم الحياة، علم الاجتماع. ثم أضيف إليها علم سابع هو الأخلاق (وهي تدرس الملكات الإنسانية والقوانين المتحكمة بحياة المجتمعات).

ويلحّ كونت على عالم الاجتماع التمرّس بالطريقة الوضعية، وهي طريقة كل العلوم: فالرياضيات تعلّم الطريقة الاستنتاجية، والفلك يكوّن عقل الباحث بالملاحظة البصرية، والفيزياء والكيمياء تعوّد على الملاحظة بالحواس كلها، وعلى القيام بتجارب منهجية دقيقة، ويقوم علم الحياة على "المقارنة بين الحالات الطبيعية والحالات المرضية، مقارنة الأعضاء في ما بينها، مقارنة الجنسين والعروق، ومراحل التطور الفردي" (م، ن، ص336-337).

باختصار الوضعية هي مدرسة تطبيق الملاحظة المنهاجية المنتظمة، والنظرية المحدّدة للوقائع القابلة للدرس.

وعلى الجملة، التقدم الإبستمولوجي الذي قدمته المدرسة الوضعية، لا يقتصر على المنهج ووحدة العلوم، بل على دعوة صريحة لإقصاء الأفكار اللاهوتية (المعتقدات، الأساطير) والفلسفية (الماورائيات) عن

العلوم، والمعرفة العلمية، مثلما فعل علم الفلك مع الخرافات إزاء الكسوف والخسوف، كما وجه ضربة لمبدأ العلل الغائية عند أرسطو، وقضت الفيزياء والكيمياء على فكرة وجود المعجزات، وحرّر علم الحياة العقل من المجادلات العقيمة حول النفس ووجودها وروحانيتها وعلاقاتها بالجسم... إلخ.

خارج تصنيف كونت، قبل قرنين، نشأت علوم أخرى، أبرزها علم النفس، وعلوم اللغة، والسياسة والتاريخ والقانون، وصولاً إلى علوم الاتصال والإعلام. والسؤال: كيف يمكن للباحثين في هذه الميادين البحثية الجديدة الاستفادة من الشرائط الإبستمولوجية للوضعية؟ وبصورة استطرادية: هل يمكن وصف الظاهرة الإعلامية وصفاً وتحديداً وضعيين؟ وكيف يمكن تطبيق المنهجية المبتناة على الفكر الوضعي على ميادين البحث الإعلامي ومحاوره، والانتقال من النظرية إلى الإشكالية، ومن المجرّد إلى الحسيّ، وبالعكس؟

ثالثاً - نظرية التطور أو التطورية: (L'évolutionnisme)

هي مذهب أو نظرية تطبّق فكرة التطور أو مبدأ التطور على كل الأنواع. أهمها النظرية الداروينية[1] لتطور الأنواع، والتي أوضح مبادئها في كتابه "أصل الأنواع" (Origin of species) عام 1859، الذي كرّس فكرة التقدّم، وجعل منها فكرة واقعية مثل الجاذبية.

نظر داروين إلى الحياة على أنها صراع من أجل البقاء. فالكائنات في حالة تصارع على القوت والغذاء، والبقاء يكون للأصلح، وفقاً لقانون الانتخاب الطبيعي، الذي يشبه الانتخاب الصناعي، إلا أنه خلو من القصد والنظام.

---

(1) تشارلز داروين (Charles Darwin) (1809-1882): عالم طبيعيات بريطاني، فسّر التطور البيولوجي بواسطة الانتخاب الطبيعي. علم الأحياء المعاصر هو داروينية جديدة. تأخذ بنظريات داروين مع علم الوراثة، ورائدها منديل Mendel، أخرج داروين نظرية التطور في كتابه "أصل الأنواع" (1859)، وله أيضاً كتاب "تسلسل الإنسان والانتخاب الطبيعي".

وإضافة إلى هذا المبدأ (القانون) هناك ثلاثة قوانين ثانوية، هي: "أولاً، قانون الملاءمة بين الحي والبيئة الخارجية. ثانياً، قانون استعمال الأعضاء أو عدم استعمالها تحت تأثير البيئة أيضاً، بحيث تنمو الأعضاء أو تضمر أو تظهر أعضاء جديدة تبعاً للحاجة. وثالثاً، قانون الوراثة، وهو يقضي بأن الاختلافات المكتسبة تنتقل إلى الذرية على ما يشاهد في الانتخاب الصناعي" (كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ص352).

نظرية التطور والإنسان: رأى داروين أنه لا يمكن استثناء الإنسان من نظرية التطور. "والفرق بين الإنسان والحيوان فرق بالكمّ أو الدرجة فقط" (م، ن، ص353). وإن كان الكائن الحيّ المسمى "الإنسان العاقل (Homosapiens) تطور عن القردة العليا. وظهر الإنسان تعبيراً عن أعظم انتصار في مسار التطور... ويعتبر الإنسان بفضل مخّه ويديه وانتصاب قامته أفضل ما أنجبه التطور خلال هذه العملية الكونية... المطردة والمتصلة ولكن ببطء شديد" (بريتون، تشكيل العقل الحديث، ص221).

التطور والعلوم الاجتماعية: مع نظرية التطور الداروينية أصبح علم الحياة هو العلم السائد أو براديغم العلوم الأخرى. ولم يعد ينظر إلى المجتمع كعقد آلي، كما فكّر فلاسفة التنوير، بل "هو عضوية حيّة أصلية، ووحدة من خلايا تقوم بوظائفها بانسجام" (راندل، تشكيل العقل الحديث، ص171). وأدت الطريقة النشوئية إلى قيام مدرسة الداروينية الاجتماعية، ونشأة علم الأنتربولوجيا الذي يعنى بالتاريخ الأول للنوع البشري.

انبثق عن المبادئ الرئيسية لمذهب التطور الثقافي والاجتماعي مقارنة بين مختلف النماذج الحضارية، لجهة المجتمعات المتخلفة والمجتمعات المتقدمة، وكيف أن الحضارة الحديثة تمثل مرحلة متقدمة في عملية متواصلة، على خلاف المجتمعات البدائية التي توقفت عن السير ولو خطوة واحدة باتجاه التقدّم (الهنود الحمر في الولايات المتحدة)، ويمكن النظر إلى التكنولوجيا كعامل من عوامل التطوّر في الحياة الاجتماعية، من مختلف جوانبها.

وبالرغم من الانتقادات التي وجهها الأنتربولوجيون (Ethnologues) لنظرية التطور، التي تهمل الثقافات الإنسانية، وتنظر نظرة واحدة لمضامينها (من التخلف إلى التقدّم)، فإنها وضعت القانون الذي يعيد التمييز بين مستويات التقدم والتخلف، والكشف عن أسبابها.

وفي حقل الدراسات الإعلامية يمكن إثارة جملة أسئلة تتعلق بالإمكانيات المعرفية المتاحة حول الاستفادة من قانون التطور والمسلمات التي يقوم عليها المنهج الارتقائي التطوري، سواء في ما خصّ نظرية المجتمع الجماهيري، وتطور وسائل الاتصال، بما يضمن البقاء للأصلح منها (الصحافة المكتوبة الورقية والكتابة الإلكترونية عبر الحاسوب أو (Laptop)، أو حتى التناحر (التنافس) والصراع من أجل البقاء).

رابعاً - المدرسة الثورية: (Le révolutionnisme)

مفهوم البراديغم عند توماس كون[1] (Thomas Kuhn) (1922-1996).

أتاحت المدارس الثلاث السابقة: التجريبية، الوضعية، التطورية تقديم ثلاث رؤى أو مقاربات منهاجية ونظرية في النظرة إلى العلم، وتزويد المشتغلين بالعلوم بمسلمات ونظريات، ونظرة إلى العالم والطبيعة، كموضوع للمعرفة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ومن النتائج التي ترتبت على تلك المدارس:

1 - أنعشت المدرسة التجريبية مسلمة الطبيعة كمبدأ أول يتعين أن يكتشفه عالم العقل، وفقاً لرؤية يمكن تبينها على النحو التالي:

- إن الاستدلال المفضل لدى التجريبية هو الاستقراء. فالحقيقة هي توافق أغراضنا (أهدافنا) مع انطباعاتنا الحسيّة. نحن نتوقع انطباعاً

---

(1) توماس كون (1922-1996): فيلسوف علم أميركي معاصر. أدخل إضافات مهمة في فلسفة العلم. من أشهر مؤلفاته "بنية الثورات العلمية"، طبع لأول مرة عام 1962.

(إدراكاً) فإذا حدث أو أتى، كان هو المصدر (المرجع) أو الدليل على أنه حقيقي.

- المسلمة الأصلية للمعرفة: مبادئ العقل وقوانينه تنتج عن التجربة.

* من ميزات هذه المدرسة: أن المعرفة تكتسب بالتطبيق العملي، وتنتج عن التجربة. لذا يتعين العثور على شروط انبعاث الظاهرة، في المعطيات التجريبية. إن الدليل (الإثبات) يكون صالحاً، فقط، إذا استند على المعطيات التجريبية الملاحظة (المشاهدة) بالحواس.

* معنى التقدم العلمي: صدق المعطيات التجريبية يسمح بفهم العالم، والتصرّف على هذا الأساس.

2 - جاءت الوضعية، فأقصت عن مسائل المعرفة، والعلم الحديث، المعارف، والنظرة، التي كانت حصيلة المرحلتين اللاهوتية والفلسفية. وبدأ العلم، أو الإبستمولوجيا بعدم الاعتراف بأية قيمة للمذهبين اللاهوتي والماورائي. فالظواهر لا تفسّر بالعودة إلى الآلهة أو المبادئ الفلسفية الميتافيزيقية (الصورة عند أرسطو مثلاً).

* إن التعليل أو الاستدلال المفضل لتفسير الظواهر هو الاستنباط (الاستنتاج) من ملاحظة الوقائع الظاهرة لأعضاء الحس وأدوات التجربة في حدود ما هو واقع لاستنتاج القوانين الطبيعية، والعوامل التي أنشأتها.

Faits naturels $\longleftrightarrow$ Lois naturelles $\Rightarrow$ Déduction

ومن مميزات المدرسة الوضعية استنباط الأحكام من الوقائع المثبتة بالحواس والتجربة. فالمعرفة غير ممكنة إلا إذا ارتكزت على قياس الوقائع الممكنة الملاحظة والتجربة العلمية. فالنظرية موضوعها المطابقة بين الوقائع المشاهدة.

* وتصوّر التقدم العلمي يكون من خلال: مشاهدة الوقائع لاستخراج القوانين، قوانين العالم والطبيعة، والظواهر الطبيعية والاجتماعية التي تسمح بالتقدّم الاجتماعي. والمسلمة الأصلية لهذه المدرسة: معارفنا محدودة وهذا يتطلب الانطلاق من الوقائع المشاهدة. فصدق الحواس هو

الأصل الذي تبنى عليه المعرفة. والسؤال: هل ما أرى وما أسمع، يطّرد[1] وقوعه اطّراداً، أستطيع أن أجعل منه قانوناً أركن إليه في حياتي.

3 – الاستدلال المفضل لدى المدرسة التطورية هو استنباط المعرفة من المقارنة بين مراحل تطور مختلف الحضارات. وبذلك يمكن استنتاج قوانين التحوّل. (الانتقال من حالة إلى حالة).

والمسلمة الأساسية في المدرسة التطورية أن قانون تطوّر الطبيعة يرتكز (مؤسّس) على البيولوجيا، هذه البيولوجيا تشمل الظاهرة الاجتماعية أيضاً.

* من خصائص الإبستمولوجيا التطورية أن الحضارات تخضع إلى قوانين التحوّلات المتطورة. ومن المجتمع البسيط إلى المجتمع المعقد. والمجتمع يصبح أكثر تعقيداً عندما تزيد مهارته التقنية، وتتسع مصادر الطاقة لديه. ويفسّر التقدم بالزيادة الكمية للطاقة المستخدمة.

قبل ظهور نظرية "البراديغم" كإبستمولوجيا جديدة في المعارف والعلوم، كانت المعرفة تنتقل من المبادئ والنظريات إلى الظواهر، وكانت التجريبية تعتبر التجارب محك صدقية المبادئ والقوانين العلمية. وركزت الوضعية والتطورية على المطابقة ما بين النظريات والواقع المدروس والمشاهد لتبيّن الصدق من الخطأ.

مع المدرسة الثورية، تبدّلت صورة العلم، وتطور البحث بدلالة "البراديغمات" مقابل تفسير تقدّم العلم بدلالة المبادئ[2]، ليس في علوم

---

(1) اطّرد (يطّرد) الأمر اطّراداً: أي جرى مجرى واحداً، أو تتابع على نسق واحد، تسلسل وتبع بعضه بعضاً، عمّ واستقام. (جوزيف الياس، مادة اطّرد).

(2) المبادئ أو القوانين العلمية الكلية، التي ترتبت على المدرسة التجريبية. وكانت حصيلة العلم من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر، وتعتمد المنهج الاستقرائي في البحث، وصولاً إلى النظرية أو القانون العلمي أو المبدأ الكلي، الشمولي، الذي ينطلق منه الباحث أو العالم في البحث وتحديد المفاهيم، باعتباره ينطبق على كل الحالات المماثلة في الزمان والمكان. والإشكال: كيف يمكن الانتقال من عدد محدود من الحالات إلى تلك الصيغة الكلية (القانون العلمي)، وبأي حق نحكم مما رأيناه على ما لم نره (راجع هامش ص72 من كتاب فلسفة الكوانتم لرولان أومنيس، الترجمة العربية).

الطبيعة[1] والعلوم الدقيقة[2] وحسب، بل تعدتها إلى علوم الإنسان والمجتمع.

وأصبح "البراديغم" المعمول به في علم ما هو مرجع صدق النظريات أو المعارف العلمية.

ومع ظهور "البراديغم" خرجت المعرفة من الحتمية، واليقينية. وتكسرت المبادئ المطلقة في تفسير الظواهر، وفهم العالم، وكادت النظرة القائمة على "التراكم المعرفي" أن تختفي لتحلّ مكانها النظرة إلى "الإنموذج المعرفي"، الذي يشكّل نظرة جديدة إلى الأشياء نفسها.

وتختلف المدرسة الثورية عن سابقاتها بأنها مقاربة جديدة للإبستمولوجيا، رائدها كون نفسه، فضلاً عن أنها لا ترمي إلى التحقق من صلاحية العلم، بل وظيفتها نقد تاريخ العلم.

ويكشف تاريخ العلم أن العلم يتطوّر انطلاقاً من تحوّلات داخل منظومة "البراديغم": من العلم العادي إلى الأزمة ← فالثورة ⟸ فالبراديغم الجديد.

منهج الاستدلال البراديغمي يقوم على الجدل المنطلق من الاستقراء إلى الاستنتاج، وبالعكس، ولفهم الرؤية إلى العلم يجب النظر إلى المعرفة في سياق تطور البراديغمات، وليس بصورة تجميع تراكمي للمعرفة. والمسلمة الجوهرية لهذه المدرسة أن العلم لا يتطوّر بطريق التراكم، ولكن بطريق الثورات العلمية التي تولّد البراديغمات الجديدة.

❖ **خصائص المدرسة الثورية**: يفسّر تاريخ العلم لحظات الأزمة في مجرى تطور علم ما، والأزمة هي التي تؤكد الثورة العلمية، التي تبدّل في

---

(1) علوم الطبيعة (Sciences de Physique). ويقصد بها علوم الفلك والطبيعيات والكيمياء... إلخ.

(2) العلوم الدقيقة (Sciences strictes)، ويقصد بها علوم الرياضيات.

أسس ومرتكزات "العلم العادي" الشائع أو البراديغم المعمول به، حيث تتولد نظرية جديدة أو براديغم جديد، يصبح هو العلم العادي المعمول به من قبل الجماعة العلمية.

❖ **مفهوم تقدّم العلم**: مع مجيء براديغم جديد بتأثير الثورة العلمية، التي تعتبر هي العامل الذي يحفز تقدّم العلم، ويفسّره.

البراديغم[1] **صورة جديدة للعلم**: صورة جديدة للعلم، هذا التعبير استخدمه كون نفسه في معرض دراسته لتاريخ العلم وما تميّزت به معظم العلوم من "تنافس متواصل بين عدد من النظريات المختلفة للطبيعة" (كون، بنية الثورات العلمية، ص54-55).

أعاد كون الاعتبار للمنهج التاريخي في ضبط سيرورات المعرفة العلمية. فالعودة إلى تاريخ العلم قادته إلى مراجعة فلسفة العلم أو نظرية المعرفة العلمية (الإبستمولوجيا)، وفتحت الطريق لاكتشاف موقع "البراديغم" في النظريات العلمية، ،إجراء الأبحاث وفقاً للطرائق البراديغمية، فيتأثر العلم اللاحق بالعلم السابق.

طبيعة "البراديغم" واستخداماته العلمية: قبل البدء بتحديد مفهوم "البراديغم" في البحث العلمي، تمهيداً لمحاولة تحديد خصائصه في إطار "النظر إلى النظريات العلمية كبنيات" (Les théories comme structures)، نقتبس تصديراً، ذي دلالات كتبه كون نفسه لكتابه "بنية الثورات العلمية" عام 1962. وفيه يروي كيف قاده قضاء عام في مركز الدراسات العليا في قسم العلوم السلوكية، بعد دراسة تاريخ العلم، إلى التعرّف إلى متحدّ علمي (جماعة علمية) يتألف في أغلبه من علماء اجتماع، وظهرت له بعدها،

---

(1) البراديغم (Paradigm) أو البراديم، كلمة مأخوذة من الأصل اليوناني (Paradeigma)، وتعني مثالاً أو نموذجاً (Pattern). والمقصود بالبراديم النموذج المعرفي الإرشادي في العصر المعني، وبما أنه في عصر معيّن، فهو إذاً راهن، ومؤقت، ومتغيّر.
والبراديغم يعيد معنى المثال أو النمط. والنمط، لغوياً، هو أسلوب أو طريقة طراز، نوع، صنف.

فروق بين متحدات علماء الاجتماع ومتحدات علماء الطبيعة، لجهة المجادلات حول الأساسيات من الأمور، التي تبدو اليوم، محصورة في أوساط علماء النفس وعلماء الاجتماع. "وإن محاولتي الكشف عن مصدر ذلك الاختلاف قادتني إلى أن أدرك الدور الذي يلعبه في البحث العلمي ما سميته منذ ذلك الحين "البراديغمات"، وقد اعتبرت هذه إنجازات علمية معترف بها عالمياً بحيث أنها وفرت، ولمدة من الزمن، مسائل براديغمية وحلولاً لها لمتحدّ من المشتغلين في العلم" (كون، بنية الثورات العلمية، ص44).

أولاً: العلم العادي (La science normale)

أ - تعريفه:

عرّف كون العلم العادي (La science normale) بأنه "البحث المؤسس بصورة راسخة على واحد أو أكثر من الإنجازات العلمية السابقة، والتي يعتبرها متّحد علمي ما، الأساس لممارسته العلمية اللاحقة" (م، ن، ص63).

يثير هذا التعريف جملة من المصطلحات المستخدمة: إنجاز علمي، متحد علمي، ممارسة علمية، السابقة، اللاحقة. وهذه المصطلحات التي تشكل بنية العلم العادي، وبالتالي بنية فهمه، والانخراط في نظرياته وطرائقه، تساعد في تتبع مسار المعرفة العلمية قبل العلم العادي وبعده.

فالإنجاز العلمي هو البراديغم، أو المثال الذي يتعين على العلماء والباحثين الاقتداء به.

والمتحد العلمي هو الجماعة العلمية، أي العلماء المنخرطون في أنشطة العلم في حقل ما أو مجال ما.

والممارسة العلمية: تعني البحث، فالتدريس... إلخ.

السابقة: يظهر الإنجاز العلمي في معرض حل مشكلة، أو معالجة

ظاهرة، وصفاً أو تفسيراً، وهو ما يُشار إليه حالياً بالدراسات السابقة في مجال من المجالات.

واللاحقة: أي الدراسات التي ستجري في المجال عينه، اليوم وغداً، منطلقة من الإنجاز العلمي، وما دار حوله من دراسات في وقت سابق.

يتّضح مما تقدّم، أن كون ربط مصطلح "البراديغم" بالعلم العادي. ومخطط كون المعرفي، الذي يمكن استخلاص خصائص المعرفة بطريقة البراديغمات هو: - Pré-science - Science normale - Crise - Révolution - Nouvelle science normale - Nouvelle crise... etc ما قبل العلم - العلم العادي - الأزمة - الثورة - علم عادي جديد - أزمة جديدة... إلخ.

و"العلم العادي" وإنجازاته العلمية (البراديغمات) له أمثلة تتضمنها كتب العلم الكلاسيكية المشهورة في العلوم الطبيعية الناضجة، كالفلك، والفيزياء والكيمياء، والجيولوجيا[1]، والتي قامت لزمن ما، بتحديد ضمني لما هو مشكلات مشروعة ولطرائق البحث لتعمل بحسبها الأجيال اللاحقة من المشتغلين بالعلم" (كون، م، ن، ص64).

وهذه تشترك بخاصيتين رئيسيتين، أدتا لتمكينها من ذلك، أولهما: اجتذاب مجموعة من الأتباع الثابتين. وثانيهما: أن باب الحل لكل أنواع المشكلات بقي مفتوحاً... وبسبب هاتين الميّزتين أطلق كون على هذه الإنجازات مصطلح "براديغمات"، ذو العلاقة الوشيجة بـ"العلم العادي" وما ينجم عنها في الممارسة العلمية، مثل: القانون، والنظرية، والتطبيق، واستعمال الأدوات، تكون بمثابة نماذج "تصدر عنها تقاليد البحث العلمي متناسقة منطقياً" (كون، م، ن، ص، ن).

ودرس "البراديغمات" هذا يعد الطالب، أو الباحث لأن يكون عضواً

---

(1) مثل: كتاب الطبيعة لأرسطو (Aristote)، وكتاب المجسطي لبطليموس (Ptolem)، وكتاب المبادئ لنيوتن (Newton)، وكتاب الكهرباء لفرانكلين (Franklin)، وكتاب الكيمياء للافوازييه (Lavoisier) وكتاب علم الجيولوجيا للايل (Lyell).

في الجماعة العلمية، يمارس نشاطه العلمي من خلالها.

ويخلص كون إلى أن الشرطين الضروريين للعلم العادي:

1 - التزام أعضاء الجماعة العلمية بقواعد ومعايير الممارسة العلمية.

2 - الاتفاق حول المبادئ البراديغمية المشتركة.

وهذا يقودنا إلى تحديد خصائص النظرية التي تقبل أن تكون "براديغما":

1 - "لا بد أن تكون أفضل من النظريات الأخرى المنافسة لها، ولكنها ليست بحاجة لأن تشرح كل الوقائع التي تواجهها، فالبراديغم هو النظرة التي تكسب الحجة" (كون، م، ن، ص74).

2 - "إن البراديغم الجديد يتضمن تعريفاً جديداً وأكثر صرامة لحقل البحث" (م، ن، ص76).

3 - البراديغم إنجاز قادر على أن يكون دليلاً لأبحاث المجموعة برمتها (م، ن، ص، ن). وعندما يسلّم عالم فرد ببراديغم يقبله، لا يعود بحاجة إلى بناء حقل عمله من جديد. ومن دون الالتزام ببراديغم "لا وجود لعلم عادي" (م، ن، ص190).

4 - "البراديغم" لا يحقق نجاحاً كاملاً في حل المشكلة[1]، وإلا لما كان ثمة حاجة إلى بحوث جديدة، أو بروز مشكلات جديدة، ولكنه "يحقق وعداً بتوسيع المعرفة بالحقائق التي يعرضها البراديغم" (م، ن، ص8).

يساعدنا البراديغم على اختيار المشكلة من خلال معيارين:

1 - المشكلة قابلة للمعالجة/الحلّ. ويكون هذا من خلال فهم المشكلة، عناصرها وأسبابها.

(1) يتنبه إلى أنه إذا كان البراديغم يمثل عملاً تم للمرة الأخيرة (أي حلاً لمشكلة قائمة) فما الذي يتركه من مشكلات أخرى لتلك المجموعة المتحدة كي تجد حلولاً لها؟

2 - إيجاد حلّ للمشكلة (القدرة على معالجة المشكلة)، أي أن هذه المشكلة ممكنة المعالجة انطلاقاً من البراديغم.

فالبراديغم هو معيار تحديد المشكلات، ومعيار معالجة المشكلات: وهذا يقودنا إلى تحديد صنف المشكلة، والإجابة عن سؤال يتعلق بمطابقة الوقائع مع النظرية، واعتماد النظرية التي يجب أن تشمل الفرضيات النظرية والمسلمات النظرية، والإجراءات التجريبية. (باختصار هذه هي المشكلة التي تواجه الباحث في أيّ حقل معرفي).

وهذا يقودنا إلى الكلام على المشكلات النظرية للعلم العادي، والتي يدرجها كون ضمن أصناف ثلاثة من المشكلات: "تحديد الواقعة ذات المعنى، مطابقة الوقائع مع النظرية، ثم صياغة النظرية" (كون، م، ن، ص96)، التي يجب أن تشمل التجريبي والنظري، وليس كل أدبيات العلم العادي.

ب - النظريات كبُنيات (Les théories comme structures)

يعتبر آلان ف. تشالمرز (Alan F. Chalmers) أن من بين الأسباب التي قادت لرؤية "النظريات كبُنيات" مشهد من تاريخ العلوم (Les théories comme structures) "إن الدراسة التاريخية تظهر أن التطور (L'évolution)، والتقدم (Progrès) العلميين، الأكثر أهمية، تكشف عن بنية، تفلتت من الاستقرائية (L'inductivisme) أو التكذيبية (Falsificationisme)" (Alan Chalmers. Qu'est-ce que la science? P. 132.).

إن نمو "برنامج البحث" لنظرية كوبرنيك (Théorie de Copernic) منذ أكثر من قرن، يقدّم لنا مثالاً لكن التاريخ ليس وحده من يقدّم الحجة من أن النظريات ذات كلية مركّبة.

يوجد أيضاً، اعتبار آخر أكثر عمومية، وهو عدم تعلّق الملاحظة بالنظرية. والخلاصة أن المصطلحات الدقيقة والمفاهيم المترابطة بالنظرية تمتلك دقة وقيمة إخبارية مساوية للنظرية عندما تستخدم اللغة.

إن مفهوم نيوتن[1] للكتلة (Masse) له معنى أكثر دقة من مفهوم الديمقراطية (Démocratie) "إني أظن أن المفهوم الأول (الكتلة) يلعب دوراً مختصاً في نظرية محدّدة، بنيوية، هي ميكانيكا نيوتن (La mécanique Newtonienne)" (Alan Chalmers, p. 123).

خلاف ذلك، فإن النظريات، حيث ظهر مفهوم ديمقراطية، كانت غامضة ومختلفة، وإذا جرى قبول هذا الربط بين دقة المصطلح أو "اللفظة"، والوظيفة التي يلعبها داخل النظرية، عندها تفرض ضرورة النظريات المركبة نفسها بصورة منسجمة.

يمكن النظر إلى استقلال دلالة المفاهيم عن بنية النظرية فيها، واستقلال دقة المفاهيم الأولى، عن دقة درجة الانسجام داخل النظرية من طرق أخرى محدودة، حيث نضفي معنى على مفهوم ما.

وتتركز إحدى هذه الطرق، على اعتبار أن المفاهيم (Concepts) تكتسب معانيها بواسطة التعريف (Définition).

إن التعريفات يجب أن تستبعد بقدر ما تكون إجراءات أساسية لبلوغ المعاني. إن المفاهيم يمكن أن تعرَّف بحدود مفاهيم أخرى، حيث تعطى المعاني. والمعجم ليس مفيداً، إذا لم نعرف سلفاً المعنى لكلمات عدّة.

لم يتمكن نيوتن من تعريف الكتلة (Masse) أو القوة (Force) من مفاهيم سابقة على المفاهيم النيوتينية، لقد تجاوز النظام القديم مطوراً نظاماً جديداً.

الطريقة الثانية هي التي ترتكز على اعتبار أن معاني المفاهيم أنجزت بواسطة الملاحظة، وبواسطة التعريف الظاهر (Définition Ostensive).

والصعوبة هنا، أن الملاحظة، مهما كبُرت، لا يمكن أن تؤدي إلى

---

(1) إيزاك نيوتن (Izac Newten) (1642-1728). عالم الفيزياء الشهير. مكتشف قانون الجاذبية. قال بالمكان والزمان المطلقين. من أهم كتبه المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية (1687) والبصريات (1704).

كُنه "التعريف". فمعنى "الأحمر" (La rouge) يُستخلص من عدّة تجارب استقرائية، من "أشياء حمراء"، بحيث يكون "الأحمر" الشيء المشترك فيها.

ولا يمكن استخلاص مفهوم "الكتلة" (Masse) بالملاحظة وحدها، مهما كانت ملاحظة "طابات البليارد"، وأوزان الرسورات، وأفلاك المدار... لا يمكن تعلّم معنى الكتلة.

قاد النظر إلى النظرية كبنية توماس كون إلى إعلان أن العلم الناضج يقاد ببراديغم وحيد[1] (Paradigme Unique).

يعرّف "البراديغم" المعيار الذي يضفي الشرعية على النشاط داخل المجال العلمي، ينسّق ويوجه عمل العاملين في العلم العادي، الذي يرتكز على "حل الألغاز" (La résolution d'énigmes) في المجال العلمي المعني.

إن وجود "براديغم" جدير بمساندة التقليد العلمي العادي، هو الخاصية التي تميّز العلم من اللاعلم (Non-science).

تشكل ميكانيكا نيوتن (La mécanique Newtonienne) والضوء الموجي (Optique ondulatoire) والكهرومغناطيسية (L'électromagnétisme) "براديغمات" ولا تزال. فهي جزء من العلم، لكن قسماً كبيراً من السوسيولوجيا (La sociologie) الحديثة تفتقر إلى "البراديغمات"، فهي، والحال، لا ترتقي إلى مصاف العلم" (Chalmers, Ibid p152).

استدرك كون في حاشية كتابه "بنية الثورات العلمية" أن "ثمة صعوبات وسوء فهم" (كون، م، ن، ص289) لاستخدامات متعددة للفظ

---

(1) منذ أن كتب "بنية الثورات العلمية" عاد كون واعترف انه استخدم كلمة "براديغم" في معنى مبهم، غامض (ambigu). في حاشية طبعة عام 1970، ميّز معنى واسعاً للفظة (Terme)، حيث سمّاها من الآن وصاعداً بالقالب الانضباطي (La matrice disciplinaire)، ومعنى حصري مثال (Exemple).

"براديغم"، لذا أشار إلى مصطلحين، مقترحاً فصلهما، في معرض البحث عن طبيعة "البراديغم" الاستعمال العام، والاستعمال كمثال.

ويقترح تسمية الاستعمال العام، أو نظرية من النظريات وهي المشترك بين أعضاء متحد علمي بـ"مصفوفة ذات إطار نظامي" (كون، م، ن، ص300)، تتألف من عناصر منظمة من أنواع عدة، هي براديغمات أو ذات علاقة ببراديغم، أو أجزاء من براديغمات وهي نظام خاص بين الممارسين داخل جماعة علمية.

1 - النوع الأول من المكوّنات "للمصفوفة ذات الإطار النظامي" أو "القالب الانضباطي" هي "التعميمات الرمزية"، وهي المكونات الصورية القابلة للصياغة بصورة مباشرة للمصفوفة ذات الإطار النظامي "وهي توجد كصورة رمزية مثل $F=ma$، القوة F (Force)، الكتلة m (masse)، التسارع a (accélération)، أو توجد كلمات مثل: الفعل يساوي ردّ الفعل، أو "تتحدد العناصر بنسب ثابتة من الأوزان".

وهذه التعميمات الرمزية تشبه "قوانين الطبيعة": إما على شكل قانون ($H=RI^2$)، فأعضاء المتحد يعرفون دلالات الأحرف: الحرارة H، التيار الكهربائي R=، مقاومة السلك الناقل I، وإما على شكل تعريف (كون، م، ن، ص301).

إن "البراديغمات" تتضمن أدوات معيارية لتطبيق القوانين الأساسية على أوضاع كثيرة مختلفة.

2 - النوع الثاني: من مكونات المصفوفة ذات الإطار النظامي، هو المكوّن الذي يشمل "الأجزاء الميتافيزيقية للبراديغمات"، أو "البراديغمات الميتافيزيقية"، أو معتقدات ببراديغمات خاصة" (كون، م، ن، ص303)، وهذه عبارة عن مبادئ ميتافيزيقية عامة توجّه عمل المتحد العلمي داخل "البراديغم" أو النظرية المعمول بها.

إن "براديغم" نيوتن قاد الأبحاث بافتراض شبيه بتلك "المبادئ الميتافيزيقية": إن كلية العالم الطبيعي يجب أن تشرح كأنها جهاز ميكانيكي، يتحرّك بتأثير قوى مختلفة، تستجيب لمتطلبات قوانين الحركة عند نيوتن (Chalmers, Qu'est-le que la science? P153). وقوانين الحركة عند نيوتن، التي وضع لها الصياغات الرياضية الدقيقة:

1 - كل جسم يظل على حاله سكوناً أو حركة في خط مستقيم ما لم يجبره مؤثر خارجي على تغيير حالته، وهذا هو قانون القصور الذاتي[1] Inertia.

2 - معدل التغيّر في العزم (كمية التحرّك) (Momentum) يتناسب مع القوة المؤثرة في الجسم، ويكون اتجاه العزم هو نفسه اتجاه القوة المؤثرة.

3 - لكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومعاكس في الاتجاه. (يمنى، طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص84-85).

ويوضح كون فكرته عن "البراديغمات الميتافيزيقية" بالنظرة إلى العالم بعد العام 1630، وخاصة بعد كتابات الفيلسوف والعالم ديكارت، الذي افترض أن العالم مؤلف من جسيمات مجهرية (ميكروسكوبية)، وأن كل ظواهر الطبيعة يمكن شرحها بلغة الجسيمات ومقدارها وحركتها وتفاعلها... والأكثر أهمية هو أن التطوّر الجسيمي للعالم علّم العلماء ما يجب أن يكون عليه الكثير من مسائل بحثهم (كون، م، ن، ص108).

وتشتمل جميع البراديغمات على بعض الطرائق المنهجية القديمة ذات الصفة العمومية من نوع: ابذل جهداً لترى تناسباً (تطابقاً) بين "البراديغم" الذي تعتمده والطبيعة.

---

(1) القصور الذاتي: يعني أن الجسم قاصر بذاته عن تغيير حالته، ولا بدّ من مؤثر خارجي هو "القوة".

ومن الطرائق المنهجية أن "كن جدياً تجاه إخفاقاتك في إقامة التطابق بين البراديغم والطبيعة (Alan, Chalmers, Ibid, p153).

إن العلم العادي (Science normale) يجهد في صياغة تفاصيل جديدة في إمكانية تحسين الطريقة التي تجعل "البراديغم" مناسباً للطبيعة. وفي البراديغم ما يكفي من عدم الدقة لترك الباب مفتوحاً أمام أعمال من هذا النمط.

لقد وصف كون العلم العادي بأنه النشاط المرتكز على حل الأحجيات، مسترشداً بقواعد البراديغم.

3 - النوع الثالث: من عناصر المصفوفة ذات الإطار النظامي هو القيم، التي يشترك فيها أعضاء جماعة علمية. وتظهر أهمية القيم التي تجعل علماء الطبيعة يؤدون وظيفتهم في حالات مثل:

أ - تحديد أزمة في البراديغم أو العلم.
ب - اختيار بين "طريقتين متناقضتين" (كون، م، ن، ص303).
ج - ما يتعلق بالتنبؤات التي يجب "أن تكون دقيقة، والتنبؤات الكمية مفضلة على التنبؤات الكيفية" (م، ن، ص304).
د - الحكم على نظريات برمتها، من خلال قيم، تسمح بصياغة أحجيات وحلها "وحيثما أمكن يجب أن تكون بسيطة ومتماسكة تماسكاً منطقياً ذاتياً ومعقولة ومنسقة مع النظريات الأخرى الجاري استعمالها في زمانها" (م، ن، ص، ن).

ومن الملاحظات المهمة التي ينبّه إليها كون، في معرض تحديده للقيم المشتركة، وكيفية استخدامها العملي: "فالقيم يمكن أن يشارك بها رجال مختلفون في تطبيقاتهم على نطاق أوسع من أنواع المكوّنات الأخرى للمصفوفة ذات الإطار النظامي" (م، ن، ص، ن).

من الأحكام المشتركة الدقة، وهي ثابتة نسبياً، والبساطة والاتساق المنطقي والمعقولية. فقد تكون النظرية "أكثر دقة لكنها أقل اتساقاً أو أقل معقولية من أخرى" (م، ن، ص، ن).

ومع ذلك، فإن تطبيق القيم يتأثر بشكل لا يخفى بصفات الشخصية الفردية، وسيرة حياة العالم، أو الباحث، وتعتبر، حسب كون "القيم المشتركة محددات مهمة لسلوك الجماعة، حتى ولو لم يطبقها أعضاء المجموعة وبالطريقة نفسها" (كون، م، ن، ص306). وتقود القيم المشتركة إلى الحفاظ على الاتساق المنطقي للنظريات العلمية، والتباين في تطبيق القيم المشتركة يخدم وظائف جوهرية للعلم، كحالات عدم التوقع، وبزوغ النظريات الجديدة.

4 - النوع الرابع: من عناصر المصفوفة ذات الإطار النظامي، هو الذي أدى إلى استخدام مصطلح "براديغم"، لأنه مناسب من الناحيتين الفقهية اللغوية والسيرة الذاتية، وقد استبدله كون بمصطلح "الأمثلة التوضيحية"، التي تساعد الطلاب على حل المشكلات المادية التي تواجههم في بداية تربيتهم العلمية "سواء في المختبرات أم في الامتحانات أم في نهايات فصول كتبهم العلمية الدراسية" (كون، م، ن، ص، ن). والأمثلة هذه هي التي تظهر للطلاب كيف يجب القيام بعملهم، هي أمثلة توضيحية مثل: مشكلات السطح المستوى المائل، مدارات كبلر (Keplerian orbits) الفلكية، ومقياس طاقة الحرارة.

فبراديغمات المتحدّ العلمي الناضج، يمكن تحديدها بسهولة نسبية من نصوص الكتب الدراسية عادة، تمارين ودروس المحاضرات والمختبر.. وأن "هؤلاء الذين تقوم أبحاثهم على البراديغمات المشتركة، هم ملتزمون بالقواعد والمعايير نفسها في الممارسة العلمية، فتشاطر البراديغم يعني تشاطر القواعد، حتى ولو لم تكن مفسّرة، وإلا فلن توجد مجموعة قواعد كاملة" (باتريك هيلي، صور المعرفة، ص160)، وفي هذا المعنى الواسع لاستخدام "البراديغم" تشكل العناصر المشتركة خاصية تفسّر سهولة "التواصل في المجتمع العلمي بغير مشاكل، وإجماع العلماء على الأحكام التي يصدرونها بشأن النظريات وسواها" (الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص419). وفي الاستخدام الحصري أو "قالب المثلية"

(Exemplar matrix)، فالبراديغم[1] يعني "مجموعة من الأفكار حول ما يجعل المجتمع العلمي يقبل حلولاً معينة لمشكلة معينة قبولاً سلساً متآلفاً" (الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص419).

2 - **البراديغم مستعملاً كمثال**: ينطلق كون من أن العمل في حل المشكلات انطلاقاً من النظرية فالقواعد، لتعلّم أشياء مهمة عن الطبيعة، من دون أمثلة توضيحية "ستكون ذات محتوى حسيّ قليل" (كون، بنية الثورات العلمية، ص308).

ولتوضيح فكرته يعود كون إلى التعميم الرمزي لقانون الحركة الثاني عند نيوتن، الذي يكتب هكذا f=ma "فعالم الاجتماع أو اللغة، الذي يكتشف أن التعبير المقابل قد نطق وقبله أعضاء متحد مفترضة، لن يعلم كثيراً عما يعنيه التعبير أو مفرداته لكنهم موافقون على كل الأمور مثل المعنى والتطبيق... لكن يمكن المرء أن يسأل عند أي نقطة، وبأي وسيلة حققوا ذلك، وكيف تعلموا، وهم يواجهون موقفاً تجريبياً مفترضاً، أن يختاروا مصطلحات القوى، والكتل والتسارعات؟" (كون، م، ن، ص309).

والتعميم الرمزي f=ma، هو ترسيم قانون أو خطة عامة في حل المشكلات.. فعندما ينتقل الطالب أو العالم الممارس من موقف إشكالي إلى تاليه، فإن التعميمات الرمزية التي تطبق عليها هذه الاستعمالات تتغيّر، فبالنسبة إلى حالة سقوط الأجسام يصبح القانون F=ma على النحو التالي Mg=d2s/dt1. (م، ن، ص309) والنقطة الجوهرية التي تعني كون هنا، أن "العلماء يحلّون الأحجيات بقياسها على براديغمات لحلول أحجيات

(1) في المعنى العجمي، الـParadigm أو الـParadim مجموع صيغ صرفية لجذر ما، أو مثال، نموذج (منير البعلبكي، المورد، ص1993)، وهي كلمة مأخوذة من الأصل اليوناني Paradeigma، وتعني مثالاً أو نموذجاً يحتذى، أي Pattern ويعرفه رولان أومينس (فلسفة الكوانتم) بأنه "إنجاز علمي مميّز أصبح أنموذجاً جديراً بالمحاكاة من جانب باحثين آخرين.

سابقة، والذين تقوم أبحاثهم على البراديغمات المشتركة، هم ملتزمون بالقواعد والمعايير نفسها في الممارسة العلمية" (م، ن، ص310).

ويثير كون إشكالية استخدام الكلمات بالنسبة لرجل لا يعرف حتى المشكلات... فالمسألة تكمن في معرفة ما تعنيه المواقف التي تعرضها الطبيعة. فالتعامل مع قانون "الهبوط بالفعل يساوي الصعود بالقوة" غير ممكن إلا عندما يتعلم الطالب أو العالم أن "الهبوط بالفعل"، و"الصعود بالقوة" هما مكوّنان طبيعيان.. وذلك قبل تعلم القانون. ولا يحصل ذلك النوع من التعلّم بواسطة وسائل لفظية، بل يحصل "عندما يعطى المرء كلمات ومعها تقدَّم أمثلة مادية عن كيفية تأديتها وظيفتها العملية، فالطبيعة والكلمات يتعلمان معاً" (م، ن، ص312). في ما يشبه المعرفة الضمنية، فالتعلّم يكتسب بممارسة العلم أكثر من تحصيل قواعد العمل فيه. والقسم الأكبر من معرفة رجل العلم العادي يصبح ضمنياً (Tacite) في المعنى الذي طوّره مايكل بولياني (Michael Polanyi)" (Chalmers, Qu'est-le que la science? P156.).

فهذه المشاركة، أحياناً، لا تكون قادرة على اتساق صريح، وفي هذا الجانب يسير كون صراحة على هدى المعرفة الشخصية (Personal Knowledge) لبولياني المنشور عام 1958، و"الذي يلمّح إلى أن المسألة جرى التعامل معها من قبل فتغنشتاين[1] وبالتحديد كيف أنه في غياب كيان كفوء من القواعد يكون رجل العلم مقيّداً بتقليد علمي عادي خاص، أو ما يعني بطلب التحرّي المباشر عن البراديغمات المتبعة" (هيلي، صور المعرفة، ص161).

يرفض فتغنشتاين أن تكون ثمة ماهية شاملة للمعنى وراء كل

---

(1) لودفيغ فتغنشتاين (1889-1951). فيلسوف نمساوي، تتلمذ على يد موروورسل، ومن أكثر الفلاسفة المعاصرين تأثيراً على الفلسفة الإنكليزية في القرن العشرين. وهو من أكثر الفلاسفة أصالة وجدّة "في التحليل المنطقي" و"فلسفة اللغة". يعتبر كتابه "بحوث فلسفية" من أهم الكتب التي نشرت بعد وفاته.

الاستعمالات، والبحث عن عنصر مشترك بينها، قاده إلى تشبيه فهم الإنسان لتلك الاستعمالات المختلفة "بفهمه للقواعد التي لا بدّ من مراعاتها في كل لعبة من الألعاب Games".

فاللغة أشبه باللعبة، من حيث أنه لا بدّ من التزام بعض القواعد في كل منهما.. ولبلوغ الوضوح المطلوب حول معنى أية كلمة، لا بدّ من الرجوع إلى طرق استعمالها (Uses) (زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، ج1، ص272). والنظرية الأساسية عند فتغنشتاين هي "نظرية المعنى في الاستخدام" وأن أي فكرة لا تكتسب معناها إلا في السياق الذي ترد فيه والسياقات دائمة التغيير... إنها دعوة إلى النسبية في المعرفة، وتوجيه ضربة قوية للمنطق والقواعد العقلية. فقد تبين لفتغنشتاين أنه "لا وجود لبنية منطقية أو عقلية تقبع خلف حياتنا وثقافتنا وعلومنا".

وبالتالي لا وجود لفكر صحيح بشكل دائم، وإنما الفكر يكسب مشروعيته في مكان وزمان معينين وفي ظل ظروف محددة. فالفكر يخضع للقواعد الأخلاقية ولظروف الحياة المتغيّرة لأن تكوينه اجتماعي، وليس هناك بنى عقلية منطقية هي التي تتحكم فيه" (رشيد الحاج صالح، المعرفة العلمية بين العوامل الاجتماعية والبنية المنطقية، عالم المعرفة، مج36 (يوليو/سبتمبر) 2007، ص59).

3 - **الشذوذ**: ينتج الشذوذ إما عن قصور العقل عن الإحاطة بمشكلات الواقع، أو القصور عن تفسيرات ظاهرات الواقع، أو لا يكون محيطاً بدراسة الواقع، وإما ينتج عن ظهور وقائع جديدة.

1 - يبدأ اكتشاف الشذوذ بوعي وجود حالة عدم توقع، أي "بإدراك للطبيعة بأنها خرجت عن التوقعات التي كان قد بعثها البراديغم والتي تحكم العلم العادي" (كون، م، ن، ص124).

2 - اكتشاف مستمر/ممتد لمنطقة عدم التوقع.

3 - لا يختتم الاستكشاف (عدم التوقع) إلا عندما تكيّف نظرية البراديغم ليصبح ما كان شاذاً من نوع المتوقع.

4 - إن الواقعة الجديدة التي كانت شاذة لا تكون ضمن العلم (أي لا يبحثها العلم) إلا بعد إتمام عملية التكيّف، أي عندما يتعلم العالم أن ينظر "إلى الطبيعة نظرة مختلفة" (م، ن، ص، ن).

ويلاحظ كون، في معرض حديثه عن الاكتشاف العلمي، أنه "في العلم، كما في تجربة ورق اللعب، لا يظهر الجديد إلا بصعوبة" (م، ن، ص140).

إن حالة عدم التوقع لا تظهر إلا على خلفية يوفرّها البراديغم... لكن "استسلام البراديغم لا يكون بسهولة" (كون، م، ن، ص141). ففي عملية تطور أي علم يكون الشعور أن البراديغم يشرح بنجاح معظم المشاهدات والتجارب، ويستدعي بناء معدات دقيقة، ولغة من المصطلحات والمهارات... وهذه المهنية تؤدي إلى "تقييد كبير لرؤية العالم، وإلى مقاومة كبيرة للبراديغم" (م، ن، ص140).

4 - **الأزمة**: من شأن الشذوذ هذا أن يؤدي إلى أزمة في العلم، بحيث تظهر نظريات جديدة. فالوعي بـ"حالات عدم التوقع يؤدي دوراً في ظهور أنواع جديدة من الظواهر" (م، ن، ص144). وهذا يؤدي إلى عدم أمان بعد إخفاق أحجيات العلم العادي والقواعد التي يقوم عليها البحث... ويدعم كون حجته بأمثلة من علمي الفلك والفيزياء[1].

إن الأزمة هي بمثابة جرس إنذار أن الأدوات التي يستخدمها براديغم العلم العادي حان وقت تجديدها. فالأزمات، والحال "شرط مسبق وضروري لظهور نظريات جديدة" (كون، م، ن، ص159). ولكن كيف يتصرّف العلماء في حالات ظهور وقائع عدم توقع قاسية وطويلة؟

يلاحظ كون أن العلماء، وإن بدأوا البحث عن بدائل، فإنهم لا يتخلون عن البراديغم الذي قادهم إلى الأزمة (م، ن، ص، ن).

إن رفض العلماء لنظرية كانت مقبولة لا يبنى فقط على مقارنة تلك

---

(1) راجع الفصل السابع من كتاب بنية الثورات العلمية.

النظرية مع العالم. "إن قرار رفض براديغم يكون دائماً متزامناً مع قرار قبول براديغم آخر" (م، ن، ص160).

وتعبّر الأزمة عن نفسها بظاهرتين، الأولى: ظاهرة تشوّش في البراديغم، والثانية: خلخلة في قواعد البحث العادي (العلم العادي).

وهذا يقود إلى الاعتراف بأن "الأزمة هي مقدّمة لظهور نظريات جديدة" (م، ن، ص171).

وعملية الانتقال من علم عادي مأزوم (براديغم)، إلى براديغم جديد ليست "عملية تراكمية"، بمعنى صياغة براديغم قديم وتوسيعه "والأصح هو القول بأنها إعادة بناء الحقل من أسس جديدة، وهي إعادة البناء التي تغيّر بعضاً من أهم التعميمات النظرية الابتدائية للحقل، فضلاً عن عدد كبير من طرائق البراديغم وتطبيقاته" (كون، م، ن، ص170).

الثورة العلمية: قد تطول الأزمة أو تقصر... فيظهر علماء شبّان لا يلتزمون بقواعد العلم العادي السابقة، ويتصورون مجموعة أخرى لتحل محلها فيحدث الانتقال إلى براديغم جديد، وهذا الانتقال إلى "براديغم جديد هو ثورة علمية" (كون، م، ن، ص177).

تبدأ الثورات العلمية عند ظهور شعور متزايد، غالباً ما يكون مقتصراً على فئة صغيرة من الجماعة العلمية بأن مؤسسات قائمة توقفت عن العمل بما فيه الكفاية في الكشف عن ظاهرة من ظواهر الطبيعة، سبق أن أدّى إليها ذلك البراديغم، الذي توقف عن العمل.

والسؤال الآن: ما هي الظواهر التي تؤدي إلى ابتداع نظريات جديدة؟

1 - النمط الأول: ظواهر تم شرحها بواسطة البراديغمات المعمول بها، ونادراً ما تؤدي إلى بناء نظرية جديدة.
2 - النمط الثاني: الظواهر التي تكشف البراديغمات القائمة عن طبيعتها، لكن تفاصيلها لا تفهم إلا من خلال صياغة نظرية أوسع، وهي الظواهر التي يوجه العلماء إليها بحثهم معظم الوقت. وما يحصل

صياغة البراديغمات القائمة وليس ابتداع براديغمات جديدة.

3 - النمط الثالث من الظواهر يتعلق بظواهر عدم التوقع، التي لا يمكن أن تقبل أن تتمثلها البراديغمات المعمول بها، وهذا النمط وحده "يؤدي إلى نشوء نظريات جديدة" (م، ن، ص186).

يسلّم كون أن الفروقات أو الاختلافات بين البراديغمات المتعاقبة لا يمكن إلا أن تكون ضرورية ومقبولة. وهي لا تقتصر على الطبيعة أو إخبارنا بما يجري من "أشياء مختلفة في الكون" (م، ن، ص194). بل تعود إلى التوجه إلى العلم الذي أنتجها. "إنها (البراديغمات) منبع الطرائق، وحقل المشكلات، ومعايير الحلول المقبولة من أي متحدّ علمي في أي وقت" (م، ن، ص، ن).

ويخلص كون إلى فحوى الثورة العلمية بتأكيده أن "استقبال براديغم جديد يقتضي إعادة تعريف العلم المطابق له". وهذا يستوجب من الناحية العلمية:

1 - إخراج بعض المشكلات من نطاق العلم، وربما إلى علم آخر، أو اعتبار هذه المشكلات فاقدة "للعلمية".

2 - اعتبار مشكلات لم تكن ذات قيمة (تافهة) مشكلات مثلى لإنجاز علمي.

3 - يؤدي تغيّر المشكلات إلى تغيّر في المعيار الذي يميّز حلاً علمياً واقعياً من كونه تأمل ميتافيزيقي أو لعبة كلمات، أو لعبة رياضيات، أو من قبيل تحصيل الحاصل.

تغلف البراديغمات النشاط البحثي من خلال النظريات التي تجسّدها. "فالعالم أثناء تعلمه أحد البراديغمات، يكتسب نظرية، وطرائق، ومعايير، في صورة مزيج مترابط العناصر. لذلك، عندما تتغيّر البراديغمات، تحصل انتقالات مهمة في المعايير التي تحدّد مشروعية المشكلات والحلول المقترحة" (كون، م، ن، ص202).

على أن دور البراديغمات لا يقتصر على "تأليف العلم"، بل يتعداه إلى "تأليف الطبيعة". فكيف يحصل ذلك؟

بعد الثورة أو تغيّر البراديغم يستجيب العلماء لعالم مختلف عمّا كان. فتغيّر التقليد العلمي يرتب أن "يتجدّد إدراك العالِم لمحيطه عن طريق التربية"... على العالِم أن يرى "غشطالتاً جديداً" (أي كلاً).

ويقترح كون إعادة كتب التدريس باعتبارها "وسائل تعليمية هدفها نشر العلم العادي" (كون، م، ن، ص241) بعد كل ثورة علمية.

تولد البراديغمات الجديدة من البراديغمات القديمة، وتدمج في بنيتها الكثير من المفردات والأجهزة الفكرية والعلمية التي كان استخدمها البراديغم القديم. "ففي البراديغم الجديد تدخل المصطلحات القديمة، والتصورات، والتجارب، في علاقات جديدة في ما بينها، والنتيجة الحتمية هي ما لا بدّ من تسميته سوء تفاهم بين المدرستين المتنافستين" (م، ن، ص256).

إن المتحدات العلمية تنظر إلى تغيير البراديغم على أنه تقدّم، و"لأن وحدة قياس الإنجاز العلمي هي المشكلات المحلولة" (م، ن، ص283). والمتحدات العلمية تعرف جيداً أي من المشكلات سبق حلّها. وإذا ما تبنى نفر من العلماء وجهة نظر من شأنها أن تفتح باب الشك في المشكلات التي سبق حلها. ويلاحظ كون أن "الطبيعة ذاتها لا بدّ أن تدمّر الأمن المهني عن طريق جعل الإنجازات السابقة تبدو إشكاليات" (كون، م، ن، ص283).

يتوقف كون عند شرطين يقرّهما العلماء لقبول براديغم جديد:

الشرط الأول: يتعيّن على البراديغم المرشح لأن يكون جديداً "أن يكون قادراً على حلّ مشكلة بارزة بصورة عامة، ولا يمكن حلّها عن طريق آخر" (م، ن، ص283).

والشرط الثاني: أن يشتمل البراديغم الجديد على "وعد بالمحافظة على جزء كبير نسبياً من القدرة المادية على حلّ المشكلات التي أضيفت إلى العلم من خلال البراديغمات السابقة" (م، ن، ص، ن).

ويتوقف كون أيضاً حول دلالة "علم"، وعند المجادلات الجارية حول ما إذا كان علم واحد من العلوم الاجتماعية المعاصرة أو آخر هو علم حقاً... ويضرب على ذلك مثالاً هو علم النفس. فالبعض يقول أنه "علم لأنه يحوز على كذا وكذا من الخصائص، وآخرون يعارضون قائلين إن تلك الخصائص هي إمّا غير ضرورية أو غير كافية لجعل حقل من الحقول علماً" (م، ن، ص، ن).

وفي معرض الإجابة يلاحظ كون أن "العالم لا يعمل إلا لجمهور من الزملاء، وهم يشاركونه في قيمه ومعتقداته، فإنه يستطيع أن يأخذ مجموعة واحدة من المعايير ويسلّم بها" (كون، م، ن، ص277). وهو خلاف المهندس، والطبيب واللاهوتي لا يحتاج لأن يختار المشكلات لأنها تتطلب حلاً ملحاً، ومن دون الالتفات إلى الأدوات التي يمكن الحصول عليها لحلها.

ولتوضيح فكرته يجري كون مقارنة بين عمل علماء الطبيعة وعلماء المجتمع. "فالعلماء الاجتماعيون يميلون، خلافاً لعلماء الطبيعة، إلى الدفاع عن اختيارهم لمشكلة بحثية، مثل آثار التمييز العنصري أو أسباب دورة العمل، بلغة الأهمية الاجتماعية لإنجاز حلّ، بصورة رئيسية" (م، ن، ص، ن).

وبالمحصلة، كان من نتائج هذا التحوّل أو "الفتح العلمي" المرتبط بالنتائج الباهرة التي تمخضت عنها فلسفة العلم ظهور "البراديغم"، ليشمل علوم الإنسان والمجتمع.

حاولت العلوم الإنسانية والاجتماعية أن تحتذي حذو العلوم الطبيعية والرياضية في بناء مناهجها ومعارفها. وطالما كانت العلوم الطبيعية هي الأكثر تقدماً ونجاحاً بين العلوم، فلا بدّ أنها النموذج الذي يقاس عليه (أي البراديغم) للمعرفة العلمية" (صلاح قنصوه، الموضوعية في العلوم الإنسانية، ص116).

وهذا يفترض طرح السؤال: هل تنتسب العلوم الإنسانية والاجتماعية

إلى نسق العلم الحديث[1]؟ هل ينتسب علم الإعلام (أو علوم) الإعلام والاتصال إلى العلوم الإنسانية؟ وهل لديه البراديغمات الخاصة به، أم أنه لا يزال "عيالاً" على العلوم التي سبقته؟

لا مراء في أن العلوم الإنسانية والاجتماعية تنتسب إلى نسق العلم الحديث، فهي علوم لها مواضيع محددة بالظاهرة الإنسانية والاجتماعية، ولها مسائل متصلة أو مرتبطة نشأة وتطوراً في المواضيع الأصلية، وأن دراسة الظاهرة هذه يمكن أن تخضع لموضوعية شبيهة بموضوعية الدراسات العلمية، وإن لم تكن على نسبة مرتفعة من دقتها أو صحتها.

ويعني انتساب هذه العلوم إلى نسق العلم الحديث، باعتباره علماً يحتاج إلى طرائق ونظريات، فهو علم إخباري، يمكن التحقق من فرضياته ومعارفه للتحكم والتوقع، وبالتالي لا تخفى فوائد دراسته من الناحية الإجتماعية، وجدوى هذه الدراسة.

فرض الإعلام والاتصال نفسه موضوعاً مستقلاً منذ ثلاثينات القرن الماضي، لا سيما عند اكتشاف تأثيرات الدعاية والمعلومات على سلوك الأفراد والجماعات، وعلى التماسك الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية، إبّان الحرب العالمية الثانية.

إن حقل الدراسات في الإعلام والاتصال ظهر كأنه حقل غير قابل للتجزئة، وغير متجانس (Hétérogène)، فهو حقل بأنظمة معرفية متعددة، تشكّل من مصادر شديدة التنوّع: دراسات أدبية، لغوية، سيميائية، إعلام

(1) نسق العلم الحديث (Système): النسق كلمة شاعت ترجمتها إلى العربية "نظام". وتعني في الانكليزية: كلمة مركبة. أي مجموعة من الأشياء تعمل معاً وفق آلية أو شبكة أو ترابط. وفي الرياضيات: مجموعة من المعادلات تشترك بصفات مشتركة عدة. وبتعريف آخر "النسق العلمي بنية داخلية، منظومة معرفية متوالية من القضايا المنهجية، تحمل مضموناً إخبارياً، وقوة تفسيرية، وطاقة تنبؤية منصبة على العالم الذي نحيا فيه، فنجعل الفعل البشري يحكم قبضته عليه". (يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص176.

توثيقي، علم اجتماع، أدب، فلسفة، سيكولوجيا، علوم إنسانية، تقنيات علوم الهندسة... إلخ.

طرحت مسألة انتساب الإعلام والاتصال إلى نسق العلم الحديث، واستعارات أبحاثه لتقنيات العلم المعروفة، أسئلة عن مدى نضج هذا العلم؟ وهل يمكن أن يشكّل فرعاً من فروع البحث والمعرفة، وهو يفتقر إلى تقنيات خاصة به؟ ذلك لأنه بأخذه تقنيات الدراسات الأدبية، لجأ إلى الخطابة، والسيمياء، وعلم الدلالات، أما اعتماده على الوثائق المادية والمكتوبة، أو التحقيقات الإحصائية، فهي ارتباط بعلم التاريخ ومهمة المؤرخ، فضلاً عن أن المقابلة واستقصاء الرأي العام مرتبطة بتطور علم النفس، في سياق اكتشاف الآراء، أو في سياق تكوين وتشكيل الآراء المستهدفة كموضوع البحث.

ولأن الاتصال ضروري لربط أفراد المجتمع والجماعات ببعضها، فهو ظاهرة اجتماعية، تخضع للدراسات السوسيولوجية والإثنية والأنتربولوجية. وهكذا تحوّل الكائن الاجتماعي، الحيوي والنفسي إلى كائن إعلامي، يُحسن الإعلام والاتصال واستخدام الأجهزة للمعرفة والاطلاع.

تاريخياً، ارتبط حقل دراسة الاتصال بالمجابهات الإيديولوجية والصدامات المعرفية داخل أطره التكوينية المتعددة المشارب، والمتعددة المصادر، والوظائف الاتصالية والاجتماعية والتأثيرية.

كان التحدّي الكبير أمام الروّاد الأوائل الذين بلوروا حقل الدراسات الإعلامية، وتقنياتها، والأغراض العلمية والمجتمعية منها هو كيف يمكن ربط هذه المقاربات المعرفية في تيار موحد يأخذ بيد هذه العلوم الناشئة (إي الإعلام والاتصال) إلى النضح، وتكوين عوالمها المعرفية الخاصة بها.

II

الإعــلام

المهـن والعلـوم

تمهيـد:

تقودنا الأسئلة التي انتهى إليها القسم الأول، إلى المغامرة في الانتقال إلى القسم الثاني من هذا العمل، للوقوف على ماهية علم الإعلام (أو علوم الإعلام)، من استنباط هذا العلم إلى إنشاء أبوابه وفصوله، وتتبع مسائله ومباحثه، واستكشاف مدى ارتباطها بعلوم أخرى، ذلك لأن علم الإعلام يحتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، من تحكيم قواعد السياسة وطبيعة الاجتماع وتقلبات أحوال الواقع، وسائر ما يحدث في المجتمعات والبيئات من الأحوال، كالحضارة، التكنولوجيا وتطوّر العلوم، وتحولات الاقتصاد والثقافة والعقائد، والقيم الدينية والأخلاقية، فضلاً عن الحروب والتقلبات ونشأة الإمبراطوريات وانهيارها، والممالك والدول وتلوّن أشكال الحياة والمجتمعات والأجناس على الأرض.

ومن زاوية، طبيعة هذا العمل، باعتباره محاولة، قد تكون الأولى من نوعها، لكتابة نص (أي أصل) يتضمن البحث في نشأة هذا العلم والعوامل التي أدّت إلى هذه النشأة، فضلاً عن تأصيله، ووضع مبادئه وقواعده ومسائله، وارتباطها بعلوم أخرى تأسست بفضل تحوّلات الإنتاج والتكنولوجيا والتزايد السكاني، فضلاً عن الحاجة الدائمة لربط علم الإعلام في الحضارة العربية بنشأة العلوم الطبيعية والنقلية، من كتب النحو ومن البيان والخطابة إلى مباحث الفقه وعلم الكلام وآداب السلوك.

أولاً: العلم، التعليم، الإعلام

العلم، في لسان العرب، نقيض الجهل، والعلم من صفات الله عزّ وجلّ، فهو العليم، العالم والعلّام. عالم الغيب والشهادة. أحاط الله علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها على أتمّ الإمكان.

ويُقال عن الأنبياء بأنهم كانوا علماء، بما علّمهم الله. هذا يعني أن الأنبياء والرسل يتلقون العلم عن طريق التعليم.

والعلم بعد المزاولة يصبح غريزة (ملكة) (Faculté). ويُقال عَلِمَ وَفَقِه أي تعلمّ وتفقه: هنا ارتباط بين العلم والفقه (أي معرفة الأحكام الشرعية)، وذلك بالاستنباط.

ويقال: الرحمن (الله) علّم القرآن أي يسّره لأن يذكر، علّمه البيان، أي القرآن، الذي جعل فيه بيان كل شيء، أي جعله مميزاً، يعني الإنسان، حتى انفصل عن جميع الحيوانات.

وبالنسبة للصلة بين العلم والإعلام. يقال (أيضاً في لسان العرب) عَلِمتُ، فهو يتعدّى إلى مفعولين (علمت عبدالله عاقلاً).

ويجوز أن تقول عَلِمتُ الشيءَ بمعنى عرفته وخبرته. وفي القرآن، يعلّمَان بمعنى يعلمَان. وعَلِم هنا، بمعنى عَرِف.

وأحبّ أن يتَعلَمهُ أي يعلم ما هو الزنا. والعلم بما هو لم يؤدِ إلى الإثم فهو العمل بما هو منهى عنه شرعاً (لسان العرب "مادة علم").

نستخلص مما تقدّم أن الأصل هو علم الله، فهو العالم الذي يحيط بعلمه كل شيء، بلا قيد أو شرط، فعلمه مطلق. هذا أولاً.

وثانياً، الله نقل علمه إلى الأنبياء بالتعليم، لينقلونه إلى سائر البشر بالإعلام والتعليم.

وثالثاً، ميّز الله الإنسان بالفكر (أي بالعلم). وبهذا الفكر يهتدي. و"لا يفتر عن الفكر طرفة عين... وعن الفكر تنشأ العلوم والصنائع" (ابن

خلدون، المقدمة، ص768).

هكذا ينشأ العلم من الفكر: ممّن سبق بعلم، أو ما توصل إليه من نظر في علم مخصوص "تتشوّف إليه نفوس أهل الجيل الناشئ إلى تحصيل ذلك، فيفزعون إلى أهل معرفته ويجيء التعليم... فالعلم والتعليم طبيعي في البشر" (م، ن، ص، ن).

يختص العلم بموضوع بعينه، تلحق به عوارض ومسائل. وهذا العلم يتصف بمبادئ وقواعد ومناهج لتحصيل المدركات أو الإدراكات النظرية أو المعارف العامة، المحققة (النظريات، القوانين... إلخ).

أدّى اكتشاف الطبيعة إلى ظهور العلم الطبيعي، والرياضي، والطب، وعلم النبات والكيمياء في اليونان القديمة... هناك ظهرت النظرية، وظهرت المعرفة والفلسفة.

ثم أدّت الرغبة لتوسيع السيطرة على الطبيعة إلى ولادة "الأورغانون الجديد" مع فرنسيس بيكون (Francis Bacon). بعدها وضعت مرتكزات تطبيقية للعلوم التي من شأنها أن تمكّن الإنسان من السيطرة على الطبيعة، وصولاً إلى غزو الفضاء. توسعت العلوم بقوة المنهج التجريبي، وحتى النظري، وظهرت دولية العلم من الفيزياء إلى الكيمياء، والرياضيات، والبيولوجيا، وصولاً إلى علوم الإنسان والمجتمع.

عندما كانت الفلسفة أمّ العلوم، قسّمها أرسطو إلى قسمين:

1 - علم نظري.

2 - علم عمليّ.

قيل أن هدف العلم النظري الحقيقة لا المنفعة. وخلافه العلم العملي، غايته المنفعة العملية. وثمة مَن أضاف، على لسان أرسطو نوعاً آخر هو العلوم الشعرية كالنثر والخطابة والشعر والفن على وجه الإجمال.

وتشمل العلوم النظرية، وفقاً للتصنيف الأرسطي، العلم الطبيعي، وما

بعد الطبيعة. (الفلسفة الأولى) والرياضيات (مع الإشارة إلى أن أرسطو لم يضع مؤلفاً واحداً في الرياضيات).

وتتصل العلوم العملية، بالأخلاق والسياسة وتدبير المنزل، مع الإشارة أيضاً إلى أن المؤلفات المنطقية لم تكن جزءاً من العلوم النظرية، لأن موضوع المنطق هو قوانين الفكر، وليس الوجود أو الموجودات.

والعلوم التي يخوض فيها البشر، هي على صنفين (وفقاً لابن خلدون). صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره. وصنف نقلي يأخذه عمّن وضعه. الأول علوم الفلسفة، والثاني العلوم النقلية الوضعية كعلوم تفسير القرآن والحديث والفقه والكلام.

ويعتمد منهج البحث فيها على الاستنباط، وتفرّع الفرع عن الأصل، وكيفية حصول ذلك على وجه قانوني (للتوسع راجع تاريخ الفكر الفلسفي (أرسطو والمدارس المتأخرة) لمحمد علي أبو ريّان، ص32-33).

فرض هذا الصنف من العلوم النقلية أو الشرعية نفسه على العقل العربي، بعيد الإسلام، ومع دخول العرب المسلمين الحضارة منذ نهايات العصر الأموي ومطالع ازدهار الدولة العباسية من أيام أبو جعفر المنصور (712-775م) إلى أيام المأمون (786-833م).

وهكذا تكون هذه العلوم علوماً إسلامية عربية، لا شأن لها بحضارات أخرى، أصلها الفقهاء والعلماء والبحّاثة العرب، بموضوعاتها ومسائلها إلى مناهجها من الاستنباط إلى الجدل والقياس وإسناد الأحاديث.

في التصنيف الخلدوني، بعد علوم الملّة تأتي العلوم العقلية وأصنافها، فهي تخصّ النوع الإنساني، أي البشر بصرف النظر عن الملّة أو الجماعة أو العرق. وهي أربعة تشمل:

1 - علم المنطق (لم يصنّفه أرسطو بين العلوم النظرية).
2 - العلم الطبيعي وينظر في الأجسام المحسوسة وعناصرها المكوّنة من المعدن والنبات والحيوان والفلك وأفعال النفس.

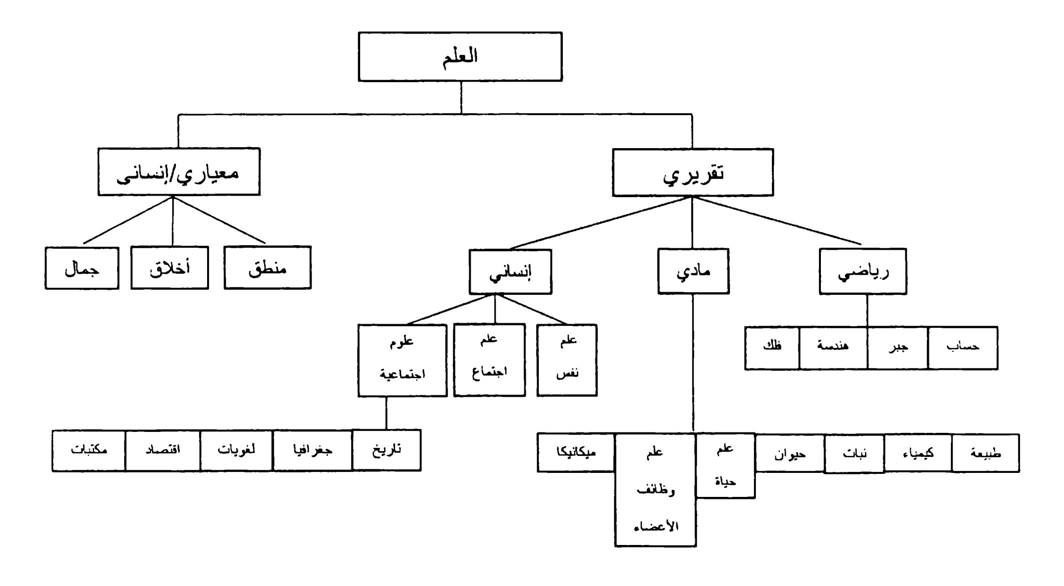
3 - العلم الإلهي، وينظر في ما وراء الطبيعة من الروحانيات.
4 - التعاليم، وينظر في المقادير، ويشتمل على أربعة علوم: علم الهندسة (الخط، السطح، الجسم). وثانيها: الأرتماطيقي (العدد وخواصه وعوارضه). وثالثها: علم الموسيقى (نسب الأصوات والنغم)، ورابعها: علم الهيئة (علم الفلك).

ويلاحظ محمد فتحي الشنيطي أن أول تصنيف دقيق في العلوم هو الذي قال به أوغست كونت (Auguste Comte). وميّز بين العلوم الحقيقية وتطبيقاتها، فلم يشمل سوى العلوم النظرية ذات القوانين، على الوجه الآتي: 1- رياضيات، 2- فلك، 3- طبيعة، 4- كيمياء، 5- علم حياة، 6- علم اجتماع.

ولم يدرج كونت علم النفس في عداد تصنيفه، فهو يعتمد على علم الحياة وعلم الاجتماع، إلا أن هريرت سبنسر (Spencer) وجد لعلم النفس مكاناً في تصنيفه (محمد فتحي الشنيطي، أسس المنطق والمنهج العلمي، ص167-168).

يتضح أن تزايد العلوم مسألة تطوّر وتقدّم كمي ونوعي، مرتبط بعوامل متعددة منها الحضاري، ومنها العلمي، ومنها التقني، والاتجاه لدى البشر لاعتماد التخصص وتعميق المعارف في حقول بعينها. وهي (أي العلوم) آخذة في الاتساع، وفقاً لتنوّع واتساع المجتمعات، والثورة في وسائل الإنتاج وتزايد الثروة والإمكانيات المتاحة.

وانطلاقاً من تعريف جون ديوي (John Dewey) بأن العلم هو "كل دراسة منظمة لها قواعد عامة متفق عليها" (م، ن، ص169). بلغت التصنيفات للعلوم حداً متقدماً في القرن العشرين. فظهر ما يمكن وصفه بالتصنيف المفتوح، الذي يربط بين أنواع العلوم ويكشف عن وحدة المعرفة.



جدول نمطي لتصنيف العلوم (م، ن، ص، ن)

من التصنيف المفتوح إلى صاحب كتاب "المجتمع المفتوح وأعداؤه" كارل بوبر. أرى أنه من المفيد التطرّق إلى نظرية الواقع (La réalité)، كما يقدمها بوبر، فبعض من أجزاء الواقع حيث نعيش هو واقع مادي (Une réalité matérielle)، فنحن نعيش على أرض، أعدنا معرفتها قبل 80 سنة أي منذ وجودي، وفي جوفها ما لا نعرف عنه إلا القليل. ومن جهة، توجد إلى جانب الأرض، الشمس والقمر والنجوم، والشمس والقمر والنجوم هي أجسام مادية. وهذه تعطينا فكرة أولى عن الكون. إن التوسّع فيها واجب علم الكوزمولوجيا (La cosmologie). وكل علم يخدم الكوزمولوجيا.

على الأرض هذه، نجد نوعين من الأجسام: الأجسام الحيّة والأجسام غير الحيّة. تنتمي إلى عالم الأجسام، عالم الأشياء المادية. هذا العالم أسميه "العالم 1" (Le monde1) أو العالم الأول ليس بالمعنى التراتبي بل العددي... وهو العالم المادي الفيزيقي.

2 - وما أسميه العالم 2 (Le monde2) هو عالم الوعي المعيوش، التجارب البشرية المعيوشة، في زمن يشعر بوجوده فيه الكائن الحيّ. وهو الفارق بين العالم المادي (Karl Popper, A la recherché d'un monde

meilleur, p27.) وعالم الوعي أو الشعور (Vécu). والعالمان مختلفان، فلا هوية واحدة لهما. وعالم2 بوصفه عالم الوعي واللاوعي والإدراكات والحالات العقلية والسيكولوجية يخص الإنسان والحيوان حتى "الأميبات" (Les amibes).

إن إدراك "الأنا" حتى بالنسبة لحالات (Coma) أو النوم بأحلام أو بلا أحلام، تنتمي إلى العالم الثاني.

3 - وما أسميه العالم الثالث (Monde3) فهو الإنتاجات الموضوعية للفكر الإنساني. وهي (أي الإنتاجات) يمكن أن تنتسب إلى العالمين الأول (المادي) والثاني (الشعوري) أو الروحي، مثل الكتب، والسموفونيات، وروائع النحت، والأحذية والطائرات، والكومبيوترات (Ordinateurs). ولا شك أن الأشياء المادية تنتمي إلى العالم الأول كالقذائف والمطارق.

وبكلمة، فإن كل منتجات الفعالية العقلية، الناجمة عن تصميم أو فعل إرادة تصنّف بأنها من علامات العالم الثالث (Monde3).

وهذه العوالم:

1 - العالم المادي وعالم الأجسام Monde1.

2 - عالم الوعي واللاوعي Monde2.

3 - عالم منتجات الفكر Monde3.

وفي المعرفة يتّجه الفكر إلى العالم الأول فيدركه، ويؤسس علوم تتصل بأشيائه وموضوعاته وقوانين سيره ووجوده.

ويتجه الفكر إلى العالم الثالث فيخلقه، بأجسامه وآلاته، وتقنياته وعلومه وفنه وشعره وموسيقاه. أي بكل أبعاده المتصلة بالآلة أو المتصلة بالروح.

والعلاقة بين العوالم الثلاثة متداخلة، "لكن العالم 2 هو الوسيط بين العالم1 والعالم3 بفضل علاقاته مع كل منهما، فهو يدرك العالم 1 بالمفهوم الحرفي للإدراك، ويخلق العالم 3، ويظل يدرسه ويضيف إليه

ويحذف منه، حتى القوة التكنولوجية في العالم3 تمارس تأثيرها في العالم، بفضل (العالم 2)" (الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، ص35).

اكتشف الإنسان بفكره وروحه (القوة الذهنية والروحية) المكان والزمان. واكتشف أن التجمع في المكان وعدم الانفصال والانتشار موت محتم له، ثم اكتشف الدولة لحفظ نوعه، وحفظ المكان الذي اختاره لبقائه. كان المجال الحيوي أهم اكتشافات البشر في تاريخهم المتحوّل عبر الأزمنة والأعصر المتعاقبة.

- ❖ إن السيطرة على المجال الحيوي شكلت هدفاً للأجناس البشرية، وكان الزمان مسألة مهمة في إنجاز السيطرة.
- ❖ قوة الدفع الروحية هذه، أدّت بالفكر إلى إنتاج العلم. وأنتجت التحوّلات والثورات في الدماغ والجسد والتقنيات وانفصال العمل الذهني عن العمل اليدوي قفزات هائلة في المعرفة.
- ❖ إن الانتقال من منطقة الجهل إلى منطقة العلم تميّز معالم الحياة على الأرض.
- ❖ وصارت حضارتنا الراهنة مكوّنة من سمات ثلاث مترابطة: علم، تعليم وإعلام.

وعليه، يُضحي السؤال مشروعاً: هل كان من الممكن أن يبقى الإعلام خارج دائرة العلم؟ وما الحادث الكبير في التاريخ، الذي أدى إلى ولادة الإعلام كعلم؟

أنا أعتقد أن الحادث الكبير هذا، يتصل بنزوع الإنسان للسيطرة على الإنسان، عبر تطويع روحه، أي السيطرة على الروح، بما هي قوة سلوك، ومبدأ الأفعال والأعمال بخيرها وشرّها (الحرب النفسية، الدعاية السوداء... إلخ).

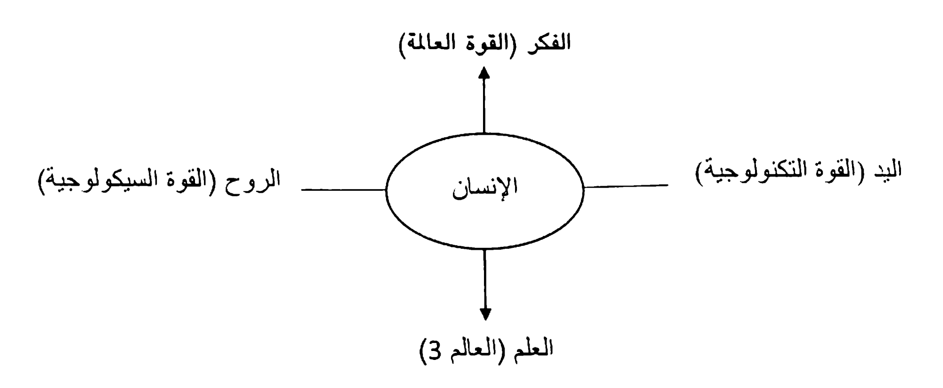
إن الصراع على المجال الحيوي لم يهدف فقط لتطويع عناصر الطبيعة والسيطرة عليها من الحجر إلى المعدن والأخشاب والنبات والهواء والماء والتراب، بل هو يهدف، قبل كل شيء، إلى تطويع الروح الوثابة،

والسيطرة على ديناميات الفكر المبدع لشلّه وإحباط عزيمة الفعل والحركة.

كانت معركة الوعي هي الأساس في سيطرة إنسان على إنسان أو هيمنة جماعة على جماعة، أو دولة على دولة، أو قارة على قارة.

في مسيرة الصراع والسيطرة هذه، عبر التاريخ الطويل للجنس البشري، تشكل العالم3 (بالتعبير البوبري) تباعاً بواسطة اليد (القوة التكنولوجية) والروح (مبدأ الأفعال والأعمال والفنون) والفكر الذي يدير القوة الجسمانية عبر اليد (التكنولوجيا) ويدير الروح (مبدأ الوعي والذهن) أو سيكولوجيا الوعي والفن.

مكونات العالم 3 واقعية: إنها المشكلات والحلول، ويحوي هذا "العالم الخطأ بجانب الصواب "وهو دائم التقدم والتغيّروالنمو، وهذه "المرونة تجعله ملائماً للعلم الحديث" (م، ن، ص، ن).



من أهم كيانات العالم 3 إنتاجات اليد، أو تكنولوجيا المهن وإنتاجات الروح من الدين إلى الفلسفة وعلوم الروحانيات من الميتولوجيا إلى الطلاسم وعلوم التصوّف والعرفان... ثم جاء العلم يدرس الفكر وإنتاجاته، أو يدرس العلم... هنا تتوسّع العلوم التي تنشأ في ظروف تاريخية واجتماعية ملائمة.

لم يكن من الممكن قبل منتصف القرن التاسع عشر، وبعد أربعة أو خمسة قرون من اكتشاف الطباعة، فظهور الصحافة الورقية، بعد توسّع

العالم ونشأة الرأسمالية وتحوّل الاستعمار إلى إمبريالية، أو صناعية أمبراطورية.

ثانياً: ما هو علم الإعلام؟ (الماهية والتأصيل)

تجد في لغة العرب، جذر لفظ إعلام، فهو من عَلِم، يَعْلَم، أعلم... والإعلام مصدر أعلم، وهو أهم من الإلهام (محيط المحيط/مادة علم).

قال زهير[1]:

وأعْلَمُ ما في اليومِ والأمْسِ قَبْله ولكني عَن عِلمِ مَا في غدٍ عمِ

ومعناه: قد يحيط علمي بما مضى وما حضر. ولكني عميُ القلب عن الإحاطة بما هو منتظر ومتوقع.

الإعلام هنا يعني المعرفة. فأنا أعرف ما مضى (الماضي) أي التاريخ، وما حضر (الحاضر)، ولكني لست بعارف ما سيحصل، أو ما سيكون (المستقبل).

ترتبط المعرفة بالزمان، وهي ترتبط بالمكان أيضاً، وتنصب المعرفة على أمر ذي شأن: الحرب، السلم، الموت، الحياة.

حتى الآن ثلاثة من عناصر المعرفة: ماذا؟ متى؟ أين؟ أو بالإنكليزية: What? When? Where?.

ينقل الإعلام الإنسان من الجهل إلى العلم: المعرفة تحرّر الإنسان من الجهل، تجعله على بينة من أمر، ليبني على الشيء مقتضاه.

هذا ما قصده عنترة[2] على سبيل المثال، الواقعي، المعبّر:

---

(1) زهير بن أبي سلمة (530-627م) وهو من شعراء المعلقات في الجاهلية. ميال إلى الحكم، دقيق الوصف.

(2) عنترة بن شدّاد: (نحو 525-615) من مشاهير شعراء الجاهلية وفرسانها. من أصحاب المعلقات، اشتهر ببطولته في الغزوات. كان أسود اللون كريم الأخلاق، طمح إلى الزواج من ابنة عمّه عبلة. نشأت حوله الأساطير المعروفة بسيرة عنترة.

هلا سَألتِ الخيلَ يا إبنةَ مالك إن كُنت جاهلةً بما لم تَعلمي

يُخبركِ مَن شهدَ الوقيعة أنني أغشى الوَغى وأعفُّ عندَ المغنمِ

يحتل السؤال مكاناً محورياً في الحصول على المعلومة أو الخبر، ويتبعه الجواب: الحصول على الخبر.

لن يتمكن الإنسان، أو الأفراد، أو الجماعات من الحصول مباشرة على ما يهمّهم من معلومات عن أحداث أو واقعات... هنا يأتي شاهد العيان ليخبر بما رأى أو سمع.

شَهِدَ الوقيعة: شهد الحرب، فهو كان مشاركاً فيها، وهو يمتلك المعلومة، بإمكانه أن ينقل ما رأى وشاهد.

إذاً، هنا ننتقل إلى مَن Who, Qui لديه المعلومة، حتى نتوجه بالسؤال إليه.

وجوابه، الذي تضمن المعلومة، أي المعرفة، ربما تضمّن وصفاً، ونقل صورة، فهو الجواب على كيف؟

أغشى الوغى، أي عالي الهمة في الحرب، لكنني عفيف النفس، شهم، لا أسعى وراء الأموال... إلخ.

في تأصيل معنى الإعلام يمكن تعريفه بأنه معرفة ما هو كائن، أو ما حدث أو هو حادث، أو هو وصف الواقع، إنه علم المجريات الذي ينتقل إلى الإنسان بوسائط البصر (المشاهدة، العين، التلسكوب)، والسمع (الأذن، السمّاعة).

المعلومة تنصبّ على ما هو حاصل في "العالم 3" البوبري، أي على انتاجات الفكر واليد والروح، معرفتها والإعلان بها.

والعلم بالشيء يكون:

1 - بالوحي من الله عبر الملائكة إلى الأنبياء.

2 - وبالتعليم عبر الأنبياء إلى البشر، ثم عبر المعلمين إلى سائر الناس.

3 - وبالإعلام عبر الإعلاميين أو الصحافيين (وهم الرواة والقرّاء والمخبرون) إلى الناس عامة، أو إلى جمهور منهم.

ينقل الإعلام الناس من الجهل إلى العلم، إلى المعرفة، فهو أصيل في الثقافة العربية والإنسانية.

وهنا، يتعيّن أن نميّز بين الإعلام كمهنة، والإعلام كعلم، وكلاهما حادث في المجتمعات الحديثة والمعاصرة.

وعلم الإعلام، هو العلم الذي يدرس المعرفة الناشئة عن المهنة، بمحتواها ووسائلها وأجناسها وتأثيراتها.

وعلم الإعلام موضوعه دراسة الخصائص العامة للإعلام (الطبيعة، التكوين، التأثيرات).

ومن الثابت أن هذا العلم لا يزال طري العود، لا سيّما في الثقافة العربية، فلا حذق فيه ولا سيطرة عليه، أولاً لحداثته، وثانياً لقلة المشتغلين بالإحاطة بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله، واستنباط فروعه من أصوله. وهؤلاء المشتغلون بهذا العلم لا ملكة لديهم للقيام بهذه المسؤولية الوطنية المعرفية الجليلة.

وهنا نميّز بين الإعلام كمهنة، والإعلام كعلم،، وإن كان من الصعوبة بمكان نجاح هذا التميّز، لكنه يساهم في تعيين الحدود بين ما هو تطبيقي، عملي، يعني صناعة الخبر، والتحقيق وكتابة المقال، وإعداد نشرات الأخبار، وإجراء المقابلات، وإنتاج البرامج والموسيقى، والأعمال الدرامية، أو النقل الحيّ المباشر، أو إنشاء المواقع الإلكترونية والرسائل النصية والخبر العاجل والفيديو، والأقراص المدمجة، وما هو نظري، يدرس الماهيات، التصنيفات، التأثيرات والتحديات، من زاوية مناهج البحث السائدة في العلوم.

ثالثاً: نشأة الإعلام كمهنة

في الحياة المهنية، يتحدّث الناس عن الإعلام القديم والجديد، وعن

المعلومات والحقائق والمصادر والتسريبات. ويحتل الخبر حجر الزاوية في مجمل المهن الإعلامية، فإذا توسّع صار تحقيقاً، وإذا ظهرت آراء حوله أصبح تعليقاً، ومنه ينطلق الصحافي لإجراء حوار أو مقابلة.

الصحافة، أو الإعلام كمهنة، كسائر المهن أو الحرف، التي يتفرّغ للعمل فيها الأفراد، لتحصيل رزقهم. إنها مرتبطة بخروج الناس من الحالة الطبيعية إلى الحالة المدنية. يلعب تحصيل الرزق دوراً في اختيار المهنة.

في الأصل كان الفعل "يخبّر" (Informer) (Inform) المأخوذ من أصل لاتيني، يعني في الفرنسية والإنكليزية ليس فقط الإخبار أو إعطاء الحقائق، ولكن يعني أيضاً "تشكيل العقل" (آنا بريغز، التاريخ الاجتماعي للوسائط 2005، ص130-140).

شكلت الحواس الخمس الطبيعية:

1 - العين (البصر، الرؤية، المشاهدة، اللون، الجسم الإمتداد).
2 - الأذن (السمع، الصوت، الضجة، الضوضاء، الموسيقى، الأغنية، تغريد العصافير، أصوات الحيوانات).
3 - اللسان (الذوق، الطعم، مر، حلو... إلخ).
4 - اللسان (الكلام، النطق، اللفظ، اللغة، الأعداد، الرموز، المؤشرات).
5 - اليد (اللمس، الناعم، الخشن، الكتابة) أولى وسائل الإعلام أو الاستعلام، أي جمع المعلومات حول ما يحيط بالفرد في بيئته الطبيعية والاجتماعية، وما يهمّه من هذه البيئة، ويتعلق بغرائزه وحاجاته، ومتطلباته، ودوافعه واهتماماته.

المعلومة، الخبر، الاستعلام، الاستخبار بالنسبة للمرء حاجة حيوية، بيولوجية، كالطعام والشراب، والنوم والتناسل.

لا تكفي وسائل الإعلام الطبيعية الفرد في جمع المعلومات التي تهمّه. كان الانتقال إلى الحضارة، ونشأة الآلات والصناعات، والمدن، وقيام الحروب، وظهور الأديان الكبرى، وتغيّرات المكان والزمان بالنسبة

للأفراد، كفيلة بالبحث عن وسائل صناعية، للاستعلام وجمع المعلومات.

ولم تعد المعلومة، قبل ظهور مصطلحات، مثل "مجتمع المعلومات" و"تكنولوجيا المعلومات" و"ثورة المعلومات" تتقدّم على ما عداها.

وأصبح للقيام بهذا العمل، أي "جمع المعلومات" حاجة لأفراد يعملون ويتقاضون أجرة، أو رواتب، مثل التعليم، أو أية مهنة أخرى.

وتضافرت عوامل عدة لقيام مهنة الإعلام، أو الصحافة:

1 - ظهور التكنولوجيا من المطبعة عام 1457 مع غوتنبرغ[1] (Gutenberg) إلى الهاتف (Téléphone) مع الكسندر غراهام بل[2] (Alexander Graham Bell)، والتلغراف الكهربائي مع صموئيل مورس[3] (Samoel Morris)، وظهور الآلة الكاتبة ذات الخطوط (عام 1843)، واختراع التصوير الفوتوغرافي سنة 1816 مع نيسيغور نسيبس[4]، وولادة اللاسلكي والراديو مع هنريش هرتز[5] (1857-1894)، حيث بات بالإمكان بث الأصوات عن بعد، بانتظار اختراع التلفزيون، عندما نجح الفيزيائي الإنكليزي باين سنة 1843 بنقل صورة فوراً بفضل مسح كهربائي ميكانيكي يحول الصورة إلى إشارات كهربائية، فأصبح بالإمكان نقل الصور المتحركة والكلام عن بعد، فضلاً عن توفّر برامج الثقافة والتسلية.

وأدت هذه التطورات التقنية إلى ولادة الحواسيب عندما نجح شارل باباج (1792-1871) وهو عالم رياضي بريطاني في صنع آلة حاسبة يتحكم بها برنامج مسجّل على بطاقات مثقوبة. ومنذ نهاية الثلاثينات تمكّن عالم الرياضيات الأميركي جون فون نيومان (1903-1957) من وضع بنية آلة

---

(1) غوتنبرغ (يوهانس) (1400-1468) اخترع الطباعة بالأحرف المنفصلة عام 1440. طبع مع يوهان فوست الكتاب المقدّس عام 1450.

(2) فيزيائي أميركي (1847-1922).

(3) صموئيل مورس (1790-1872) مهندس أميركي، اخترع التلغراف الكهربائي.

(4) نيسيغور نيبيس (1765-1883) هو فيزيائي فرنسي، اخترع التصوير الفوتوغرافي.

(5) هنريش هرتز (1857-1894).

أوتوماتيكية لمعالجة المعلومات، توافق غالبية أجهزة الحاسوب الحالية، وصولاً إلى البريد الإلكتروني e-mail، إلى ظهور شركات البرمجيات (الميكروكومبيوتر)، وفي مقدمها ميكروسوفت[1] مع بيل غيتس[2] (Bill Gates)، وأنتل (Intel) وآبل (Apple)... إلخ.

غيّرت وسائل النقل والاتصالات الحياة على الأرض، وأصبح الاتصال بالكلمة المكتوبة، ونقل الصوت والصورة والحركة متاحاً، من اكتشاف الأبجدية إلى اكتشاف الكهرباء، وإرسال البرقيات عبر الكوابل (Cables) العابرة للمحيطات. ثم الاتصال عن بُعد، وجرى اختصار المكان والزمان بين المرسل والمستقبِل، عبر الرسالة البرقية، وتحققت فكرة نقل الصوت عن بعد، عبر الموجات الهرتيزية (Ondes Hertziennes)، بما فيها المحادثات، ونقل المعلومات، فضلاً عن إلغاء الزمان مع ظهور الأقمار الاصطناعية (Satellites)، وتطلع البشر على الأرض إلى الاتصالات عن طريق ناقل المعلومات فائق السرعة (The information super highway)، وما يطلق عليه مجال التكنولوجيا الفائقة (hightech) والوسائط المتعددة (Multimedia) للاتصالات المعاصرة. "فالشركات الناقلة للاتصالات (Carriers) تتدافع بالمناكب لتوصيل المنازل والمؤسسات بأليافها وشبكاتها الجديدة ذات الكابلات متحدة المحور (Coan) كي يمكنها نقل الوسائط الإعلامية على اختلافها، من أصوات وسمعيات، ومرئيات، ونصوص، وبيانات، وفاكسات وما هو أكثر حتى الأبواب" (فرانك كليش، ثورة الأنفوميديا، ص13).

2 - نشأة المدن الكبرى، والتحوّل من النظام القديم (الإقطاعي) إلى النظام الجديد (الرأسمالي)، ومن نظام الرعية إلى نظام المواطنين، وظهور النقود والبيع والشراء، والسلع والمصارف، وهي جميعها من ابتكارات المدنية.

---

(1) ميكروسوفت هو اختصار أول كلمتين من Micro computer و Software (برمجيات).

(2) بيل غيتس (1955-) أسس شركة ميكروسوفت عام 1975، ورئيس مجلس إدارتها.

إن النمو السكاني، الذي مهّدت له الثورة الصناعية (La révolution industrielle) غيّر تمركز الناس في المدن، وأصبح عدد سكان أوروبا يزيد بمعدل ضعفي زيادة سكان العالم، "وارتفع من 187 مليوناً عام 1800 إلى أكثر من 400 مليون في عام 1900" (La grande encyclopedie moderne, tome (Histoire) p243).

كما شهدت أوروبا، حيث نشأت الصحافة المكتوبة، هجرة ريفية إلى المدن. فقصد الفلاحون الفقراء المدن لكسب العمل. وبحلول عام 1860 كان في لندن (Londres) أكبر مدينة في العالم، 2,600,000 قاطن (Habitants)، وفي باريس (Paris) مليونان (2 Millions)، وفي نيويورك (Newyork) 1,175,000 ساكن (Habitants) (Ibid, même page).

وبتأثير اكتشاف المناجم وبناء المصانع وسكك الحديد ولدت البنوك لتسهيل التبادل بين الناس، وتم استثمار قوة العمل وظهر نظام السوق، وأصبح رأس المال ينمو ككرة الثلج وسيطر على سائر أوجه الحياة، فولدت البرجوازية الرأسمالية وظهر أيضاً صراع العمال والنقابات، ثم توالت الثورات من الصناعة إلى الاتصالات فالمعلومات فالأنفوميديا.

وبالمحصلة، وقع المال على "أداة جديدة، وطغى سلطان الصحافة الدورية شيئاً فشيئاً على تأثير المنابر في تشكيل الرأي العام، وإعداده للأهداف الخاصة، ودخلت التاريخ قوة جديدة تنزع عن الناس الصبغة الدينية وتنزع بهم إلى التعلق بالأمور الدنيوية" (ديورانت، قصة الحضارة، عصر لويس الرابع عشرن مج31-32، ص215).

3 - لعب التعليم دوراً هائلاً، لا سيما انتشار التعليم الابتدائي في مستهل القرن التاسع عشر، في دفع مهنة الصحافة إلى الأمام، متزامناً مع تحولات كبرى أخرى سواء في ظهور نظام الانتخاب، ودخول العالم العصر الاستعماري مع بريطانيا وفرنسا، حيث تضاعف عدد الناخبين. وأدّى التوسع الاستعماري لفرنسا في تلك الفترة، إلى إثارة الفضول عند الجماهير "وحمّل الصحف مسؤولية إشباع تلك الحاسة. وفي بداية القرن العشرين

بلغ عدد الصحف الصادرة في فرنسا نحو 6000 صحيفة" (إبراهيم إمام، دراسات في الفن الصحفي، ص17).

4 - شكلت التشريعات الحقوقية والمالية عاملاً حاسماً في إحداث ثورة في صحافة بريطانيا العظمى، من إلغاء قانون الترخيص سنة 1695 إلى إلغاء الضريبة على الصحف.

ومِن معالم هذه الثورة ظهور الصحافة البنسية زهيدة الثمن مثل ديلي نيوز (Daily News) 1868، ومورنينغ بوست (Morning Post) 1881، وديلي ميل (Daily Mail) 1896، وثمنها نصف بنس "فكانت ثورة جديدة في التحرير والإخراج" (م، ن، ص19).

مع الثورة الصناعية في انكلترا، التي أحدثت انقلاباً (Bouleversement) في عالم التقنيات القديمة، ظهرت الصحف اليومية (Journaux quotidiens). وكانت أول صحيفة يومية هي الدايلي كورون (Daily courant) المطبوعة في لندن عام 1702. وهو العام نفسه الذي كانت فيه ذي تاتلر (The Tatler) تصدر ثلاث مرّات في الأسبوع بدءاً من سنة 1709 لتبدأ في 1 أيار، بإصدار يومي باسم (The spectator)، واستمرت في الصدور حتى العام 1714.

وفي الولايات المتحدة، كانت أول جريدة يومية تصدر في فيلادلفيا (Philadelphia) في العالم 1775 عشية حرب الاستقلال.

وفي فرنسا، يعتبر 1 ك2 1777 ميلاد صدور أول صحيفة يومية (Le journal de Paris)، وهي الوحيدة التي صدرت قبل الثورة، وكانت على الغرار الإنكليزي، تقدّم لقرائها مختلف المعلومات المهمة.

كتب ول وايزل ديورانت في قصة الحضارة، عن الفترة ما بين 1756 و1792، في انكلترا بلد الثورة الصناعية، والحريات السياسية، والحقوق، والتجارة، والمال، والسيطرة ما وراء البحار: "كانت الثورة الصناعية أهم عملية أساسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر في انكلترا، والصراع

السياسي أكثر الدرامات إثارة فيها. فقد جعل عمالقة الخطابة الإنكليزية شاتام، وبيرك، وفوكس، وشريدان، مجلس العموم مسرحاً لصراعات مريرة وخطيرة بين البرلمان والشعب، بين انكلترا وأميركا، وبين ضمير انكلترا وحكام الهند الإنكليز، وبين انكلترا والثورة الفرنسية" (ول وايزل ديورانت، قصة الحضارة، الإسلام والشرق الإسلامي، روسو والثورة، مج42، ص35).

كانت بريطانيا "الملكية الدستورية" آخذة بالترسّخ، في ظل تصاعد الحريات الجديدة. وبرزت الصحافة كجزء من الحركة الأدبية على المسرح. فبدءاً من العام 1768، بدأت الجرائد في طبع تقارير عن الخطب الكبرى التي تلقى في البرلمان، من دون ملاحقة.

وبعد معركة الصحافة ضد مجلس العموم، الذي اضطر لإطلاق عمدة لندن في العام 1771، الذي دافع عن حرية الطباعة، ورفض إلقاء القبض على الطابعين الذين اتهمهم أحد الكولونيلات بشتمه، طالباً الحبس لهما، انتشر الإعلام والفكر السياسي. "ووجدت طبقة رجال الأعمال، والمجتمع المفكّر، والراديكاليون الصاعدون، في الصحافة صوتاً ازداد جرأة وفعالية زيادة مضطردة، حتى قهر الملكية ذاتها. واستطاع الناخبون أن يعرفوا الآن إلى أي حدّ أحسن نوابهم الدفاع عنهم، وعن مصالحهم في وضع القوانين وإلغائها. لقد استمر الفساد لكنه تقلص، لأنه كان في الإمكان فضحه بجهر أكثر. وغدت الصحافة سلطة ثالثة قادرة أحياناً على حفظ التوازن بين الطبقات في الأمة أو في الأحزاب في البرلمان، وأصبح للرجال القادرين على شراء الصحف أو الهيمنة عليها قوة تعادل قوة الوزراء" (ديورانت، م، ن، ص74).

نخلص، من هذا العرض المكثّف إلى أنه في بيئة الرأسمالية الصناعية، في بيئة أوروبا المتقدمة، المجتمع الحديث القائم على أنقاض "النظام القديم" نظام القرون الوسطى، وعهد الإقطاعية، الملكية الفردية، ستظهر الصحافة كجزء من الحركة الأدبية، التنويرية، وتُرسم معالم المهنة الأكثر تأثيراً، والمتطورة دائماً مع أي تقدّم اقتصادي، أو صناعي أو

علمي، أو سياسي، يطال المجتمع المتجدّد بقوة الاكتشافات وتغيّر نمط الإنتاج، وحتى الحياة كلها.

مِن معالم الصحافة الحديثة:

1 - إنها صحافة قِلّة. فقلة من الناس، تمتلك الصحف، وتصدرها، وتنشئها، وتوجّه سياستها، مخاطبة الكثرة من الشعب. فهذه القلة هي التي تختار الأحداث الملائمة والتحليلات الخاصة بها بواسطة قلة من الأفراد من أجل كثرة من المستهلكين.

2 - الصحافة الحديثة هي صحافة سلطة، أي تأثير على الجمهور، وعلى السلطات القائمة معاً، من خلال، دعم نظام الحكم أو معارضته، ممارسة النقد، الحملات المناهضة أو المؤيدة.

3 - الصحافة الحديثة هي صحافة توازن داخل طبقات المجتمع وتجمعاته الطبيعية، والإنتاجية، ومصالحه المتقاربة، لا سيما في المجتمعات الليبرالية، فهي لا تكتفي بنقل الأخبار، وإطلاع الجمهور عليها وتحليلها، وتقدّم الآراء والتحليلات والتعليقات حولها، بل هي تحوّل الجمهور إلى قوة ذات تأثير في الخيارات الكبرى لهذه المجتمعات، عبر استطلاعات الرأي، ومراكز قياس أمزجة الرأي العام وتوجهاته.

4 - الصحافة الحديثة هي صناعة بسبب رؤوس الأموال والآلات والعقارات واستخدام الورق وغيره من المواد الأوليّة، الاستهلاكية. وهي من قطاعات الإنتاج القومي. " إلا أن شرائط استثمارها وأساليب إدارتها تعطي المؤسسة الصحفية حقيقة واضحة بالنسبة لخصخصة القطاعات الصناعية الأخرى. فبوصفها نتاجاً صناعياً ذا استهلاك كبير، فإن الجريدة أو الدورية هي بطبيعتها قابلة جداً للهلاك، وسرعة بيعها تفرض نسبة مئوية عالية من البقايا المستهلكة، وهي الأعداد غير المباعة التي تؤلف كتلة بدون قيمة تجارية عملية. والصحافة صناعة بدون مخزون" (الصحافة، بيار ألبير، ترجمة خيرالدين عبدالصمد، دمشق، 1979، ص29).

رابعاً: المهن الإعلامية من حيث وسائطها (Les moyens)

كما سبق القول، تنتمي التكنولوجيا إلى العالم الثالث، الذي هو المنتج الحضاري (بتعبير بوبر)، مادياً كان أو روحياً (فكرياً). فالتكنولوجيا تخلق مهنها والعاملين في هذه المهن، كما تخلق الاقتصاد المرتبط بها أيضاً، فضلاً عن منظومة كاملة من الفئات الاجتماعية، والقيم المهنية، والقواعد التنظيمية.

ومهن القطاع الإعلامي إجمالاً، لا يمكن الاقتراب من فهمها خارج سياق التطورات الاتصالية التي عرفها تاريخ الحضارة، منذ ما قبل عصر الكتابة (عصر الاتصال الشفهي)، النطق والكلام، حيث احتلت الذاكرة المكانة الأولى.

يحدّد علماء الإعلام وخبراء الاتصال العصور الإعلامية الكبرى بأربعة:

1 - عصر الكتابة: وفيه دوّن الإنسان معارفه بالكتابة على الورق.

2 - عصر الكتابة بالطباعة: وهو امتداد للعصر الأول، إذ أدى اختراع المطبعة الآلية في ألمانيا على يد غوتنبرغ عام 1453 إلى انتشار المعرفة عبر الصحافة والكتاب، ودخل الإنسان عصر الاتصال الجماهيري. وترتبت على هذا العصر نتائج دينية واجتماعية وثقافية وعلمية هائلة، قضت بالانتقال من العصور الوسطى إلى الأزمنة الحديثة وبتصفية المجتمع القديم والانتقال إلى المجتمع الحديث. ولعبت الصحافة المكتوبة دوراً هائلاً في تثبيت قيم الرأسمالية والليبرالية وحقوق الإنسان والحريات العامة، والتي كانت بدايتها مع الثورة الفرنسية.

3 - مع ظهور التلغراف عام 1835، بعد اكتشاف الكهرباء، تحققت ثورة الإعلام الثالثة، التي أدخلت الإعلام إلى بوابات العصر الإلكتروني (Stephons)، من خلال الراديو والتلفاز، فصار بإمكان الأميّ أن يتلقى الأخبار والمعلومات والمعرفة شفاهة.

4 - ظهور الثورة الرقمية أو المرحلة الرابعة من عصور الإعلام منذ التسعينات من القرن الماضي، حيث مكنت دمج (Mediaconvergence) وربط أجهزة الاتصال بعضها ببعض. وأتاح الدمج مزج الصورة والصوت واللون، بما أوصل إلى الإعلام الالكتروني المتعدد الوسائط (Multi-media) وبثه عبر الشبكة العنكبوتية (Word wide web)، ومكّنت الرقمنة (Digitalism) من حمل الصوت والصورة ورموز الاتصال إلى أي مكان في العالم تتوفر فيه أجهزة الاستقبال. وصار بالإمكان استخدام الإعلام الالكتروني المتبلور حول شبكة الأنترنت، مكتوباً أو مسموعاً أو مرئياً.

وثمّة من يفرّق بين مفهومين لوسائل الإعلام:

أ - الإعلام التقليدي (Traditional media) ويشمل الصحف المطبوعة والراديو والتلفزيون.

ب - الإعلام الجديد (New media) وتعتمد أنظمته الاتصالية والتي تعرف باسم أنظمة الاتصال بواسطة الحاسبات (CMC) (Computer mediated communication) وتضمن هذه الأنظمة الاتصالية الجديدة نقل المعلومات وتبادلها، والقدرة على التعبير النصي والحركي والصوتي، بالإضافة إلى ما توفره من قدرة على استرجاع البيانات من قواعد البيانات الفورية وتبادل الاتصال بين الأفراد. ويتم ذلك كله من خلال شبكات الاتصال التفاعلي (Telecommunication net work) وهي جزء من أنظمة تسمح بتبادل المعلومات بشكل تفاعلي بين مجموعة من المستخدمين في أماكن متعددة من خلال شبكة الأنترنت.

أدى الانتقال من عصر إلى عصر إلى اختلاف في خصائص الإعلام والاتصال وإلى دخول عناصر لم تكن دائماً متوافرة في هذه العصور، وتوليد خصائص لمهن لم تكن قائمة قبل ذلك:

- إن ولادة الصحافة الحديثة مع عصر الثورة الصناعية، وولادة الرأسمالية والاقتصاد الحر والبنوك، والمشاريع الصناعية والتجارية حوّل المطبوعة الصحفية إلى سلعة، وصار الذين ينتجون هذه الصحيفة أو المجلة أناساً مختصين، حرفيين، متفرغين للعمل في حقلها، ويخضعون لناموس الإنتاج والعمل كسواهم من أصحاب الحرف والمهن.
- إن تغيّر وسيلة الإعلام، مع الثورة التقنية التي كانت تحصل، ترتب عليه توسّع في المهن الإعلامية.
- إن المشترك بين كل وسائل الإعلام التقليدي والجديد هو نقل المعلومات. مع تغيّر في الكيفية والسرعة والمضمون، واختصار الأزمنة والأمكنة في عمليات اتصال تشبه البرق من حيث السرعة والآنية من حيث المشاهدة.

ومع توسّع وظائف الإعلام، عبر عصوره المختلفة، تقدّم الخبر على المقال، وتقدّم الإعلان على الخبر والمقال معاً.. وظهرت صناعة الإعلان في رحم وسائل الإعلام كإحدى أبرز الوظائف التسويقية للمنتجات والسلع والخدمات وكإحدى أبرز مصادر التمويل في معادلة بناء الشق الاقتصادي والتجاري للوسيلة الإعلامية.

فألحق بالإعلام التقليدي والجديد مهنة أخرى لا تقل أهمية عن سواها، هي مهنة العلاقات العامة، المرتبطة بالتسويق وتهيئة الرأي العام لقبول المنتجات الجديدة والدفاع عن المشاريع الصناعية والتجارية والخدماتية.

وعليه توسّعت مهن الإعلام مع كل فتح تقني أو علمي، أو كشف معرفي وصناعي لدرجة توسّعت فيه صناعة الإعلام، لتشكّل أوسع قطاع إنتاجي ومالي في المجتمعات المعاصرة.

معايير التصنيف:

إن معايير التصنيف التي يمكن أن تعتمد في تحديد المهن الإعلامية لا بد من أن تراعي عناصر زمنية وإنتاجية وصناعية، مع الإشارة إلى أن ثمة ما هو مشترك بين الإعلام التقليدي والإعلام الجديد أو الرقمي، لجهة العنصر البشري، وقطاعات الإنتاج والتسويق والحسابات المالية.

فالمهن الإعلامية يمكن تصنيفها على هذا النحو:

- ❖ مهن إنتاج إعلامي.
- ❖ مهن فنية.
- ❖ مهن تجارية مالية.

وهذا التصنيف يتقاطع في كل وسائل الإعلام التقليدي والجديد.

توصيف المهن الإعلامية والعاملين فيها:

أ - الصحافة المكتوبة أو الصحافة الورقية أو الإعلام المطبوع

اعتبرت السلطة الرابعة إلى جانب السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية. ويطلق عليها أيضاً اسم الإعلام الصحفي. وتسمى بالفرنسية (Presse). ويتّصف الإعلام الصحفي:

1 - بأنه مطبوع.
2 - على ورق.
3 - والمطبوعات تكون إما يومية، صباحية أو مسائية، أو أسبوعية، أو شهرية أو فصلية أو سنوية.
4 - تتسّع الصحافة المطبوعة أو الإعلام الصحفي للخبر والمقال والتحقيق والحوار والحديث والتحليلات والصورة والألوان.
5 - تعطي الصحافة المطبوعة القارئ حرية اختيار الوقت المناسب للقراءة، وإمكانية الاحتفاظ بالمادة الإعلامية.
6 - تحتاج إلى قارئ يُحسن القراءة والفهم.

7 - حجزت الصحافة المطبوعة مواقع لها على شبكة (Web). الأمر الذي يفترض أن تلحظ أية تشريعات حقوق استخدام الصحف وقراءتها على الشبكة، فضلاً عن تنظيم المادة الإعلانية.

8 - تخضع البنية التنظيمية والوظيفية لصحيفة متوسطة الحجم مثلاً إلى ترتيب لا يختلف كثيراً عن بنية المؤسسات التجارية والخدماتية والصناعية:

- الناشر: هو المسؤول العام عن نشاطات الصحيفة. يركز اهتمامه على متابعة التغيّرات المحيطة بالمهنة وحاجاتها ويسعى لتعزيز العلاقات العامة، والحفاظ على مكانة الصحيفة وماليتها.

يرتبط به وظيفياً، على سبيل المراجعة والاتصال مديرين تنفيذيين هما المدير العام ورئيس التحرير. ويمكن للمدير العام أن ينتدب مدراء آخرين كالمحاسب، ومدير التسويق، ومدير الأعمال أو مدير معالجة البيانات ومدير الإنتاج.

- رئيس التحرير أو المحرّر هو الذي يخضع لسلطته سائر العاملين في الأقسام التحريرية.

- مدير التحرير: يدير كل عمليات جمع الأخبار وإعادة تحريرها من خلال رؤساء الأفسام: من الأقسام الداخلية إلى العربية والدولية والتحقيقات والاقتصاد والرياضة والثقافة والبيئة والإعلام فضلاً عن محرري صفحات يوم الأحد والملاحق. يساعد مدير التحرير مدير تحرير مساعد يحل مكانه في الإجازات.

- فرض التحرير الالكتروني وظائف جديدة في غرفة التحرير هي وظائف محرري الأنظمة الذين يعملون على وضع الرموز والتصاميم الالكترونية أو تدريب العاملين، ومعالجة مشكلات نظام التحرير الالكتروني.

- المدير العام: يدير المدير العام العمليات الإدارية اليومية في الصحيفة باستثناء تحرير الأخبار. ينسق النشاطات بين الأقسام وينفذ السياسة التي يكون الناشر قد رسمها. يعاونه مدير التسويق ومدير الإعلان.

- مدير التسويق: وهذه تسمية مستجدة إذ كان يُعرف بمدير الإعلان وتتطلب هذه الوظيفة تعاوناً وثيقاً بين الأقسام المرتبطة بالمبيعات والأرباح. يرتبط به مدراء الإعلان والتوزيع والترويج ومحتوى الجريدة يؤثر على التوزيع.
- مدير الإعلان: مسؤول عن مبيعات الإعلان والخدمات الأخرى. يرتبط به مديرو المبيعات الإعلانية والمبوبة.
- مدير التوزيع: وظيفته مع القراء: اشتراكات، تسليم النسخ، إيصال الإعداد الفردية، ينسّق مع غرفة التحرير، كي لا يعترض تأخير المواد الإخبارية طباعة العدد.
- مدير معالجة البيانات: وظيفته تشغيل الأجهزة الكمبيوترية في غرف التحرير: تدريب العاملين والصيانة اليومية والتشغيل.
- مدير الإنتاج: ويشمل صفّ المواد، إنتاج الصفحات ولوحة الطباعة، طباعة الصحيفة، جمع الرزم في غرفة البريد.
- مدير الأعمال: يهتم مع فريقه بشأن الوظائف التكميلية كالمحاسبة وجداول الرواتب وسجلات العاملين والمشتريات.
- مدير الترويج: ينسّق مع غرفة التحرير وقسمي الإعلانات والتوزيع: وظائفه زيادة التوزيع وتوسيع قاعدة القراء، تعزيز الواردات الإعلانية، خلق صورة إيجابية للصحيفة. البيانات التي يجمعها مع فريقه تضم معلومات عن السوق، إحصائيات سكانية، وضع اقتصادي، فعالية الإعلانات، موقف القرّاء من محتوى الصحيفة.
- المصورون: احتلت الصورة مكانة مرموقة مع التحولات المتعلقة بالمنافسة بين وسائل الإعلام على اختلافها، لا سيما الإعلام التلفزيوني والفضائي، ومع تطور التصوير الرقمي والكاميرا الرقمية. لذا، لا يقل دور المصور الصحفي عن دور المحرر في تكوين مكانة الصحيفة المطبوعة.
- المخرجون: مع ظهور الماكيت في الصحيفة المكتوبة، بعد ازدياد عدد صفحاتها وموضوعاتها، ووظائفها، استحدث قسم للعاملين

في مجال الإخراج (Mise on page). فأضحى موظفون متخصصون يعملون في هذا المجال. ويسمى المخرج (Metteur en page) أو المختص بالإخراج (Spécialiste de la mise en page). وفي لبنان نقابة لهم باسم "نقابة مخرجي الصحافة اللبنانية".

ومع التطورات التقنية والتنافسية توسعت الأقسام الفنية في الصحف والدوريات المطبوعة من: قسم التنفيذ، قسم التصحيح، والإخراج، والتصوير والمسح الضوئي والمونتاج الطباعي والأنترنت والأرشيف وقسم برنامج المعلوماتية والصيانة... إلخ.

ويختلف توصيف الصحفي عن هؤلاء الموظفين الفنيين أو اللغويين. فالصحفي (Journaliste) بالفرنسية أو (Journalist, newman) بالإنكليزية، هو الشخص الذي يمارس نشاطه المهني في وسيلة أو عدّة وسائل إعلام (صحافة دورية، وكالة أنباء، راديو، تلفزيون...) وهو يجمع أو يعالج في عمله كلياً أو جزئياً الأخبار المتعلقة بالوقائع والأحداث الحالية ليقدمها إلى القارئ مقابل أجر.

ومع الصحافة الألكترونية، ظهر مصطلح جديد في أوروبا للصحفي هو (Journaliste en ligne) وتوصيفه أنه الصحفي الذي يتلقى أجرته أو يعمل بطريقة مستقلة على (Site web) لجمع الأخبار ووضعها من دون ورق. وهو صحفي وفقاً لتحديد الصحفيين المحترفين. وبرز دور الصحفي الألكتروني مع الألعاب الأولمبية في سيدني عام 2000 وفي الصحافة الألكترونية الرياضية.

والصحافة إحدى أبرز وسائل الإعلام العامة، إلى جانب الإذاعة والتلفزيون والإعلانات واللافتات والمهرجانات ومنتجات مؤسسات النشر العامة المعروضة على الجمهور.

وهي تتميز عن وسائل الإعلام الخاصة وهي ما تصدره مؤسسة كنشرة المؤسسة ومطبوعاتها وأفلامها ومعارضها وحفلاتها ومسارحها وإذاعاتها وتسمى صحافة المشاريع (Press d'entreprises).

وفي الصحافة المكتوبة يمكن تمييز الصحافة اليومية (Les quotidiens) والأسبوعية (Presse magazine d'information) وصحافة الرأي السياسي أو الديني، وصحافة النخبة، والصحافة المجانية التي توزّع بلا ثمن في الشارع أو على المنازل والمكاتب وفي محطات النقل والمؤسسات التجارية وهو يعتمد أساساً على الإعلانات، والصحافة الموازية أو مجموعة المنشورات التي توزع مع المؤسسة، وهناك الصحافة الشعبية التي تختلف عن صحافة النخبة والصحافة المتخصصة التي تعالج موضوعاً رئيسياً من قبل متخصصين، كالصحافة الرياضية، أو الأدبية، التصوير، الصحة، التربية.

ب - الإذاعة:

الإعلام المسموع، أو جريدة الإذاعة (Journal radio phonique). والراديو في مفهوم دالوز (Dalloz):

1 - مجموعة من الإجراءات والتقنيات التي تسمح بنقل، في اللحظة، قريب أو بعيد للأصوات مهما كانت، بعد تحليل عبر الترميز (Codage) وتحويل الموجة (Onde).
2 - مستقبل البرامج لراديو البث الصوتي.
3 - قطاع من النشاطات المتولدة عن البث الإذاعي الصوتي الذي يجعل منها وسيلة إعلام (Média) بكل معنى الكلمة، مع قواعد ووظائف خاصة بها من جهة التنظيم، والقوانين الاقتصادية الخاصة، واستعمالاتها وجمهورها من حيث إنتاج وتوزيع البرامج.

ويمكن تصنيف الإذاعات من حيث المكان والاختصاص إلى فئات:

1 - فئة تبث على نطاق وطني أو إقليمي أو عالمي، وتجمع إلى البرامج السياسية والمقابلات والتحقيقات البرامج الفنية والموسيقى والأغنيات والريبورتاجات وأسعار البورصة والعملات وحركات السفن والمرافئ.

وفي فرنسا يميّزون بين:

❖ راديو تجاري (Radio commerciale) وهو اسم يطلق على أجهزة البث الإذاعي التي لديها موجات منتقاة، وتكسب وجودها من خلال بيع مساحات إعلانية، وتشكل عائدات من الداعية التجارية فقط.

❖ راديو يختص بالجماعات (Radio communautaire) يعمل جماعياً وبطريقة الشركة، حيث أن برامجه ومنطقة انتشاره، تتميز بالبعد المحلي والدفاع عن المصالح الخاصة لمجموعة اجتماعية، دينية أو إثنية بشكل خاص.

وفي لبنان ينتشر هذا النوع من الإذاعات على نطاق واسع، فكل جماعة دينية أو إثنية بات لها أكثر من محطة إذاعية، بعضها يصنّف في الفئة الأولى وبعضها في الفئة الثانية.

❖ الراديو الدولي (Radio internationale) وهو الذي يلتقط المستمعون بثه وموجاته في قارتين على الأقل أو في القارات الخمس. وبدأ منذ العام 1920، عندما أرادت الدول الكبرى إيصال برامجها وتوجهاتها عبر العالم، مستفيدة من التطور التقني، ومن استخدام الموجات الصغيرة وصولاً إلى الأنترنت وموجات FM، مثل BBC وإذاعة المانيا الدولية، وإذاعة صوت أميركا وراديو موسكو والسويد.

❖ الراديو المحلي، الذي يبث في دائرة أو منطقة بعينها، ويهتم فقط بمصالح واحتياجات سكانها دون سواها.

❖ الراديو الجهوي، وهو تسمية أعطيت في فرنسا لهؤلاء الذين يسكنون في الضواحي على الأراضي الفرنسية... والذين يلتقطون موجات هذا النوع تجارياً. مثل محطة RTL في اللوكسمبورغ، وموناكو وهي تبث على FM.

❖ مع الثورة الاتصالية الرقمية، صار بالإمكان الكلام على (Radio communication) الإذاعة الاتصالية، عبر الهاتف الثابت أو الخلوي.

نظراً إلى التطورات التقنية التي عرفتها الإذاعة كوسيلة إعلام وتوعية

وترويج توسّع عدد العاملين فيها من صحافيين، ومدراء برامج، إلى مهندسين فنيين ومهندسي صوت، ومخرجين إذاعيين، ودائرة تجارية تعنى بالإعلانات، ودائرة تعنى بالترويج والعلاقات العامة.

ويرتكز وضع العاملين في الإذاعة خارج المحررين والمندوبين والمذيعين، حول العناصر التي تشكل العمل الإذاعي كالموسيقى والمؤثرات الصوتية والنغمات اللغوية، وأساليب الكلمة المنطوقة في: الرواية، الحوار، المحاضرة، المناقشة، التعليق، التمثيلية، المواد التسجيلية.

وفي لبنان جاء القانون 382 الصادر في 4 تشرين الثاني عام 1994، بمثابة أول تشريع واسع من نوعه للإعلام الإذاعي والتلفزيوني في عموم المنطقة. وصنفت المؤسسات الإذاعية وفقاً لما جاء في أربع فئات:

1 - فئة أولى: ويقصد بها المؤسسات الإذاعية التي تبث مختلف أنواع البرامج الإذاعية بما فيها الأخبار والبرامج السياسية والتي يغطي بثها كل المناطق اللبنانية.
2 - فئة ثانية: يسمح لها ببث مختلف أنواع البرامج، باستثناء الأخبار والبرامج السياسية وفي كل المناطق اللبنانية.
3 - فئة ثالثة: وهي من النوع المرمز التي لا يمكن متابعتها إلا من قبل مشتركين مجهزين تقنياً لهذا الغرض.
4 - فئة رابعة: وهي من نوع المؤسسات الإذاعية الدولية، وتعتمد أساليب البث بواسطة السواتل الصناعية ويتخطى بثها الأراضي اللبنانية.

وجاء هذا التصنيف وفقاً للبرامج، حيث يُقصد بالبرامج كل عناصر الخدمة التي توفرها المؤسسة، سواء على صعيد إنتاج البرامج الإذاعية التي توفرها للجمهور أو الذي ينقله كله بلا تغيير إلى فريق ثالث.

جـ - الإعلام المرئي أو التلفزيوني:

ظهر التلفزيون بعد الحرب العالمية الثانية، فدخل في سباق مع الصحف، لكنه لم يحل مكانها، إلا أنه ألحق ضرراً بصناعة السينما، كما أضرّ بالمجلات المصورة والترفيهية، لكنه وسّع من دائرة انتشار المجلات السياسية الراقية التي تضاعف توزيعها منذ ظهور التلفزيون.

يصل التلفزيون إلى جمهور عريض وينتفع منه حتى الأمّيون، وهو وسيلة سمعية، بصرية، يجتذب العين والأذن، وهو لا يبث الأحاديث فقط، بل أيضاً الضوضاء والموسيقى، والتموجات الصوتية، وهو لا يرسل الصورة فقط، بل الصورة المتحركة بما فيها حركة الجسم والتغيّرات التي تنعكس على الوجوه.

يعتمد التلفزيون على الإعلان بصورة رئيسية لمواجهة أعباء تكلفته، لذا تحتل الشركات والمؤسسات في العالم الرأسمالي، الليبرالي، موقعاً متقدماً كان أو في طور النمو جزءاً كبيراً ومتواصلاً من برامج الإعلان والدعاية في الإعلام التلفزيوني لبضائعها ومنتجاتها.

ويصف دالوز (Dalloz) دلالة التلفزيون بـ:

1 - مجموعة إجراءات وتقنيات مستخدمة في النقل الفوري للصورة الثابتة أو المتحركة بعد تحليلها، استناداً إلى ترميز (Codage) أو تحويلها إلى موجات.
2 - مستقبل البرامج الخاصة بالتلفزيون.
3 - قطاع من الأنشطة، المتولدة من التقنية ونموذج التنظيم والوظيفة واستخدامات النقل الآني للصور.

ويمكن تمييز فئات من التلفزيون:

❖ تلفزيون غب الطلب (Télévision sur demande): يرتكز على تأليف برامجه انطلاقاً من شبكة برامجه، تبدأ من "كاتالوغ" للبث الرقمي على قناة أو عدّة قنوات.. وذلك عبر اختيار ساعة البث للبرامج وفقاً للرغبة الشخصية، ويمكن أن يرتبط بالأنترنت.

❖ التلفز ـن الخاص بالجماعات: وهو عبارة عن قناة محلية، تهمّ ساحة معينة، ويرتكز على الحياة المحلية للأفراد أو جماعة في ناحية الفوائد المتعلقة بالنظام الاجتماعي أو الثقافي.

❖ التلفزيون الجماهيري (Télévision de masse): وهي تدل على القنوات العمومية التي تتناول عموم الشعب على المستوى الوطني، بصرف النظر عن تشابه المشاهدين.

❖ التلفزيون المدرسي المخصص للأطفال والتلاميذ والذي يعنى بتنمية معارف هؤلاء، بدايته كانت في العام 1980 وازدهر في أوروبا، ثم ازدهر مع الكابل والساتيلايت.

❖ وهناك التلفزيون المحلي، الذي يغطي مدينة واحدة، ثم هناك التلفزيون الرقمي من خلال قناة هارتز بال.

❖ وهناك تلفزيون الموضوعات، الذي ينظر إليه بعكس التلفزيون العالم، وهو يوفر محتوى توجيهياً حول مواضيع خاصة، وهي مخصصة لموسيقى أو السينما أو الرياضة أو الأخبار... إلخ.

❖ Telnet (Internet): هو اتفاق بروتوكول يسمح بالاتصال مباشرة عبر الكمبيوتر المتصل بشبكة الأنترنت.

ومع ثورة الاتصالات الهائلة تطوّر البث التلفزيوني، فصار للمحطات قنوات أرضية وفضائية، والقناة بالمعنى القانوني هي هامش التردد الذي يحتله جهاز بث تلفزيوني، من أجل البث التلفزيوني.

والمعروف أنه مع صدور القانون 382 يمكن القول أن الإعلام المرئي والمسموع دخل دائرة التشريع، وهو أول تشريع من نوعه في المنطقة العربية، وشكّل هذا القانون المرجعية القانونية التي تسمح بإعطاء تراخيص للمؤسسات العاملة في البلاد.

د - الإعلام السينمائي:

عندما تلعب الصورة دوراً محركاً للأفراد مضافاً إليها الحركة والصوت؛ فالألوان تتحوّل إلى وسيلة إعلامية مهمة تنقل للجمهور المعلومات والموضوعات والآراء.

ويجمع الإعلام التلفزيوني بين المعلومة والتسلية والتعلم من خلال الصور المتحركة Cartoon التي تناسب الأطفال والشرائح المصوّرة Slides مع المؤثرات الصوتية المناسبة، وتمكن رجال الإعلام من الاستفادة من الحركة البطيئة للعرض Slow motion للتوضيح والدراسة.

وتعتبر السينما واحدة من أبرز وسائل الاتصال السمعي والبصري والجماهيري، فضلاً عن كونها فناً من الفنون العصرية المتطورة والحيوية. وهذا التطور ارتبط بالتقدم التكنولوجي وثورة الاتصالات في هذا العصر.

ومن المؤكد أن حرية السينما تلحق بحرية الصحافة والإذاعة والتلفزيون بعد تحرير قطاع المرئي والمسموع من أن يكون قطاعاً رسمياً، وإن كانت السينما حرّة نسبياً، حيث يخضع عرض الأفلام واختيارها إلى رقابة مسبقة.

ويمكن تقسيم العاملين في الإعلام المرئي والمسموع إلى صحفيين ولغويين وفنيين وموسيقيين وتقنيين في الصوت والصورة.

أ - فئة الصحافيين والإعلاميين:

1 - رئيس تحرير النشرة.

2 - مدير تحرير النشرة.

3 - مدير أخبار: مهمته تشبه مهمة مدير الأخبار في الصحيفة المطبوعة.

4 - مدير برامج: ينتقي ويشرف ويدير فريق إعداد البرامج السياسية وغيرها، وثمة وسائل تصنّف البرامج إلى سياسية وترفيهية ودينية وأخلاقية.

5 - المراسل أو المندوب أو الريبورتر Reporter.

6 - المحررون الذين يعملون على إعداد الأخبار والتقارير.

7 - هناك أيضاً الخبراء والباحثون والمعلقون والمخترعون.

8 - المجموعات اللغوية التي تضبط اللغة وقواعد ولفظاً.

هـ - الإعلام الألكتروني أو الصحافة الألكترونية:

أضيف الأنترنت إلى الصحافة المكتوبة (Press) والراديو "الصحافة المسموعة" والتلفزيون "الصحافة المرئية" والتلفون كوسيلة من وسائل الاتصال بين الأفراد، ولنقل محتوى أو بث محتوى الرسائل المتبادلة بينهم. والإعلام الجديد (New media) هو وليد عصر المعلومات وثورة الاتصالات والمجتمع الرقمي (Digital)، منذ أن حدثت انطلاقة الانترنت بين أيلول 1993 وآذار 1994، تحولت الشبكة من البحث العلمي إلى شبكة متاحة للجميع. وسيظهر عالم جديد من الاتصال بمفاهيم جديدة بالكامل كالشبكة وWeb وSite، والبيانات، والتخزين والأقراص المدمجة C.D. ROM، وكثيراً ما يتم الآن تنفيذ الصحف والمجلات في شكل الكتروني، ثم تطبع على الورق كوسيلة ملائمة للتوزيع، وتم تخزين المعلومات تخزيناً دائماً أو لفترة في قواعد بيانات أجهزة الكمبيوتر، تلك البنوك العملاقة للبيانات الصحفية المتاحة دائماً من خلال الخدمات مباشرة الاتصال بالكمبيوتر (Online) هو صفة لأجهزة أو نظام أو عمليات، تكون تحت تحكم وحدة التشغيل المركزية ومتصلة بها، كما تتحوّل الصور الفوتوغرافية والأفلام السينمائية والتلفزيونية إلى معلومات رقمية فضلاً عن إمكان مسح وتخزين مكتبات كاملة مطبوعة كبيانات الكترونية على أقراص مدمجة.

ويمكن أن نميّز بين:

1 - إحداث موقع للصحيفة الورقية على الشبكة العنكبوتية.

2 - أو إحداث مواقع إعلامية على الشبكة مستقلة، ولا تطبع على الورق للتوزيع.

وإن كان بإمكان الصحيفة أن تحرّر أخبارها أو تكتب مقالات على موقع الكتروني، فإن أحدهم لن يدع صحفياً جاهلاً بالثقافة يخرج أو يدير إنتاج مواقع ضخمة على الشبكة، فكل من يتولى هذه المهمة عليه أن يعرف:

1 - كيف تعمل الكمبيوترات والمستعرضات (Browsers).

2 - وملفات الصورة والصوت واللون وقواعد البيانات.

3 - ويستدعي استحداث مواقع الويب (Webes) إلماماً بالنص والصورة والعناوين وقواعد البيانات القابلة للبحث والمحفوظات، الوصلات "الروابط" الداخلية والخارجية، الرسوم البيانية "التفاعلية أو الساكنة" الصوتيات والمرئيات، لوحات الملاحظات، وغرف المحادثة.

ويجب على كل موقع إخباري يتمتع بالمصداقية أن يضم وصلة بريد ألكتروني للأقسام الرئيسية (التحرير، الأخبار، الرياضة، التجارة والأعمال، والإعلانات...).

وقد شهدت الأعوام 2008 و2009 و2010 تحوّلات خطيرة في قراءة الصحيفة الورقية وحتى الألكترونية لصالح الوسائط الإعلامية الجديدة كالتلفزيون والمواقع التفاعلية مثل شبكات الدردشة والتواصل، وصولاً إلى وسائط الإعلان الجديد كالمدوّنات على سبيل المثال.

وكان من نتائج ذلك تراجع مردود الإعلانات في الصحف، لا سيما مع عدم نمو سوق الإعلانات على الشبكة الإلكترونية، وتزايد البحث في فرض رسوم مالية على زائري المواقع الألكترونية.

و - الإعلان أو الإعلام الإعلاني:

ينشر الإعلام المعاصر في الصحف والتلفزيون، والإذاعة، والسينما، والكتب، والنشرات، والملصقات المصورة، والمسارح، والرسائل التجارية، والملاعب الرياضية، والمدارس، والأعمدة الكهربائية،

والحفلات، وزوايا الشوارع والجدران، والأنترنت، وعشرات الوسائل الأخرى من معارض وفنادق، وندوات وغايته تبليغ سياسته للجمهور. والإعلان حسب جمعية التسويق الأميركية: هو "أي شكل من أشكال الجهود غير الشخصية، المدفوعة الأجر، لتقديم وترويج الأفكار والسلع والخدمات بواسطة معلن محدد ومعروف".

والإعلان Publicité أو Advertising والإنكليزية هو في الأغلب، دعوة تجارية، تركز على بيع شيء معلوم، ويهدف أحياناً إلى إعطاء صورة كماركة ملائمة للجمهور للترويج لها (Une image de marque). والإعلان يبيع سلعاً أو خدمات أو أفكار.

وتتضافر جهود عدد من العاملين في هذا القطاع فهناك:

1 - المعلنون (Les annonceurs) الذين يعمّمون طلب الإعلان ويدعون لنشر الرسائل.
2 - وكالات الإعلان التي تشكّل دور الوسيط بين الإعلام والمُعلِن، إضافة إلى الشركات الإعلانية.
3 - منتجو الأفلام (Producteurs de films) والأفيشات (Affiches) والبقع الضوئية (Spots).

ويضاف إلى الإعلان المزيج التسويقي ويشمل:

1 - السلعة (المنتج) (Product).
2 - التوزيع المادي (المكان) (Physical Distribution).
3 - السعر (Prices).
4 - الترويج (Promotion).

ويمكن الإشارة إلى عدد من المفاهيم المستخدمة في قطاع الإعلان:

1 - حملة إعلانية (Advertising compaigne).
2 - مدير الإعلان (Advertising manager).
3 - مادة إعلانية (Advertising materiel).
4 - نص إعلاني (Texte publicitaire).

5 - وكالة إعلانية (Advertising agency).

6 - وسيلة إعلانية (Advertising media).

7 - مشروعات إعلانية (Advertising Schemes).

8 - برنامج إعلاني (Advertising program).

9 - إعلان كبير على الحائط (Affiche).

10 - وكيل (Agent).

11 - زبون (Client).

12 - الإعلان التجاري (Trade Advertising).

وهناك أيضاً (Adverser)، هو الذي يستعمل الأنترنت في ترويج الإعلان، فهو بالفرنسية (Serveur de publicité) وهو يؤمن برمجة وإدارة الرسائل الإعلانية والصفحات الإعلانية على (Web) بما فيها البيانات الإحصائية والمواقع الترويجية (Sites Supports) ومع تطور الإعلان التلفزيوني أو الفضائي توسّع حقل التوصيف والمفاهيم المستخدمة في الإعلان (Reclame) وهو الدعوة للتعريف بمنتوج وترغيب باقتنائه.

ثمة هياكل تنظيمية (Organigrammes) للإعلان التلفزيوني، ووسائل إجرائية (Manuels de procédures) وترأس الشروط العامة لبيع مساحات الإعلان، وميثاق الشروط التجارية للقناة.

وهناك أيضاً أنماط معتمدة في الإعلان التلفزيوني:

1 - المقايضة (Bartering): برامج تبثها القناة مقابل مساحات إعلانية مدفوعة مثل بث حقوق كأس العالم لكرة القدم - البطولة الأوروبية - دورات التنس.

2 - الدعاية/التبني: كشكل من أشكال التمويل المسبق (Pre-financement) وهو يطلق على كل إسهام ما، مؤسسة أو ذات معنوية عمومية أو خاصة في تمويل برامج إذاعية أو تلفزيونية بقصد النهوض باسمها وصورتها وإنجازاتها.

3 - الاستثمار (Sponsoring): وهو ارتباط برنامج إذاعي أو تلفزيوني

بأكثر من مشهد واحد، في صورة ومضات إشارية قبل جينيريك البداية والنهاية للبرنامج وبعده.

4 - الإعلان الكلاسيكي (Reclame): مساحة تلفزيونية تفتتح بكلمة إعلان أو استثمار وتختتم بها، وهي عبارة عن عرض سمعي - بصري متّصل بها، وهو تطوّر من الدعوة البسيطة إلى حقبة السيناريو والبحث (Story Board) وفي هذا الشكل تُهيمن وكالات الإعلان على العلاقة مع التلفزيون.

ز - العلاقات العامة:

تختلف العلاقات العامة عن أنشطة شبيهة بها كالإعلان والإعلام والترويج والدعاية. فالعلاقات العامة تستخدم الإعلام كوسيلة اتصالية. والفرق بين العلاقات العامة والإعلان هو أن الثاني يُعرّف الجمهور بالسلع والخدمات في وسائل النشر المختلفة مقابل ثمن وبتحكم المعلن في مكان الإعلان وزمانه.

أما الدعاية فقد تتضمن معلومات كاذبة، خلافاً لما تتوخ دائرة العلاقات العامة في نشره من معلومات صحيحة كأسس للثقة مع الجمهور. وللإضاءة على مفهوم العلاقات العامة وفئات العاملين في هذا القطاع. نورد ثلاثة تعاريف ذات دلالة، لنصل إلى توصيف مشترك متعارف عليه في الإعلام بمختلف وسائطه.

1 - تعريف معهد العلاقات العامة البريطاني: العلاقات العامة جهود إدارية مرسومة ومستمرة تهدف إلى إقامة وتدعيم تفاهم تبادلي بين المنشأة وجمهورها.

2 - تعريف مجلة العلاقات العامة الأميركية: وضعت مجلة العلاقات العامة الأميركية (Public relation news) التعريف التالي: العلاقات العامة هي الوظيفة الإدارية المتعلقة بتقييم ميول الجمهور وتحديد سياسات وإجراءات الفرد أو المنظمة مع مصلحة الجمهور وتنفيذ برنامج عملي للحصول على فهم وقبول الجمهور.

3 - التعريف الفرنسي الرسمي: نشرت الحكومة الفرنسية عام 1964 تعريفاً في الجريدة الرسمية للعلاقات العامة جاء فيه: تمثل واجبات ممارس العلاقات العامة، سواء أكان من العاملين بالمنشأة أم مستشارية خارجية مستقلة، أداء النصح والمشورة إلى المنشأة وتوظيف خدماته لخلق علاقات طيبة قائمة على رأس الثقة المتبادلة مع الجماهير واستمرارها أو تزويد الجمهور بالمعلومات الخاصة بإنجازاتها (المنشأة) وبكل المتغيّرات المؤثرة في نشاطاتها.

ويجب أن تكون المعلومات عن المنشأة صريحة المصدر وموضوعية تماماً بعيدة عن الدعاية والإعلان، وأن يتم التعاون الوثيق بين ممارس العلاقات العامة والمسؤول الصحفي بالمنشأة، بحكم العلاقات الوثيقة مع وسائل الإعلام.

مع تطوّر المنشآت والمؤسسات الصناعية والتجارية والمالية الخاصة والرسمية، أضيف قسم العلاقات العامة إلى البنى التنظيمية الإدارية للمؤسسات وصار جزءاً من الإدارة وقسماً يُحسب له الحساب، وتُرصد له الميزانيات، ويُوظف فيه العدد المناسب من الأشخاص الكفوئين في الإدارة والإعلام، وصار قسم العلاقات العامة من الأقسام الرئيسية في كليات ومعاهد الصحافة حول العالم.

ولبنان من الدول التي تولي اهتماماً بالعلاقات العامة تدريباً وتوظيفاً، إلا أنه لم يحدث إنشاء جمعية للعلاقات العامة، تضم الموظفين العاملين في هذا القطاع.

وترتبط إدارة العلاقات العامة برئيس مجلس إدارة الشركة، ويحضر المسؤول عنها الاجتماعات العائدة لمجلس الإدارة، ويمكن أن تتكون من أقسام عدّة مثل:

1 - أقسام العلاقات الخارجية.

2 - قسم العلاقات الداخلية والنادي.

3 - أقسام المعارض والاحتفالات.

ويتوزع قسم العلاقات الخارجية إلى:

1 - فرع الاتصال:

❖ ويهتم بتوثيق العلاقة بين الشركة ورجال الصحافة المحلية والأجنبية.

❖ الاطلاع على جميع ما يصدر في وسائل الإعلام من صحف ومجلات وأنترنت وإعداد سجل بها، وتزويد الشركة بها.

❖ الإعداد للمؤتمرات الصحفية.

2 - فرع النشر:

إصدار الكتيبات والإشراف على ما يتقرر نشره أو تحميله على شبكة الأنترنت ومراقبة ما ينشر.

3 - فرع التحرير:

صياغة البيانات الخاصة بالنشر في الصحف أو الأنترنت، ترجمة كل ما يتعلق بالعلاقات العامة وتحرير الأحاديث وصياغة الإعلانات التي يقوم بإعدادها فرع النشر.

4 - فرع الإعلان:

أ - إعداد الإعلانات الم

ب - لوب نشرها وتعميمها.

ت - حجز المساحة اللازمة للإعلان.

ث - إعطاء إذن النشر للصحف أو البث للإذاعة والتلفزيون أو التحميل للأنترنت.

5 - فرع السينما:

أ - إعداد الإفلام الدعائية الخاصة بالشركة.

ب - إعداد الشرائح المصورة.

ت - إعداد الإفلام للتلفزيون.

توصيف بعض الوظائف

1 - مدير العلاقات العامة

وصف الوظيفة: الإشراف على تنظيم وإعداد وسائل الدعاة والإعلان والمعارض والديكور لمنتجات الشركة وترتيب الأماكن المعدّة للدورات والزيارات والمؤتمرات بالشركة.

2 - رئيس قسم العلاقات الخارجية

وصف الوظيفة: يتبع لمدير إدارة العلاقات العامة ورئيس قسم المعارض. اختصاصه: تنظيم وإعداد وسائل الدعاية والإعداد للمعارض والديكور لمنتجات الشركة وترتيب الندوات والزيارات والمؤتمرات بالشركة.

3 - أخصائي علاقات عامة

وصف الوظيفة: تنفيذ سياسة الشركة في مجال الاتصالات والدعاية والنشر لمنتجات الشركة، ومتابعة الندوات والزيارات والمؤتمرات بالشركة.

4 - رئيس أقسام المعارض والاحتفالات

وصف الوظيفة: يختص بتنفيذ كافة الإجراءات والقواعد الخاصة بالمعارض الداخلية والاحتفالات التي تقيمها أو تشترك فيها الشركة. يتبع مدير إدارة العلاقات الداخلية.

5 - الملحق الإعلامي (Attache de presse):

هو الذي يزوّد وسائل الإعلام بأخبار المؤسسات أو الشركات ذات الصبغة العمومية، خاصة كانت أم عامة.

ح - دور النشر والمكتبات:

حددت المادة 8 من قانون المطبوعات الصادر عام 1964 وتعديلاته حتى العام 1994 المكتبة بأنها المؤسسة التي تتولى بيع المطبوعات والمؤلفات في مكان ما، وحددت مفهوم دار النشر بأنها المؤسسة التي تتولى إعداد المطبوعات وإخراجها والإتجار بها.

لكن مع التطور التقني، وصولاً إلى عصر الأنترنت الراهن، فقد تطوّر مفهوم المكتبة إلى المكتبة الألكترونية أيضاً التي تُحفظ بها أشرطة وكاسيتات وDVD وCD، يمكن أن تُطبع مباشرة بواسطة آلة طابعة يزودها بها جهاز الكمبيوتر.

أما العاملون في المكتبات، فهم في الأغلب من خريجي الجامعات وكليات الإعلام ويرتبطون مباشرة بصاحب المكتبة، ويخضعون لدوام عمل ينظمه قانون العمل اللبناني، ولا توجد تنظيمات نقابية أو جمعيات للعاملين في حقل المكتبات في لبنان.

ومن الضروري أن يشمل توصيف العاملين في المكتبات أولئك الموظفين في المكتبات العامة أو ترتبط بمؤسسات تربوية وتعليمية كبرى، وألا يقتصر فقط على موظفي المكتبات التجارية، كما وصفها قانون المطبوعات اللبناني الحالي.

أما العاملون في دور النشر، فبالاضافة إلى صاحب الدار فرداً كان أو شركة، هناك مدير مسؤول، وكتّاب، ومصححون وعمّال طباعة وصفّ وتنضيد وإخراج، فضلاً عن دائرة التوزيع والمعارض والمحاسبة.

ولا توجد في لبنان جمعيات للعاملين في دور النشر، باستثناء اتحاد

الناشرين اللبنانيين الذي يمثل أصحاب دور النشر. وقد تأسست نقابة اتحاد الناشرين عام 1957، وهي عضو في اتحاد الناشرين العرب واتحاد الناشرين الدوليين، وتتوزع المقاعد فيها على أساس طائفي، وهناك أيضاً "تجمع الناشرين في لبنان".

أما عمّال الطباعة فهناك نقابة لهم تمثلهم، مع الإشارة إلى وجود ما بين 408 و700 مطبعة، لا يتجاوز عدد المطابع الكبرى في لبنان 25 مطبعة حديثة ومتجددة التجهيزات التقنية والفنية.

بالنسبة للمكتبات، تشير إحصاءات نقابة أصحاب المكتبات إلى وجود 250 مكتبة مسجلة في النقابة، إلا أن معطيات أخرى تشير فقط إلى 120 مكتبة. وهناك نقابة مستوردي الكتب أيضاً.

ط - المصورون:

مع أن المادة 11 من قانون المطبوعات اللبناني العمول به حالياً مع تعديلاته تدرج الصورة والرسوم في إطار العمل الصحفي، فإن القانون لا يذهب إلى توصيف المصور الصحفي، فضلاً عن افتقاده إلى التوصيف المصوّر التلفزيوني (Cameraman).

أما المصور الصحفي (Le photographe de presse)، فهو الذي يجمع الصور عن الأحداث والموضوعات والتحقيقات الصحفية لتعزيز صدقية الخبر والإعلام، وهو محترف، يعمل في مؤسسة صحفية أو وكالات أنباء التي تحرص على تزويد الصحف بالصور كفرانس برس (A.F.P) ورويترز (Reuters) والأسوشيتدبرس (A.P.) وغيرها، أو يعمل مصوراً صحفياً مستقلاً.

وهناك مجلات ودوريات تسمي بالإنكليزية (Pictures)، حيث تلعب الصورة دوراً أساسياً في الإعلام في منافسة التلفزيون.

أما الكاميرا مان (Camera man)، فهو اسم غالباً ما يُستخدم ليدل على الكادر الذي يعزز الريبورتاج بالصور الحيّة المرتبطة بالموضوع.

وفي لبنان، تشكلت نقابة لمصوري الصحافة اللبنانية، وهي تعمل إلى جانب نقابتي الصحافة والمحررين، ولكنها غير مشمولة باتحاد الصحافة اللبنانية.

ك - الإخراج (Mise en page):

بأبسط تحديداته هو تقسيم الصفحة بين مادة صحفية، خبر، قصة إخبارية، تحقيق، إعلان وصورة. أي توزيع القصص والموضوعات والإعلانات على صفحة الجريدة أو المجلة بشكل جذاب. والإخراج الصحفي انتقل من الشكل الطوبوغرافي (الطباعي - التصويري) إلى الشكل الألكتروني.

ويسمى الإخراج التقليدي برسم الماكيت. وهناك الإخراج الألكتروني، كما سبقت الإشارة إلى وضع الصفحة على شاشة (Ordinateur) "الحاسوب" الكومبيوتر بداياته في العام 1980، حيث يوضع النص، ثم الصور بطريقة رقمية، وتسمى هذه العملية في فرنسا بـ(MPE).

ويرتبط المونتاج بالإخراج، كذلك عملية التصوير والسحب، كما رأينا في الصحافة المطبوعة.

وهناك الإخراج الإذاعي، الذي يقضي بإدخال الموسيقى، والمقاطع والكتشات مع تعليق أو نصوص، فضلاً عن البرامج الإعلانية الصوتية.

وفي التلفزيون، يوجد أيضاً الإخراج التلفزيوني، الذي ينسّق بين الصورة والكلمة أو اللوك والموسيقى وسواها وارتباط ذلك بفترات البث والحصة الإعلانية التي تقاس بالثواني والدقائق.

وتشكلت نقابة لمخرجي الصحافة اللبنانية، من دون أن تعني اعتبار المخرجين كالصحافيين، علماً أن الإخراج يشكل عاملاً حاسماً في العمل الصحفي.

ل - شركات التوزيع:

التوزيع، في أبسط توصيف له يعني إيصال المطبوعة (صحيفة، دورية، كتاب، نشرة، منشور...) إلى القرّاء عبر وسيلة أو عدة وسائل، وهي عبارة عن عملية تتم بثلاث مراحل:

1 - مبيع.

2 - تسليم.

3 - قبض.

والتوزيع إما يكون عن طريق الاشتراك، أو المبيع عبر الباعة أو الأكشاك والمكتبات، أو من خلال البريد بالنسبة للصحف الصغيرة.

ينشأ في كل صحيفة قسم للتوزيع برئاسة مدير توزيع يكون مسؤولاً أمام المدير العام أو الناشر، يكون له عدّة مساعدين، يتولون إدارة التوزيع المنزلي والمبيع بالمفرق والشحن وغرفة البريد.

توصيف وظيفة مدير التوزيع: تبدأ مهمته حين تصل الصحف من المطبعة، يشرف على مديري المناطق (هم موظفون موزعون منزليون)، ويشرف على غرفة البريد، حيث يرزم موظفون الصحف ويحضرونها للنقل، وعليه العمل مع سائر أقسام الصحيفة للتنسيق، وعليه أن يتبادل المعلومات مع المحرر حول ما يريه الزبون (القارئ) وما سيشتريه (جوهر التسويق).

وفي لبنان، لا يزيد عدد شركات التوزيع العاملة عن خمس شركات، ثلاث منها لتوزيع المطبوعات على اختلافها (صحف، مجلات، منشورات..) والكتب المدرسية محلياً وعربياً وخارجياً.

م - عمال الطباعة:

على الرغم من التطوّر الذي عرفته الطباعة من اليدوي إلى الأوفست والماكنتوش، والناشر المكتبي، وصولاً إلى النشر الألكتروني (Electronic publishing) وتصميم الصفحات على شبكات الكمبيوتر (Web desighn)،

فإن الطباعة لم تخرج عن اعتبار رسم الأحرف والصور والإعلانات بالحبر على الورق، وهو ما يُعرف بالطبوغرافيا أو (Thypographe) وينقسم العاملون إلى عامل مختص (Imprimeur) أو تقني في عمليات الطباعة.

وفي لبنان تطوّر عدد العاملين في مهنة الطباعة، مع تطوّر الطابعة نفسها منذ بدايات القرن العشرين، ويختلف عدد المطابع وأحجامها حسب مصدر المعلومات. فوزارة الصناعة تشير إلى 408 مطابع، و509 بحسب المكتب الوطني للاستخدام، و700 بحسب نقابة الطباعة، و1000 مطبعة بحسب بعض أصحاب المطابع... لكن الكبرى لا يتجاوز عددها الـ25 مطبعة. ولا يتجاوز عدد العاملين في المطبعة الصغرى أو المتوسطة 10 عمال.

وكما أشرنا هناك نقابة لعمال المطابع، والعمل النقابي في هذا القطاع عريق، وهو مرتبط بنشاطها ونمو الحركة النقابية في لبنان، وعمال الطباعة ينتسبون إلى الاتحاد العمالي العام. ويخضعون في نظام العمل إلى قانون العمل اللبناني، وبالنسبة لنظام التقديمات يخضعون للضمان الاجتماعي.

ن - مراكز النشر والدراسات:

لا يوجد في لبنان نظام أو قانون ينظّم عمل مراكز الدراسات والنشر الإعلامي، بالرغم من أن أي مركز دراسات يحتاج إلى إعلاميين متخصصين ومترجمين وموثقين ومختصي مكتبة وموزعين... وإن كان معظمها يعمل في أطر إعداد دراسات إحصائية متخصصة أو إصدار منشورات صادرة باسمها أو تعمل على إعداد دراسات للغير ووفق الطلب ومنها الخاص ومنها العام، ونظم عملها يشبه إلى حد كبير عمل أي مؤسسة إعلامية.

خامساً: علم الإعلام أو علوم الإعلام

عندما تنشأ المهن، تنشأ معها هيكلياتها وبناها ونظمها والفئات المجتمعية المرتبطة بها، أي الوظائف. وتنشأ عنها أيضاً ظواهر، سرعان ما تتحوّل إلى مواضيع بحث ودراسة، أي إلى علم.

وأظهرت اللمحة التي قدمناها حول نشأة الإعلام كمهنة من الصحافة إلى شبكات التواصل والمواقع الخاصة الحاجة إلى دراسة الإعلام كعلم مثل سائر العلوم.

وإذا كان علم الاجتماع يدرس الظواهر الاجتماعية، فإن علم الإعلام يدرس الظواهر الاتصالية أو الإعلامية.

ويتحدّد العلم بموضوعه ومسائله، وأصوله وقواعده ومسلماته ونظرياته.

وللتفريق بين إطلاق علم الإعلام أو علوم الإعلام، ننطلق إلى المسائل.

فموضوع كل علم يبحث فيه عن عوارضه الذاتية كبطن الإنسان لعلم الطب، فإنه يبحث فيه عن أحواله من حيث الصحة والمرض. وكالكلمات لعلم النحو، فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء.

وعليه، نرى أن موضوع علم الإعلام هو البحث في المهن الإعلامية، لجهة ما يلحق بها من وسائل، وتقنيات، ومرتكزات، وأدوات نقل المعلومة أو الرسالة من مرسل إلى متلقٍ، وتأثيرات.

ومن هذه الزاوية، أي زاوية الموضوع يمكن أن نتحدث عن علم الإعلام.

ومن زاوية المسائل، وهي المطالب التي يُبرهن عليها في العلم، وعَرض ذلك العلم معرفتها، يمكن أن نتحدث عن علوم الإعلام.

وإذا استقر الرأي، عندنا، على توصيف علم الإعلام بأنه علم وظائف المهن الإعلامية، فهو لم يعد، بهذا المعنى، علماً واحداً، بل علوماً، له مسائله، ومشكلاته، ومواضيعه، ومطالبه، وأصوله، وقواعده، وحججه، ونظرياته.

والإعلام، إلى ذلك، علم أو علوم تبحث في المعرفة الحاصلة بواسطة

وسيلة بصرية أو سمعية، أو السمع والبصر، وفقاً للآية: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2]. فالسمع والبصر خلقهما الله لاختبار الإنسان حين يقدر على القيام بأوامر الله ونواهيه (التكاليف). والفعل الناجم عن السمع والبصر طبيعي، تكويني مثلهما.

ومن هذه الوجهة، تصبح الإذن أو العين، كعضوين طبيعيين أو آلتين جسمانيتين، هما الوسيلتان الطبيعيتان للاتصال وللإعلام، أو اقتناص المعلومات، والعمل بموجبها لحفظ النوع الحيوي، حيواناً كان أو إنساناً، فرداً كان أو جماعة، فلا إعلام بلا اتصال، ولا علائق بين أفراد الأنواع وزمرها بلا اتصال، وهذا هو معنى التفاعل بين الأفراد والجماعات.

من الناحية التاريخية، الاتصال (Communication) قديم قِدَم الإنسان. والاتصال هو إجراء علاقة بين فرد وفرد، أو بين فرد وأفراد، وهو تبادل الرسائل في عملية التفاعل الاجتماعي.

والاتصال قد يكون عبارة عن حركة أو إشارة أو إيماءة أو رسالة، تصدر من مُرسِل إلى مُرسَل إليه، وتحمل معنى. وتفيد الحاجة إلى معرفة أو تفيد سلوكاً. مثلاً: إشارة السير تفيد معنى السماح بالمرور أو عدمه، ويترتب عليها فعل السير أو العبور أو التوقف، حتى أن الابتسامة تعدّ علامة من علامات الاتصال، والنظرة علامة من علامات الاتصال، والاتصال يكون بالحركة، أو الصوت، أو الكلمة.

لكن ما الذي اختلف في العصر الحديث؟

تعدّ الصحافة ووسائل الإعلام من أهم وسائل الاتصال في المجتمع الحديث. المجتمع الذي كانت فيه الكلمة المكتوبة هي أول وسيلة من وسائل الاتصال، وخلال الحرب العالمية الأولى ظهر الراديو وكان اتصال بالكلمة المسموعة، أي بالصوت. ثم خلال الحرب العالمية الثانية أي بعد العام 1939 ظهر التلفزيون وهو اتصال بالصوت والصورة، وبالكلمة أيضاً.

كان من شأن التحوّلات التي عرفتها الثورة الصناعية، من اكتشاف

الآلة إلى اكتشاف سكك الحديد والكهرباء التي ازدهرت، صناعة الاتصال، وبات بإمكان الإنسان الذي يعيش في أبعد نقطة من العالم أن يعرف ويعلم ويتصل بأي إنسان آخر في الجانب الآخر من هذه النقطة. فمثلاً عندما قُتل الرئيس الأميركي جون كنيدي (1962) لفّ خبر اغتياله العالم في دقيقتين من خلال البرقية التي عمّمتها إحدى وكالات الأنباء والراديو على العالم.

إذاً من اكتشاف الطباعة إلى الثورة الصناعية إلى اكتشاف التلغراف واعتماد وكالات الأنباء على الكابلات (Cables) التي تربط العالم بعضه ببعض أصبح بالإمكان ضخ الأخبار والمعلومات عبر وكالات الأنباء الدولية على مدار الساعة فضلاً عن إرسال الصورة بالتلفون. ترتب على ثورة الاتصالات إلغاء المسافات واختصار الأزمنة والأوقات.

ولكن بات العالم كله مرتبطاً ومتفاعلاً من خلال وسائل الإعلام، لكن ليس هذا هو المقصود بثورة الاتصالات، المقصود بثورة الاتصالات هو ثورة المعلومات. المقصود بثورة هو انقلاب غير مسبوق، أي انقلاب كبير. ثورة الاتصالات المقصود فيها التكنولوجيا المتطورة التي أصبحت متعددة الوسائل، مثلاً دخول الأقمار الاصطناعية في عالم التلفزيون، فهذه ثورة هائلة في عالم الاتصال، الصحون اللاقطة ثورة هائلة في عالم الاتصالات وكذلك الأجهزة الـ T.V. والـ Internet.

ماذا ترتب على هذه الثورة؟

ترتبت على هذه الثورة تطورات هائلة أيضاً من البنى الاجتماعية، والأنماط والسلوك وفي الثقافات. وقد أولى علماء الأنتروبولوجيا وعلماء الاجتماع والنفس وعلماء الإعلام حتى أصحاب السياسات الدولية. وقد تعدّدت التسميات التي تُطلق على عصرنا الراهن، فالبعض يسميه مجتمع ما بعد الصناعة والبعض الآخر يسميه مجتمع ما بعد الحداثة، والبعض الآخر يسميه مجتمع المعلومات والبعض الرابع يسميه الموجة الثالثة. وقد نلاحظ أنه مجتمع ما بعد الصناعة. فقد تميّزت الحداثة في أوروبا بمحو الأمية والمساواة بين الرجل والمرأة، وهذا كله لم يوجد في الدول العربية.

يقال مجتمع المعلومات لأننا نتصور شخصاً يعيش في هذا المجتمع خارج إطار المعلومات، فأصبح أعظم اقتصاد اليوم هو اقتصاد المعلومات. وكل حقول المعرفة موجودة اليوم على الأنترنت من الفلك والطب... وبالتالي أصبح الإنسان يتعاطى مع المعلومات كما يتعاطى مع الماء والهواء، حتى ربات المنازل تستطعن إدارة منازلهن من خلال الأنترنت. وأن تعميم التكنولوجيا مثل محو الأميّة. وكذلك أن العالم العربي أقل منطقة في العالم تستعمل تكنولوجيا المعلومات. والميّزة في عالم المعلومات أنه ليس حكراً على أحد، فكل الناس يستطيون الحصول على المعلومات حيث أصبحت شعبية ومتداولة.

ألّف ألفين توفلر كتاب أسماه "الموجة الثالثة"، هو صاحب نظرية الموجة الثالثة لأن البشرية مرّت بالثورة الزراعية والصناعية، وهي الآن في ثورة المعلومات.

ماذا ترتب على الثورة الزراعية؟

ترتب على الثورة الزراعية قيام الحضارة، لأنه لو ظل الإنسان يعيش على الصيد والرعي لما قامت الأمم والدول ولما كان بعد الزراعة هناك ثورة صناعية. وهذه الثورة غيّرت الجنس البشري وجعلته يعيش على ضفاف الأنهار ويبني حضارات، مثل: حضارة اليونان، حضارة بلاد ما بين النهرين، حضارة المايا، حضارة نهر الصين العظيم... كل هذه الحضارة خُلقت من انتقال الإنسان إلى الزراعة. بالزراعة لم يجمع فقط الإنسان ثورة واكتشف الثروات بل استخدم الحيوانات وبدأ يهتدي إلى الآلة.

أما ثورة الصناعة، فهي اكتشاف قوّة تحل مكان الإنسان والحيوان في وقت واحد. وترتب على ظهور الصناعة رؤوس الأموال، تطوّر العلوم والمعارف والصناعات، والسكن في المدن.

ماذا يترتب على ثورة المعلومات من تحولات حضارية؟

هناك تبدّل في استخدام وسائل الاتصال والطاقة (في البداية كان

الإنسان إذا يريد الاتصال مع آخر يرسل له رسالة أو عبر الجريدة، أما الآن فعبر الأنترنت). قطاع الاتصالات والمعلوماتية حيث عشرات الناس يعملون فيه وتسخّر له ملايين الدولارات ووسائل إنتاج، قطاع لم يكن مألوفاً من قبل، وأصبح المعيار النهائي لقوة الدول هو ما تملكه من معلومات كماً ونوعاً وقدرة على السيطرة على هذه المعلومات وتوجيهها، بل كان بالإمكان خزنها واسترجاعها واستخدامها وبثها ونشرها خارج الزمان والمكان.

ويمكن حالياً تسجيل كتبٍ كبيرة جداً على إسطوانات صغيرة مثل C.D. يجري حالياً تصميم شبكات لنقل البيانات بمعدل Hg/B3 يمكنها نقل مضمون 500 كتاب في الثانية الواحدة، ثلث المهندسين في كاليفورنيا يقدر عددهم بـ500 ألف مهندس من أصول صينية أتوا من الصين لأن الهندسة الألكترونية التي درسوها مجالات العمل فيها في كاليفورنيا.

مصر التي تعداد سكانها الأكبر في العالم العربي تُترجم 100 كتاب في السنة، في حين أن اليونان تُترجم 25 ألف كتاب في السنة. ومما له دلالته بدخول العرب إلى مجتمع المعلومات هو عدد الكتب المطبوعة في السنة، وعدد العلماء في العلوم الطبيعية.

تأثير حرية الإعلام والاتصال على المجتمع الكوني؟

لا بد من الإشارة إلى أنّ مَن يتحكم بإنتاج المعلومات هم الدول الصناعية الكبرى (أميركا السبع الأخرى)، فالمجتمع الأميركي، الأوروبيون، الصين، اليابان، حتى أن هناك نوعاً جديداً من تقسيم العالم، فاليوم يُسمح للصين بصناعة التلفزيون، ويُسمح لماليزيا بصناعة السيارات. أهم الأجهزة المتطورة (الكمبيوتر) الذي بدأ يظهر عام 1958، فكل 5 سنوات هناك جيل جديد من الكمبيوتر أكثر ذكاء ويسمح بتخزين أكبر للمعلومات. ويسمح للعديد من الدول بإنتاج رقائق، أي الأدوات الصغيرة التي توضع في الكمبيوتر وأي نوع من الاقتصاد الجديد يذهب إلى أميركا.

أما على صعيد تداول وتبادل المعلومات فموجود في الدول الكبرى

حيث التكنولوجيا المتطورة. والدول الأخرى هي مستهلِكة لهذه المعلومات.

ويتبدّى من خلال سير الأحداث خلال العام 2002 أن ثمة تاريخاً "لعولمة أميركية بالكامل تسعى إلى تشكلات من نوع لم يألفه العالم من قبل"، وتكفي الإشارة على المستوى الاقتصادي إلى أن الجبروت الأميركي الذي فاز بقوة بعد العام 1945 أدى إلى فتح اقتصاد عالمي تمثل بنجاحات السوق الليبرالي، والذي أتاح لمنظمة التجارة العالمية أن تؤسس لازدهار جديد يكرّس الهيمنة الاقتصادية العالمية، على أن مفارقة السؤال هي: ما دمنا غير قادرين على وقف مد العولمة الجارف، فما هي المخاطر؟ هل في دخولنا عالم العولمة أم في أن تتجاوز العولمة أقطارنا العربية ـ الإسلامية؟ كما أن للمسألة وجهاً آخر، كيف يمكن للعالم العربي الإسلا ي أن يدخل العولمة ولم يدخل الحداثة بالكامل؟

سادساً: طبيعة الاتصال وتداخلاته مع العلوم المترابطة:

بهدف التعرّف على مجمل العناصر التي يدل عليها الاتصال كفعل اجتماعي، تبادلي، سأسعى للانتقال من المصطلح المعجمي، اللغوي، إلى سياقات الاستخدام لاقتناص المعنى، الذي من المفترض أن يقودنا إلى التعرّف على طبيعة الاتصال وموضوعاته ومسائله، والتي تعنينا في هذا الحقل، وصولاً إلى مقاربات النظريات الاتصالية التي سعت إلى فهم الظواهر الاتصالية، وسمحت بالكلام على علم الاتصال، وارتباطه بالعلوم الأخرى. في العربية، يعود الاتصال كإسم إلى الجذر، الذي هو الفعل اتصل (يتصل) الشيء اتصالاً بالشيء، أي صار موصولاً به، لامسه ملامسة تامة، التأم به. ويقال اتصلت الأشياء أي تتابعت، واتصل به الخبر أي عَلِمَه، واتصل فلان بفلان أي خابره هاتفياً" (جوزيف الياس، المجاني المصوّر، دار المجاني، مادة اتصل، ص12). ويقال أيضاً هذه طريق فرعية تتصل بالطرق الدولية.

وتطوّر استخدام الكلمة، فيقال تواصل، أي تتابع وعدم انقطاع، وتواصل الشخصان أي اجتمعا واتفقا وتحابّا... فالاتصال بين الأشخاص

هو الذي يعنينا، بمعنى الأخبار أو الإعلام، أو التآلف، والوسيلة المستخدمة كالتلفون مثلاً.

وفي الإنكليزية[1]، مصدر Communication هو Communicate، وتعني يُبلّغ، يفشي، ينقل (To communicate News)، ويتصل به بالتلفون، وتعني أيضاً: (1) معلومات مبلغة، (2) رسالة شفوية أو خطية، (3) تبادل الآراء والمعلومات عن طريق الكلام أو الكتابة، أو الإشارات. ويقال شبكة تلفونية، وسائل اتصال.

في السياق اللغوي عينه، ما يعنينا، الاتصال بين الأفراد. فالاتصال هو الإخبار أو الإعلام، وهو نقل رسالة، وهو تبادل الآراء والمعلومات، وهو وسيلة التفاهم: اللغة - والحركات والإيماءات... فإذا كان الاتصال نقل رسالة، يصبح الموقف الاتصالي هكذا مُرسِل، ومُرسَل إليه، ورسالة، ووسيلة تفاهم... أي العناصر الأربعة المكوّنة لعملية الاتصال، من عدسة إعلامية، أو نتيجة الفعل الإعلامي.

وفي الفرنسية[2]، فإن فعل الاتصال يعني عقد صلة مع الآخر. فالاتصال يحصل بين شخصين. والصلة أو العلاقة الناشئة تكون ديناميكية عندما تدخل في إطار وظيفي (Fonction). والاتصال هو الإعلام أي نقل خبر إلى صحافي، والاتصال هو رسالة، والاتصال هو الوسيلة التقنية التي يتصل بها الناس ببعضهم. والاتصال هو نقل (Transmission). ويقال (Radio Communication) و(Télécommunication).

في معجم دالوز (DALLOZ) للمصطلحات في الإعلام والاتصال، تتوسع الدلالات:

1 - فالاتصال، فعل يتركز، بالنسبة للأفراد، على تبادل الرسائل، وجهاً لوجه، أو عن بعد، أو بدون واسطة "الميديا" (Média). ومهما

---

(1) منير البعلبكي، المورد، 1993، مادة Communication.

(2) Le Robert, terme communication.

يكن شكل الاتصال أو هدفه، فإنه يعني: الفعل والنتيجة (Communicate et communitas).

2 - ومن وجهة سوسيولوجية، يتطوّر الاتصال تبعاً لازدهار وسائل الاتصال الجديدة، على امتداد القرن الماضي (العشرين): الراديو، التلفزيون، والشبكات المتعددة الوسائط. كذلك، تعددت أسباب الاتصال، على إيقاع الوسائل التي صنعته: بهدف الإعلام، التسلية، التثقيف والتعليم، وأيضاً التأثير، دعم رأي أو التحوّل عنه.

إن أفعال الاتصال تزايدت بقدر ما انتشرت وسائط الاتصال، للحث على الاندماج، لبيع منتج أو سلعة، بناء صورة لرجل أو امرأة أو مشروع أو منظمة عامة، أكثر ملاءمة بأنها صاحبة اعتبار أو خيّرة، متسامحة.

تثير الأفعال الاتصالية دلالة ذات اختلاف، بالنسبة لباعثي الإفعال الاتصالية والمستقبلين لها، حسب الموضوع، والأهداف، وحسب نسب النجاح المتوقعة منها.

والاتصال ليس فقط مجموعة من وسائط "الميديا"، أو التقنيات، أو الأنشطة المختلفة، هو أيضاً سوق، وصناعة، وحرية، وقواعد قانونية، تطبيق مجموعة من القيم، مثل الإعلان الفرنسي عام 1789، والحق في الاتصال (Lexique d'information-communication, terme communication, p82.).

أما في الاستعمال، فتعبددت مدلولات كلمة "اتصال"، وراج استخدامها على نطاق واسع في حقول معرفية متعددة. "فالاتصال" يعني، في أبسط مفهوم "نقل الأفكار والمعلومات والاتجاهات من فرد لآخر، بعد ذلك أصبحت كلمة اتصال تعني أيضاً أي خطوط للمواصلات أو قنوات تقوم بربط مكان بآخر أو تقوم بنقل سلع وأفراد.. وبعد الثورة الصناعية، استخدم المهندسون كلمة اتصال باستمرار للإشارة إلى التلفون والتلغراف والراديو، كما استخدمها الأطباء في الحديث عن الأمراض المعدية، وقد أدرك علماء الاجتماع أنهم يستطيعون أن يستخدموا الكلمة لتصف عملية

التفاعل الإنساني، فعرّف بعضهم الاتصال بأنه العمليات التي يؤثر عن طريقها الأفراد في مَن حولهم، ونظر علماء السياسة إلى التجمعات على أنها نظم اتصال" (سعيد إسماعيل علي، التعليم والإعلام، في مجلة عالم الفكر، مج24، العددان الأول والثاني 1995، الكويت، ص142-95).

وفي السيكولوجيا والتحليل النفسي، ثمة ترابط بين السلوك والاتصال، فالاتصال يهمّ، على الأقل، شخصين: الفاعل والمرسَل إليه، حيث تجري الأدوار بالتناوب، فالاتصالات تستعمل كل الوسائل المادية. والمهم، هو الهدف أي نقل المعنى، فتأثيرات الاتصالات قد تكون رمزية، والسلوك الاجتماعي، أحياناً، هو كناية عن اتصالات بالنسبة للآخرين. والمثال عن الاتصال الاجتماعي هو الكلام، الذي يحتاج إلى تماثلات عقلية. فالفعل (Communiquer)، يعني جعل الأمر مشتركاً (Commun). وصعوبات الاتصال يُستدل عليها من غياب الوعي التلقائي بما هو مشترك لجهة التمييز بين المواضيع، ما هو نافع، وما هو مستحيل. "والعملية تصبح انتقالاً من اتصال ملائم إلى اتصال غير ملائم" (Danial Lagache, la psychanalyse, p45-46).

ويترادف اللفظان إعلام واتصال. ويستند تعاظم دور الإعلام إلى تقدّم التكنولوجيا. فالإعلام والاتصال كليهما ينتسب إلى حقل العلوم الاجتماعية. وهذا العلم موضوعه دراسة الخصائص العامة للإعلام (الطبيعة، التكوين، التأثيرات). والاتصال الذي يُرادف الإعلام، وطبيعة اجتماعية، لذا غالباً ما يُطلق عليه مصطلح "التواصل الاجتماعي" (اعتبر المرحوم د. حسب صعب، وهو عميد سابق لكلية الإعلام والتوثيق في الجامعة اللبنانية أن ترجمة Communication بـ"اتصال" هو خطأ شائع، مفضلاً كلمة تواصل. "راجع مجلة المستقبل العربي - بيروت، العدد 2/ 1980").

ولعل وسائط الإعلام الجديد (New media) والتطورات التقنية الهائلة التي طرأت على وسائل الاتصال الجماهيري، عززت معنى "التواصل الاجتماعي" للفظ (Communication). واستخدام هذا المصطلح "تواصل اجتماعي" على مواقع الأنترنت والفايسبوك والتويتر.

في الحياة المهنية، يتحدث الناس عن الإعلام القديم والجديد، وعن المعلومات والحقائق والمصادر والتسريبات، ويحتل الخبر حجر الزاوية في مجمل المهن الإعلامية، فإذا توسّع صار تحقيقاً، وإذا ظهرت آراء حوله أصبح تعليقاً، ومنه ينطلق الصحافي لإجراء حوار، أو مقابلة. فما هو الإعلام، والحال؟

في كتابه "الديمقراطية الأميركية وثورة المعلومات" يستقي بروس بمبر (Bruce Bimber) تعريفاً حديثاً للإعلام من قاموس (Oxford English Dictionary). وهو: "معرفة نقلت تتعلق بحقيقة معينة، أو موضوع أو حدث" (ترجم الكتابة إلى العربية، وعنوانه "Information and American Democracy" عن شركة الحوار الثقافي، بيروت 2006، ص25). لا حاجة لمناقشة المعرفة المتعلقة بالحقيقة، من زاوية، الصدقية أو الموضوعية، وهل الحقائق معلومات، وقائع، أم آراء وانطباعات ومشاعر، بسبب أنها مسائل ملتبسة، ولا تدخل مباشرة، في سياق البحث.

ومع ذلك، تقتضي المنفعة العلمية الإشارة إلى أن المعرفة بالحقائق والمواضيع والأحداث ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمجتمع الحديث وتحولاته في السياسة والاقتصاد والاجتماع، وهي تتعلق بمصالح الأفراد والمجموعات والحكام، وفئات المجتمع على اختلافها.

ولعل عنوان الكتاب، والمعاني المستخدمة في تعريف الإعلام، تظهر بما لا يقبل مجالاً للشك أن ثمة ترابطاً بين وظائف الإعلام وثورة المعلومات وأشكال التغيير السياسي في المجتمع الحديث. فالإعلام مرتبط بعلم السياسة.

وفي الإطار عينه، تناقش (Yves François le coadic) في كتابها علم الإعلام (La science de l'information) الإعلام كمعرفة[1]. فهي تجيب في

(1) Connaissance (Savoir): هي حاصل فعل المعرفة. هذا الفعل، يدرك الذهن، عبر، الشيء (الموضوع). أن تعرف أي أن تكون فكرة عن شيء.

معرض السؤال: ما هو الإعلام؟ "الإعلام هو معرفة حاصلة بصورة مكتوبة (طباعية أو رقمية) شفاهية، أو سمعية بصرية" (Yves François le coadic, la science de l'information? Paris, Que-sais-je, 2ème edition corrigée, Août, 1997).

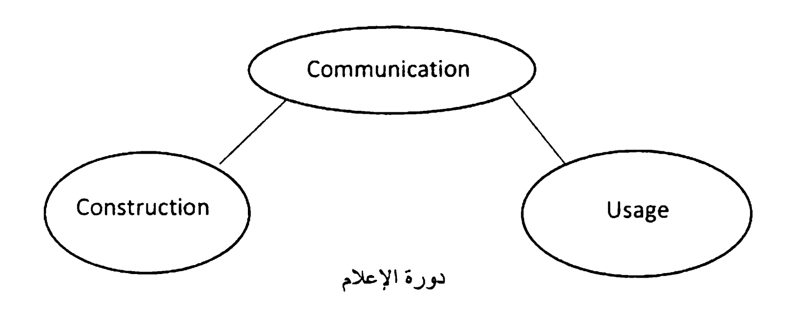
يشتمل الإعلام على عنصر المعنى (Elément du sens)، هو دلالة منقول إلى كائن واع بوسيلة، رسالة مسجلة في حيّز زماني (Spatio temporel): مطبوعة، إشارة كهربائية، موجة صوتية، هذه العملية تتم بواسطة نظام من الرموز. فالرمز (Signe) يربط الدّال (Signifiant) بالمدلول[1] (Signifié). فثمة العلامة (الرمز) الألفبائي، ورمز التنقيط. وهذا يؤشر إلى الصلة العضوية بين عِلم الإعلام واللغويات.

يلعب الاتصال دور الوسيط (Intermédiaire)، الذي يسمح بتبادل الإعلام بين الأفراد. يمكن الاستنتاج مع ايسكربت (Escarpit) بأن الاتصال فعل، عملية، آلية، وأن الإعلام منتج، خلاصة ومادة.

أما على الصعيد البحثي، فإن مقاربة نظام البحث، في الإعلام، ينتمي بقوة إلى السيستام (Systéme) الاقتصادي وفقاً للترسيمة الكلاسيكية: إنتاج (Production) - توزيع (Distribution) - استهلاك (Consommation). ما حصل في الحقل الإعلامي - الاتصالي تشابه في الظواهر، وليس في المفاهيم، وفقاً لما يلي (النموذج الاجتماعي) (Modélisation sociale).

---

(1) حلل عالم اللغويات السويسري فرديناند دي سوسير (1857-1913) الرمز (Signe) أو العلامة إلى مكوّنية: الصوت أو المكوّن الصوتي، ودعاه الدال (Signifiant)، والمدلول ليس شيئاً، بل فكرة عن شيء، أو ما يخطر في ذهن المتكلم أو السامع عند التلفظ بالدال الصحيح، ليس شيئاً بل فكرة عن شيء، أو ما يخطر في ذهن المتكلم أو السامع عند التلفظ بالدال الصحيح.



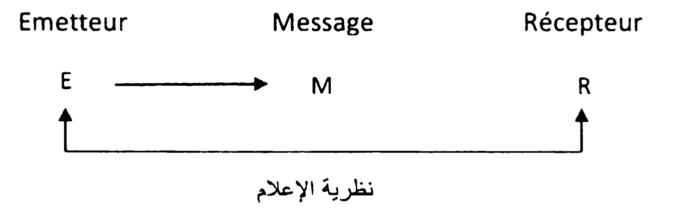
دورة الإعلام

ففي الإعلام، تتكلم عن إنشاء (Construction) معلومات ومعارف أكثر مما نتكلم عن إنتاج، مميزين بين منافع ثقافية أو مادية. بناء المعارف العلمية والتقنية، التي ستصبح مسجلة، سواء كتابة أو شفاهة، ونستعمل كلمة اتصال (Communication) مكان توزيع (Distribution)، وكلمة استخدام مكان استهلاك. هذه العمليات الثلاث: الإنشاء، الاتصال والاستخدام، تتابع وتتصل معاً بطريقة تبادلية.

ويمكن تبسيط هذه العمليات، من خلال الوسائط الجماهيرية (Mass média) عبر علاقة ثنائية: مُعْلِم (Informateur) ومُعْلَمْ (Informé).

Informateur ⟶ Informé
Mass-média

ومن هذه الترسيمة مُعلِم - مُعْلَم، ظهرت النظرية الإعلامية، التي أدخلت الرسالة في صميمها على النحو التالي: القناة، الرمز، الضجة، التفاعل، من دون أن تحوّلها إلى نموذج للاتصال الاجتماعي:



نظرية الإعلام

في الحقل البحثي، التحوّل الأساسي في الإعلام أن الموضوع لم يعد يتعلق بكتاب أو عملية توثيقية، بل ينشغل أكثر فأكثر في معالجة مسألة اجتماعية حسية، ينكب الإعلام على الكائن الاجتماعي. الإعلام يصنّف في قطاع العلوم الاجتماعية (علوم الإنسان والمجتمع).

والإعلام علم متعدّد الأنظمة المعرفية، في إطار تبادلي، تماثلي، يُعرف بـ(Science interdisciplinaire).

وبالعودة إلى الاتصال بحدّ ذاته، فهو رباط متحقق بين شريكين، عبر وسيط، وسيلة نقل، تسمح بتبادل المعلومات الرمزية بين متبادلين.

والاتصال في الاستخدام البحثي، حسب إدغار موران (1977) Edgar Morin "يرتكز على وصل عضوي، يحصل بنقل وتبادل الرموز[1]". وهذا يمهّد لعرض زوايا البحث في الاتصال: (Les angles de recherche en communication).

أما بالنسبة للمرسل (Destinateur):

1 - دراسة وسائط الاتصال ووسائل إنتاج الوسائط، قواعد الانتشار، سلطة وصدقية المشروع.
2 - النيّة (الهدف) (Intention): دراسة حول الإقناع في الإعلان، الدعاية السياسية، استراتيجية البرمجة.
3 - الرسالة (Message) تحليل محتوى الصحافة، البث التلفزيوني، النصوص المختلفة، التحليل السيميولوجي للإعلان.
4 - الترميز (Codage): دراسة الشكل الأيقوني، النصي، الفعلي وغير الفعلي، محتوى الرسالة.
5 - (Action): الدينامية التفاعلية، والأفعال الاتصالية داخل التنظيم.
6 - القناة (Canal): مختلف وسائط الاتصال، شبكات الاتصال في

(1) Morin E: (1977) La Méthode: La nature de la nature coll, point, seuil, Paris, p236, cite dans la recherche en communication Eléments de Méthodologie, p77.

التنظيمات، تكنولوجيا الاتصال الآلي.

7 - التشويش (الضوضاء) (Bruit)[1]: التحوّل الإنساني، والتداخل الفيزيقي للرسالة في مجرى انتقالها (Dans son parcours)، الاتصال.

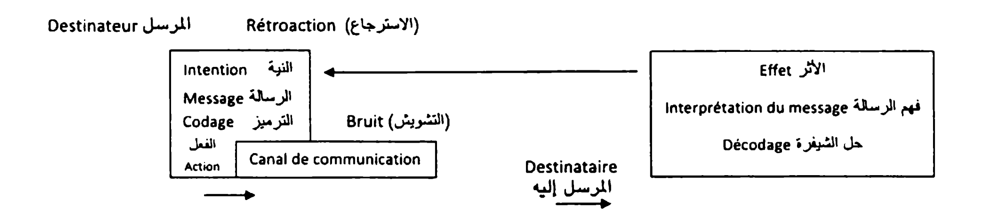
8 - المُرسَل إليه (المتلقي) (Destinataire): ماذا يفعل الجمهور بوسائط الاتصال، دراسة المستمعين.

9 - التشفير (حل الشيفرة): دراسة الإدراك، واكتشاف العلامات غير الفعلية والمتماثلة.

10 - التأويل (Interprétation): فهم النصوص، الرمز الإعلاني، المعنى، المدلول المشترك للرسالة بين المُرسِل والمُرسَل إليه.

11 - التأثير (Effet): دراسة تأثير وسائل الإعلام، التأثيرات الاجتماعية، الفكرية للعنف، للإعلان، التأثيرات على السلوك والقيم والآراء.

12 - الصدى والاسترجاع (Rétroaction): دراسة سيبرنطيقية (Cybernétique) للتنظيم، دراسة الاتصالات بين الأفراد.



(1) Noise: Bruit (تشويش). كلمة مشتقة من نظرية الإعلام، مفهوم يدل على كل تشويش (Perturbation) يطرأ على جهاز اتصال، أثناء نقل رسالة، خبر بين الـ(Emetleur) المرسل والـ(Recepteur) (المرسل إليه). التشويش، له مصادر مختلفة: موقف أو سلوك للمتصلين، علاقات بين الفاعلين، تشويش معنوي متعلق بتغيّر معاني الكلمات بالنسبة لكل فاعل، مشكلات تقنية، بسبب موجات تشويش على البث العادي، عبارة عن "بارازيت" أو تشابك موجتين.

على أن هذه العملية (-Alain Laramée et Bernard vallée, Ibid, p79
83.) (الترسيمة أعلاه) لا تجري منعزلة، بل تندمج في مجموعة من الأنشطة الإنسانية والاجتماعية. أكثر من ذلك، فالعملية ليست منهاجية، خطية، لأن رموز البيئة (Environnement)، يمكن أن تتدخل في أية لحظة، وتغيّر انتباه المشاركين في العملية.

إن نموذج المرسل - المتلقي يتضمن رسالة، وهذه يمكن أن تغيّر (Changer) الدور والاتصال، فيصبح باتجاهين، لا باتجاه واحد، خطيّ، كالحوار مثلاً. والمُرسِل يمكن أن يكون فرداً أو مجموعة أو طبقة، ولديه هدف للاتصال. والأهداف قد تكون واعية، أو غير واعية. في الإعلان الهدف إقناع وحث المتلقي على الشراء. وفي الحقل السياسي، يمكن التعبير عن الهدف بالدعاية، وفي المحصلة، فالدراسات على استراتيجيات البرامج في الراديو والتلفزيون تكشف هدف المرسل.

والرسالة بقدر ما تعبّر عن محتوى الاتصال، فإنه يمكن أن تكون تحليلاً لخطاب في الصحافة المكتوبة، أو أخبار في الراديو، أو بث تلفزيوني، يمكن تحليل المحتوى غير الظاهر لدعاية أو فيلم.

إن الترميز يتعلق بمحتوى الرسالة أو شكلها. الشكل (الصورة) قد يكون أيقونياً، أو لغوياً، فعلاً أو غير فعل، وهو يخص (الترميز - التشفير) تحويل المعطيات لنقلها بالقناة.

وتقنياً، تحويل الأصوات إلى علامات كهربائية، والنص إلى ترميز مزدوج.

الفعل (Action) يعني تحريك عملية الاتصال. الدراسات حول دينامية التفاعل أو الأفعال الاتصالية تستند إلى هذا العنصر داخل التنظيم (Organisation).

وبالنسبة لقناة الاتصال، يمكن ربط الدراسات حول الشبكات مع وسائط الاتصال، وتأثير مختلف أنماط الوسائط، وتكنولوجيا الاتصالات الآلية.

إن الضجة حول تحوّل الإعلام خلال نقل الرسالة، عبر شبكة القناة، وكل تعقيدات الانتقال بين المُرسِل والمُرسَل إليه، هي مصادر ممكنة للتشويش.

مِن كل ما تقدّم، يمكن وصف علم الاتصال بأنه علم تلتقي فيه علوم عدّة: فهو متحوّل، ومتعدد ومتداخل الأنظمة المعرفية، لهذا السبب يطلق عليه البعض "علوم الاتصال" (Alain la ramée et Bernard vallée, Ibid, p78.) (Science de la communication).

مِن هذه العلوم، الرياضيات، البسيكولوجيا (علم النفس)، المنطق (Logique)، السوسيولوجيا (علم الاجتماع)، اللغويات، الأنتربولوجيا والسيميولوجيا، فضلاً عن الاقتصاد، التاريخ، الإحصاء والفلسفة. وثمة من يضيف علم النفس الاجتماعي، إلى العلوم التي تحتاجها "علوم الاتصال".

وقبل الخوض في تفصيل المسائل، لا بدّ من إجمال الغوص في خصائص الإعلام كعلم وفعالية الاتصال بين الأفراد المتعلقة بأشكال الاتصال وكيفياته.

سابعاً: الخصائص:

من شأن فهم الاتصال وكيفياته وأنماطه أن يشكّل مسألة قائمة بذاتها، تساعد في فهم وظائفه المهن الإعلامية، والتأثيرات والنتائج المترتبة على العمليات الاتصالية والإعلامية.

فإذا كان الاتصال بأبسط معانيه إقامة علاقة مع الآخر، والكائنات على شتى أصنافها تقيم اتصالات يومية ودائمة في ما بينها، وهذا يعني أنها تتبادل المعلومات، وذلك لأسباب حيوية، وبواسطة أعضاء أو وسائل لأهداف تفاعلية، تفي بالحاجات، وتوفر الكائنات الحيّة فرصة الحياة، النمو والتوالد... إلخ.

وعليه فمن أبرز خصائص علوم الإعلام:

1 - إنها علوم حيوية:

تتصل بحياة الكائنات، وما يعنينا، هنا، من الكائنات أفراد الجنس البشري. وهذه الحياة تشهد حيويتها، من البيئة، المناخ، الأرض، المحيط، إنتاج السلع وتوفير المأكل والمشرَب والمسكن، فضلاً عن حاجات حيوية أخرى، تتعلق بالعمل وظروفه، والمرض وأحواله والتعليم... إلخ.

ومن هذه الوجهة، فدراسة علوم الإعلام، لا يمكن إلا أن تأخذ في عين الاعتبار، التكوّن، والتطوّر البيولوجي للأفراد كجنس أو كأجناس، فضلاً عن علم الفسيولوجيا (أو علم وظائف الأعضاء). هكذا يتضح أن علوم الإعلام تحتاج إلى البيولوجيا والعلوم الطبيعية والنفسية على حد سواء، لا سيما في ما خصّ الدعاية، والاستهلاك، والإعلانات، والحملات التعبوية... فضلاً عن الأتنولوجيا، والتعبئة حول عدد من الأفكار المتعلقة بوحدة الدم والارتباط العرقي، خاصة عندما يُواجه الأفراد فرادى أو زمراً مسائل حيوية، تتعلق بالحرب والسلم والإبادة، والخضوع أو السيطرة... هكذا يكون الخطاب مثلاً، أو التعبئة الكلامية تحاكي الوضع الحيوي للجماعات، حتى تترك تأثيراً مباشراً عليها، فالإنسان لم يعد مدنياً بالطبع، أو حيواناً ناطقاً، أو منتجاً وحسب، فهو أيضاً كائن اتصالي، في ماهيته وحيويته أيضاً.

2 - إنها علوم عضوية:

فكما أن الأعضاء تعمل في الجسم، ضمن نظام نسقي، كليّ ترابطي، في إطار من التراتبية والنظام، والعلائقية المحكمة بين أجزاء الكل الواحد. فالاتصال بوصفه بنية منظمة، مترابط ومتفاعل: فالعلاقة التي هي التعبير المنظم عن الاتصال تبدو وكأنها جهاز عضوي، وظيفته الاتصال بين الأفراد البشريين، تبدو عضوية (Organisé)، فلا يمكن فصل المُتصِل عن المُتصَل به، ولا فصلهما معاً عن هدف الاتصال، الذي هو تبادل

معلومات، أو ـمل صور ونصوص، أو رسائل. ولا يقتصر الاتصال على النقل (Transmission)، بل قوامه التبادل أيضاً (Echange) ونقل المعلومات هو الشكل الأول أو الغاية الأولى للاتصال، عبر الأعضاء المكوّنة للجهاز الناقل فرداً كان أو حيواناً أو نباتاً. فالنباتات والحيوانات لا تتكلم، لكنها تتواصل في ما بينها، فالنباتات ترسل رسائل بواسطة الروائح والألوان إلى الحشرات التي تحتاجها من أجل أن تتكاثر. فتحطّ الحشرات المنجذبة بهذه الطريقة على الأزهار، ثم تنقل حبوب اللقاح من زهرة ـى زهرة.

تتبادل الحيوانات عدّة أنواع من الرسائل بإفراز عدّة أنواع من الرسائل بإفراز مواد عطرية تسمّى الفيرومونات، إنها تترك آثاراً على الأرض تسمح بالإعلان عن وجودها وبتحديد مناطقها (موسوعة لاروس للاتصالات: 10).

مِن الإيماءة (تعبير عن الأفكار والمشاعر من دون كلام) إلى التشطيب والوشم والشْمّ والمظهر الخارجي، إلى وضعية الجسم، ترسل الأعضاء رسائل خارج اللغة، تحمل معلومات ومعاني، من المُرسِل إلى المُستقبِل.

3 - علوم آلية - صناعية (الوسائل):

لا تعمل الاتصالات بمعزل عن الآلة أو الوسيلة... فالإعلام هو نقل معلومات أو صور أو رسائل بواسطة وسائل. فالوسيلة الإعلامية (Médium) هي الأداة أو الوسيلة التي تسمح ببث معلومات، صور، أصوات ونصوص (Moyen d'information).

والركيزة (Support) هي كل وسيلة مادية تسمح ببث شيء ما. وعليه يمكن التمييز بين الوسائل والركائز في نقل الرسائل والمعلومات. الوسائل (Les moyens) في الاتصال هي: الشفهي (L'oral) والكتابي (Ecrit) والحركة (Geste) والصورة (Image). وثمّة مَن يضيف إليها وسيلة خامسة هي الموسيقى (La musique)، حيث لعب الغناء وتقطيع الشعر أو الإيقاع الجمعي دوراً في الاتصال السمعي، لدى شعوب ما قبل التاريخ، وحتى

في حقبات ما بعد ظهور الأديان التوحيدية كالدف والطبل والزمّور، أو ما يسميه فيليب بريتون (Philippe Breton) بـ(Langues sifflés) باللغات المصفّرة (L'explosion de la communication: 20).

وهذا أبو العلاء المعرّي يوجز في بيتين خالدين مِن الشعر الموقف:

في اللاذقية ضجة ما بين أحمد والمسيح

هذا بناقوس يدقّ وذا بمأذنة يصيح

فالناقوس هو جرس الكنيسة في المسيحية، والمأذنة هي ركيزة الأذان في الإسلام.

من الوسائل (Les moyens) إلى الركائز (Les supports) يمكن التوقف عند وصف الوسائل بالثبات، أما ما يتغيّر فهو من نوع الركائز. وهي عبارة عن كيانات مادية، تشكّل الابتكارات المتتالية عبر الثورات التكنولوجية مداميكها الأساسية.

❖ استند الاتصال الشفاهي (Oral) على الصوت، بدءاً من الهواء إلى الآلات المصفّرة، والأماكن التي تحدث الصدى، وصولاً إلى الميكروفون (Microphone) ثم التلفون والراديو (Téléphone et radio)، وذلك لنقل الصوت إلى أمكنة بعيدة، ثم عبر البحار والقارات، وشكّلت ولادة التلفزيون (Télévision) بدءاً من العام 1900، في إطار مشروع نقل الصور الثابتة والمتحركة إلى مسافات بعيدة.

ومرتكزات الكتابة التي بدأت من استعمال الطين والصلصال والحجر الصخري، عندما اخترعت الكتابة قبل 5000 سنة تقريباً في بلاد ما بين النهرين، عندما اكتشف هؤلاء أنه برسم خطوط يستطيعون المحافظة على معلومات ونقلها بلغتهم.

ثم تطورت باختراع الأبجدية (L'alphabet)، وهي لائحة بالأحرف التي تستعمل لتسجيل أصوات لغة والسماح بكتابة الكلمات، بدءاً من الورق إلى الطباعة، انتقالاً من التلغراف (Télégraphe) إلى الأنترنت (Internet).

أدى هذا الانتقال المستمر والخارق، في اختراع مرتكزات الكتابة كوسيلة لنقل المعلومات عبر المسافات البعيدة إلى ظهور الأنترنت، الذي يسمح بعملية النقل بسرعة كادت أن تنتهي معها المسافات. يُضاف إلى نقل الرسائل بالكتابة نقل الصور والأصوات أيضاً.

4 - علوم تفاعلية:

مِن شأن التعرّف إلى التفاعل أو التأثيرات الأحادية أو المتبادلة أن يساهم في دراسة ما نجم، أو ما يمكن أن ينجم عن استخدام الابتكارات التقنية في مجال الاتصال، سواء على مستوى الوسائل أو الركائز، أو على مستوى الرسالة والتأثيرات على مجمل عناصر العملية الاتصالية، ونماذجها المتعددة، أو حتى على مستوى التحوّلات المهنية وأشخاصها المعنويين أو الطبيعيين.

فمثلاً، ترتّب على عصر الطباعة ظهور اللغات الوطنية، التي حلت مكان اللاتينية، فمارتن لوثر (Martin Luther) ترجم الكتاب المقدّس إلى الألمانية، وقصائد دانتي مهّدت الطريق لظهور اللغة الإيطالية... إلخ.

وساهمت المطبعة في تسهيل توصيل المعلومات عن طريق الصور، وظهرت الخرائط التي مكّنت الحكومات والتجار والمبشّرين من السيطرة على أوروبا، وسمحت الأطالس بالتالي، في رؤية العالم ككل وبالتفصيل (آسابريغز، التاريخ الاجتماعي للوسائط: 57).

وهكذا ساهم عصر الطباعة بتغيير مهنة الإعلام والاتصالات، فظهر عصر البصر، مع الكلمة المطبوعة، والذي سيقود إلى التلفزيون، بالانتقال من الحرف إلى الصورة فالحركة واللون. ومن الثابت أن ثمة تفاعلاً بين وسائل الاتصال أو تداخلاً بين الوسائط، يعكس نوعاً من التنافس والتعايش، فالقديم والجديد يتعايشان، كالسينما والتلفزيون، ويتنافسان إلى أن يحدث نوع من تقسيم العمل بينهما، فالمخطوطات استمرت مع الطباعة، لأغراض شخصية، كخطابات التهنئة أو التعزية أو الخطابات

الغرامية أو خطابات الاعتذار أو طلب المال (التاريخ الاجتماعي للوسائط: 63).

ومع الطباعة، ظهر الإعلان المطبوع في الصحف. ففي لندن حوالى العام 1650 كانت الصحيفة تحمل ستة إعلانات في المتوسط.

ومن النتائج التي ترتبت على "ثورة الطباعة"، أصبحت الصحف والدوريات شيئاً من الروتين اليومي، ترك بصماته على الثقافة.

وكان من النتائج السلبية لولادة الطباعة أن ساهمت التقارير التي كانت تُنشر في الصحف، نظراً لما تنطوي عليه من تناقضات، في توليد شكوك حول موثوقية وصدقية الكتابة التاريخية التي كانت تعتمد على الصحف في تفسير الأحداث (بريغز: 98). وعلى الرغم من ذلك، ساهمت الصحف في تشكيل الرأي العام[1].

وأعيد استخدام هذا المصطلح، بتعريف آخر هو "الحيّز العام" أو الفضاء العمومي ( ) مع يورغن هابرماس[2] (Yûrgen Habermas) الذي تحدّث عن إمكان "تكوّن رأي عام حقيقي: في الأماكن العامة، في المقاهي، ومن خلال وجود مجموعة كبيرة من المجلات والجرائد نسبياً، فضلاً عن وجود عدد محدود من الأشخاص الذين كان باستطاعتهم أن يتناولوا القضايا العامة التي كانوا على علم مشترك بها بصراحة وحرية" (إيان كريب النظرية الاجتماعية: 355).

وأهمية دراسة هابرماس تنطلق من نظرتها إلى الوسائط كنظام يتضمن الصحف والمقاهي والنوادي والصالونات، وهذه العناصر المختلفة تعمل معاً. وهذا التحوّل في النظرة إلى العمومي أو العام مرتبط بالانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية.

---

(1) الرأي العام: (Opinion public) مصطلح دوّن لأول مرة في الفرنسية في العام 1750 تقريباً، وبالإنكليزية العام 1871، وبالألمانية العام 1993.

(2) هابرماس: (1929-) فيلسوف وعالم اجتماع ألماني. أبرز الشخصيات الفكرية في مدرسة فرانكفورت النقدية. من أهم مؤلفاته: "التحوّل البنائي للحيّز العام" (1962).

وباختصار أدّى اختراع الطباعة إلى تقويض احتكار المعلومات من جانب كنيسة العصور الوسطى.

ومع الطباعة، ستظهر أيضاً الدعاية، وكان مصطلح دعاية في أول أمره مصطلحاً دينياً لنشر المسيحية، ثم إبان الثورة الفرنسية استخدم في السياسة، ثم في التسويق للسلع في المجتمع الرأسمالي، الاستهلاكي، إذ تحوّلت الدعاية إلى أداة رئيسية في الاتصال التجاري. وتحوّل هدفها الرئيسي إلى تجاري، يتعلق بالسوق والسلع. واتخذت الدعاية مفهوماً جديداً، إنها اتصال مدفوع ثمنه، غير شخصي، بواسطة وسيلة من وسائل الإعلام، لصالح سلعة أو مؤسسة (أو لعقيدة أو لمرشح وزارة... إلخ) معرّف عنها في النص (أرمان ضيان، الدعاية، ص23).

5 - من خصائص علم الإعلام أو علوم الإعلام أنها اجتماعية - نفسية

فالفعل الاتصالي للفرد أو الأفراد هو فعل اجتماعي، يدور في مجتمع أو جماعة من الناس، ولأغراض ومنافع تتعلق بالفرد والجماعة، سواء لجهة الوظائف أو تقسيم العمل، أو الأخلاقيات المهنية، أو الانتماء إلى جماعة، والاندماج وعدمه في المجتمعات الحديثة، فضلاً عن الزواج والعائلة، والعلاقات الاجتماعية والانتماء إلى النقابات والأحزاب، والجماعات الدينية على اختلافها وما يفترض تقسيم العمل من تعاون على تبادل الخدمات والمنافع.

ومن الناحية النفسية، تلعب أجناس الاتصال الإعلامي من الكلمة إلى الصورة، فالصوت، فالمعلومة دوراً لا خلاف حوله في توليد الأحاسيس والعواطف، والقبول والنفور، والتباعد، والحب والكراهية، ونشأة المشاعر وانطفائها، وتشكّل الوجدان الجمعيّ، والميول والنزوعات وتكون مشاعر وأحاسيس اللذة والألم... (الإقبال على متابعة المسلسلات العاطفية، أو الاستماع إلى الأغاني والموسيقى).

ثمة أسئلة تطرح هنا: هل القراءة تشجّع التوحّد مع الآخرين، أو تشجّع على الانسحاب إلى العالم الخاص؟

هل التلفزيون أو الشبكة تدمّر المجتمعات أم تخلق أنواعاً جديدة من المجتمعات لا يهم فيها القرب المكاني؟

ونفسياً، ونظراً لارتباط الإعلام بحاستيّ السمع والنظر (الإبصار)، فإن الأحداث والمعلومات التي تنقلها وسائل الإعلام، أو الوسائط (الصحافة، الراديو، التلفزيون وغيرها) من شأنها أن تؤثر على فسيولوجيا الوظائف النفسية، فإذا كان السلوكيون مثلاً يدرسون السلوك العدواني من زاوية بيولوجية أو بيئية أو اجتماعية، فإن علماء الإعلام يدرسون هذا السلوك أو العنف من خلال تأثيرات المشاهدة والتكرار والأفعال العنفية والجرمية في الأفلام والصور والمسلسلات.

فنظرية المحاكاة، مثلاً، تفيد أن "العنف يكتسبه ويتعلمه الفرد بالمحاكاة، فيقلد الأطفال السلوك العدواني في الكبار، إما في التجارب الحقيقية أو مشاهدة الأفلام والتلفزيون. وقد ثبت أن رؤية الطفل لموقف بطولي عنيف في التلفزيون لمدة دقائق يؤثر على سلوكه العدواني لعدة شهور، مما يعزّز دور هذا الجهاز الإعلامي في التأثير على السلوك الإنساني، وضرورة الرقابة النفسية والتربوية عليه". (أحمد عكاشة، علم النفس الفسيولوجي، ص191).

وهذا من شأنه أن يقودنا إلى التمييز بين نوعين من علوم الإعلام:

1 - **العلوم البصرية**: القائمة على التحوّل أو الترابط من اليد إلى العين (الإشارة إلى اللفظة أو الكلمة) أو الترابط بينهما، اليد والعين معاً، كقراءة الصحيفة أو الكتاب أو الورقة ومشاهدة التلفزيون وصولاً إلى محركات البحث عبر الغوغل أو غيره، فضلاً عن الأنترنت ومشاهدة مواقع Facebook وTwiter وغيرها من مواقع التواصل الاجتماعي.

2 - **العلوم السمعية أو الأذنية**: والمتكوّنة من دَور الفم في توليد

الصوت (الفونيم) وصولاً إلى الكلمة التي تُنقل إلى الأذن: الإذاعة، الكاسيتات، الأقراص المدمجة السمعية، الشرائط المسجلة في ما تسميه الإذاعة البريطانية في عصر "بث الصوت" وفي فترة زمنية لم تتعدَ عشرينات القرن العشرين، كانت "الإذاعة البريطانية تقارن بكنيسة إنجلترا" (بريغز، التاريخ الاجتماعي للوسائط، ص276).

وفي عصر "البث"، هذا الذي فتح الطريق أمام التلفزيون، تحطمت خرافة المسافة أو البعد.

ولا حاجة لتأكيد مكانة الإذاعات الوطنية في بريطانيا ودول أوروبية أخرى، فضلاً عن الولايات المتحدة الأميركية، ودورها في الحرب الدعائية قبل الحرب العالمية الثانية، وكيف أسهمت في فهم الهتلرية والموسولينية والستالينية، أكثر بكثير من كلمات الكتّاب والمفكرين ورجال السياسة، لا سيما بعد اختبار فعالية الإذاعة من خلال مذيع الراديو أورسون ويلز، الذي كان يقدّم برنامجاً مسرحياً، كوميدياً على محطة راديو (سي.بي.اس) (CBS) الأميركية.

ففي تشرين الأول 1938، افتعل قطع البرنامج، وتظاهر بتلقي تحقيق مباشر يتحدث فيه مذيع آخر (وهو ممثل) عن احتلال ولاية نيوجيرسي الأميركية، على يد مخلوقات من المريخ (مارس)، وعندما سمع الناس "بالقتل"، على يد المخلوقات الفضائية، أصيب آلاف المستمعين بالذعر، وصدّقوا ما سمعوا، وهذا ما فتح الباب أمام دراسة قوة تأثير الوسيلة الإعلامية على الجمهور، لا سيما أخبار الدعاية والحملات الانتخابية، والتي ساهمت سواء عبر المعلومات الصحيحة أو الشائعات (Rumeurs) بإعادة تشكيل وعي الناس، وتحوّلت مع الوقت إلى مسائل بحثية، وتولدت عنها نظريات سيكولوجية ووظيفية.

ومع التحوّل من اليدّ إلى الفم، ومن الإشارة إلى الصوت، ومن "الفونيم" إلى الكلمة، حجز الإعلام البصري مكاناً قوياً في ساحة التأثير على الجمهور، وبدت الكلمة المسموعة أو المكتوبة أعلى وأهم من الإشارة، وهي القاسم المشترك بين اليدّ والعين والأذن.

6 - علوم الإعلام، باعتبارها تدرس "نظام الوسائط"

هي علوم تتصف بخصائص هذه الوسائط نفسها، التي وإن تغيّرت في حدود الزمان والمكان فإنها تتعايش، وتتنافس وتتعاون، ويقلد بعضها بعضاً، فهي تُشبه لهذه الجهة وسائل المواصلات، سواء في البرّ أو الجوّ أو البحر... بل يمكن القول أن علوم الإعلام تتكامل كما تتكامل وسائط الاتصال، ووسائل الإعلام الجماهيري.

ثامناً: وظائف الإعلام والاتصال:

لا حاجة للتذكير بالوظائف التقليدية، التي دأبت الصحافة في أواخر عقود القرن الماضي على التنويه بها: الإخبار، الوسيط بين الجماعات في المجتمعات الصناعية، المساهمة في حلّ مشكلات التقدّم والنمو في المجتمعات النامية، فضلاً عن دورها في التعليم والتسلية والترفيه، والدور السلميّ أو الحربيّ لجهة العلاقات بين الدول والشعوب، وحاجة الدولة أو الحكومة للصحافة وسائر وسائط الاتصال الأخرى، وذلك لربط الحكام بالمحكومين، والحكومات بالمواطنين، والناشرين بجماهير القرّاء.

ومن الوظائف الكلاسيكية للصحافة مثلاً: وظيفة النقد السياسي والاجتماعي. فوسائل الإعلام تكوّن الوعي السياسي والثقافي للجمهور، وتؤسّس لقيام الرأي العام.

وعليه، يتعيّن على الصحافة وفقاً للمدرسة النمطية إبراز المشكلات والقضايا التي تهمّ الجمهور في حياته ومعيشته وأمنه واستقراره.

وثمة وظيفة رابعة للصحافة والإعلام تتعلق بتقديم الخدمات العامة، لجهة إخبار المواطنين بأخبار السينما والمسرح والمبادلات والإعلانات التجارية.

إلا أنّ هذه الوظائف، راحت تتعدّل أو تتبدّل أو تتغيّر النظرة إليها، أو تأفل مع إدراك الحكومات وقادة الدول والجيوش أثر الإعلام، وتأثير وسائله في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى، وإبّان الحرب العالمية

الثانية، وما بعدها من حرب باردة، وحروب بالواسطة في العالم الثالث، لا تزال إلى اليوم، تتخذ أشكالاً تدميرية هائلة على مستوى تحديث المجتمعات وعقول الجماهير وانتماءاتها وهوياتها... إلخ.

فالحروب، لا سيما إبّان عقود القرن العشرين، فتحت أنظار الحكام والقادة على إدراك الأثر الهائل لوسائط الاتصال، فظهرت وظائف ضمنية لهذه الوسائل والوسائط، تتعلق بالدعاية، الإشاعة، التلاعب بالعقول، التعبئة للحروب والهيمنة على روح الجمهور وإدراكاته العقلية.

وفي ضوء هذه الخصائص والوظائف والتشكّل التاريخي لوسائل الإعلام وتطورها، أضحى الإعلام علماً ناضجاً له ظواهره، ومسائله ومناهجه البحثية، كحقل من حقول العلوم الاجتماعية.

وصفت (Karine Philippe) في ورقة بحثية بعنوان "علوم الإعلام والاتصال" “Les sciences de l’information et de la communication” (SIC) بالحقل الواسع، من الاتصال الحيواني إلى اللغة الإنسانية، إلى الصحافة والتلفزيون، والإعلان على الأنترنت، ومن الإشاعة إلى الرأي العام (Karine Philippe, les (SIC), p. 73).

ولاحظت أن حقل هذه الأبحاث متعدّد الأنظمة المعرفية، وهو من التحدّيات المعاصرة.

فبدءاً من النصف الثاني من القرن العشرين، تجمعت حزمة من الأبحاث، لها نظرياتها وتطبيقاتها المتعددة، ونظراً لتعدّد الظواهر الاتصالية، من القطارات إلى الأوتوبيسات، فالبرقيات، ومحطات التلفزة والمجموعات البشرية، استعارت هذه العلوم مختلف الأنظمة المعرفية: من السيبرناطيق (La cybernétique)، البسيكولوجيا (La psychologie)، علم العادات (L’éthologie)، علم الاجتماع (La sociologie)، وإيضاً السمياء (La sémiologie)، إعلام توثيقي (Information documentaire)، الفلسفة (La philosophie)، علوم إنسانية (sciences humaines)، تقنيات وعلوم الهندسة (Techniques et sciences de l’ingénieur).

ظهَرَ حقل الدراسات في الإعلام والاتصال كأنه حقل غير متجانس (Hétérogène) بأنظمة متعددة، موسومة بالمجابهات الإيديولوجية والصدامات المعرفية داخل الأطر. والسؤال: كيف يمكن ربط هذه المقاربات المعرفية في تيار موحّد؟

ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال - الإشكالية، فالمسألة ذات صلة بالتوقف بعض الشيء عند أصل النظريات الحديثة للاتصال ثم رؤية تطوّر إشكالياتها، وصولاً إلى ما آلت إليه الدراسات في هذا الميدان المترامي الأطراف.

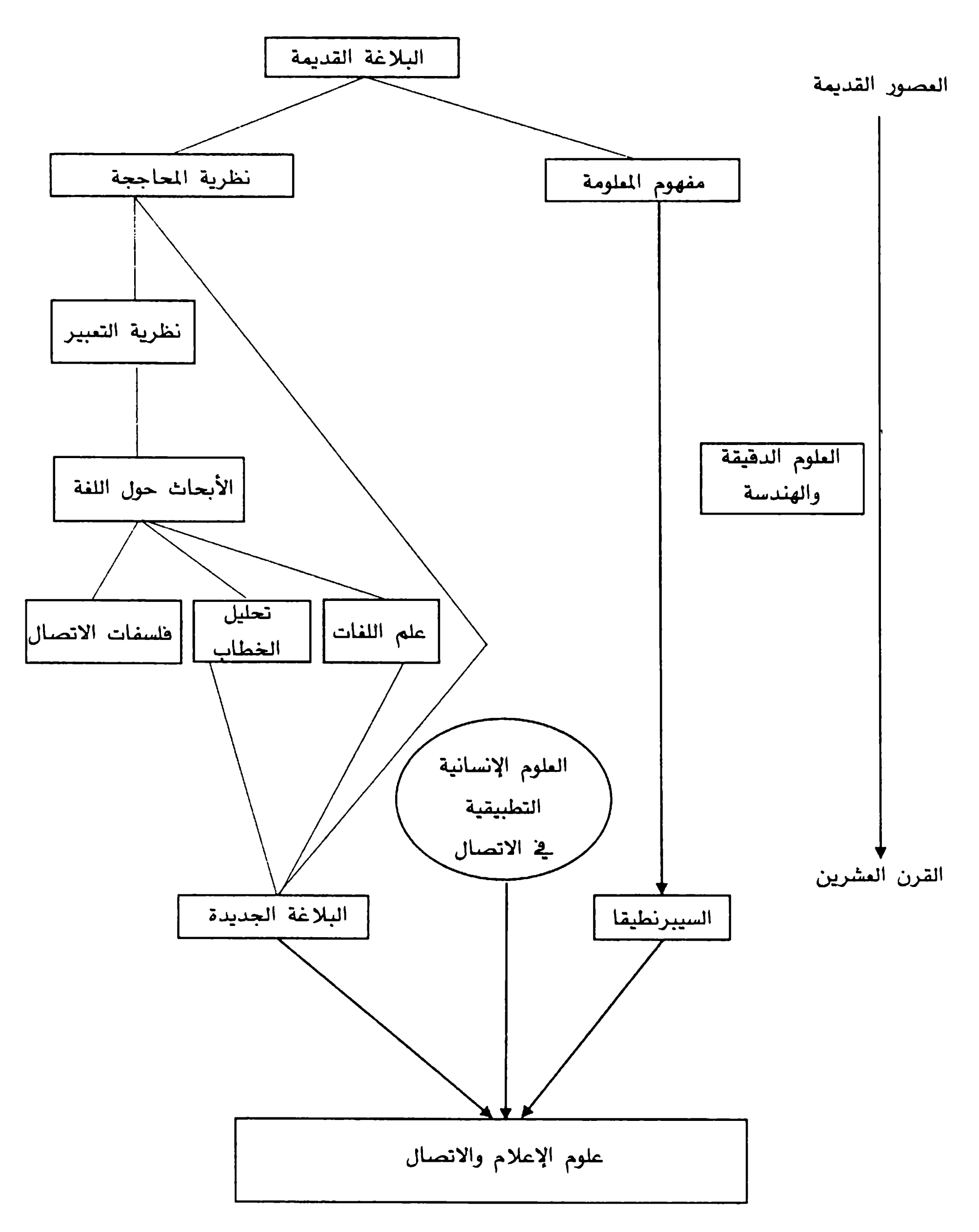
وليس من اليسير أيضاً فهم أصول نظريات الاتصال، التي تحدّرت من الأبحاث في العلوم الإنسانية. فهذه العلوم، بدءاً من أواخر الحرب العالمية الأولى، وعلى وجه الأخص، انطلاقاً من الحرب العالمية الثانية، وجهت عنايتها صوب ظواهر التأثير (Influence)، الدعاية (Propagande)، والإقناع (Persuasion).

وهذه لعبت دوراً، في ما بعد، في تكوين حقل علوم الإعلام والاتصال "Sciences de l'information et de la communication".

(Philippe Breton, l'explosion de la communication, P. 117).

(أصل نظريات الاتصال)

Généalogie des théories de la communication



المصدر: انفجار الاتصال، لمؤلفيه فيليب بريتون وسيرج برولكس

أبرز الأعمال المؤسسة لنظريات الاتصال الحديثة

1 - السيبرنطيقا (La cybernétique):

بزغ في السنوات الأربعين (1940) حقل جديد للمعرفة، مخصص كلياً بصورة تقريبية للاتصال، بموازاة موجة من الاكتشافات التقنية لمعالجة الإعلام.

إنّ السيبرناطيق، كما قدّمها الرياضي المؤسس نوربير وينر (Norbert Uiner) عام 1948، وهو مَن أطلق هذا الاسم، تعني:
"L'étude de la commande et de la communication chez l'animal et dans la machine" (Karine philippe, Ibid, p. 74).

أي هي دراسة الأوامر والاتصال لدى الحيوان والآلة.

وحدّد جون فون نيومان (John Von Neumann) (1903 - 1957)، وهو عالم رياضيات أميركي من أصل هنغاري، منذ الثلاثينات، البنية المعقولة لآلة أوتوماتيكية لمعالجة المعلومات، توافق غالبية أجهزة الحاسوب الآلية.

اهتم الرياضيون الأميركيون بإيجاد طريقة تتمكّن الآلة بواسطتها من حلّ عمليات حسابية، ومعالجة معلومات وحلّ مشكلات، لدرجة أن كلمة (Cybernétique)، تكاد تعادل لفظ (Informatique).

وتمكّن نيومان من إنتاج الـ (Liptope) Ordinateur جهاز الكومبيوتر عام 1945، على طريق إنتاج الآلات المفكرة (Machines à penser).

وإذا كنا اليوم نتحدث عن علوم الاتصال فالفضل يعود بالدرجة الأولى إلى السيبرنطيقا (La cybernétique). وقادت الأعمال السيبرناتيكية

التطبيقية لجهة استخدام الآلات في التحكم بالأعمال الحربية إلى رؤية مماثلة (Analogie) مع دماغ الإنسان، من شأنها أن تفسّر السلوكيات البشرية، حيث بدأ علماء الأعصاب والأطباء باستخراج الملاحظات على هذا الصعيد، الأمر الذي مهّد لثورة علمية جديدة، تبني الجماعة العلمية مقاربة السيبرنطيقا في الأبحاث والدراسات الإنسانية.

ومن هذه الثورة ولادة فكرة (Feed-back) أو (Rétroaction) الاسترجاع.

2 - نظرية الإعلام:

أدّت نظرية السيبرناتيك لولادة نظرية الاتساق (Les systemes)، التي تطوّرت من الرياضيات إلى الاقتصاد (Economie) والبيولوجيا (Biologie) والإيكولوجيا (Ecologie) لتمثيل العلوم الإدراكية، والإنسان الآلي، ومهّدت لولادة نظرية الإعلام.

تبلورت نظرية الإعلام (La théorie de l'information) مع الرياضي الأميركي كلود شانون (Claude Shannon) (ولد سنة 1916 -)، وهو مهندس في شركة بل للهاتف. وقّع عام 1949 مع عالم الرياضيات وارن ويفر (Waren Weaver) أوّل نظرية في الاتصال: نظرية المعلومات التي تسمح بحساب كميّة المعلومات عبر فصلها عن معناها. فنظرية شانون لم تهتمّ بمعنى المعلومات، بل بنقلها واستقبالها، تاركة إدراك المعنى للإنسان.

وُلدت نظرية الإعلام من التطبيق في شبكات الهاتف في الشمال الأميركي إلى أنظمة الاتصالات، من خلال موديل (نموذج) (Modèle): Emetteur, Signal et récepteur.

وما يمكن أن يُرافق هذه العملية من تشويش (Bruit) وشرحنا هذا النموذج في ما تقدّم.

3 - مساهمة جاكوبسون:

أو رؤية اللغوي رومان جاكوبسون (Roman Jakobson)، الذي يتبنى نموذج شانون في ترسيمته للاتصال (Shéma de la communication)، والتي تتألف من ستة عناصر:

1 - المرسل: Emetteur، الذي يُنشئ الرسالة أو الخطاب، وقد يكون شخصاً واحداً أو عدّة أشخاص.

2 - إرسال الرسالة (Envoie un message)، وهي مضمون الاتصال (النصّ).

3 - إلى مستقبل أو متلق (Récepteur) (Receiver) وهو يمكن أن يكون فرداً واحداً أو مليون شخص ممن يشاهدون فيلماً أو عرضاً تلفزيونياً.

4 - بواسطة رمز (Code)، وقد يكون لغة، صورة، حركة، أو صوتاً.

5 - بواسطة قناة (Canal) أو أداة الاتصال وهي الوسيلة المستخدمة في إيصال الرسالة، والأداة قد تكون سمعية أو مرئية أو لمسية (Tactile).

6 - في سياق محدّد. والسياق هو الموقف الذي تُرسل فيه الرسالة، ويُساعد على تحديد معناها.

الرسالة (المضمون)

المرسل ———————— المتلقي

أداة الاتصال (الرمز)

4 - البلاغة الجديدة: (Nouvelle rhétorique)

دشّن الفيلسوف البلجيكي شايم بارلمان (Chaim Perelam) (1915 - 1980) والبنيوي الفرنسي (Roland Barthes)، كل على طريقته، في خمسينيات وستينيات القرن الماضي ما عُرف بالبلاغة الجديدة، أو التعبير الجديد، باعتباره المكوّن الضروري لمجتمع الاستهلاك (Société de la consummation).

فرَضت الدعاية نفسها، وفرَضت أنماط الحياة هذه البلاغة الجديدة.

إننا نجد في قلب النظام الإعلامي، طاقة لا تتوقف للتلاعب (بالعلامات) (Signaux)، واستخدام وسائل الإقناع القديمة، المنقولة عن البلاغة القديمة (La réthorique ancienne)، ولكن بانعكاس جَمالي يرافقها أيضاً.

يُعتبر بارث واحداً من مبدعي النقد الجديد في فرنسا، من خلال كتابه (Le dégré zero de l'écriture) الدرجة صفر من الكتابة، ومتعة النصّ (Le Plaisir du texte)، حيث فرّق بين دلالة الكلمة المعجمية (Dénotation): المعنى الحرفي، والمعاني الأسطورية، أي ظلال المعاني، والمعاني الأسطورية هي نظام من الرموز (Conation)، والرمز يُمكن أن يكون صورة في مجلة.

وبدءاً من العام 1976 أصبح بارث أستاذاً في علم السيمولوجيا (Sémiologie) الأدبية في الـ (Collège de France) (الكوليج دي فرانس).

نشرَ بارث مقالاً شهيراً في مجلة الاتصالات (La revue de communication)، أعاد فيه اكتشاف أن الثقافة الكلاسيكية (اليونانية) لم تختفِ، ونجد لها امتداداً في الحداثة، وكأن جديداً وُلد من أعصر الثقافة (الحضارة).

قبل ذلك، كان بارلمان، في معالجته للإقناع، اقترح إعادة اكتشاف أسس الخطابة الأرسطية، يماهي فن التأثير والإقناع.

إن إعادة اكتشاف البيان، بعد نسيانه عقوداً، واختفائه من مناهج التعليم في البلدان اللاتينية، أجّج الاهتمام، بهذه الطريقة، لجهة الفائدة المرتجاة بالنسبة للغة، ووظيفتها في ميدان التواصل.

يعرّف أرسطو (384-322ق.م) (Aristote) الريطوريقا (Rhétorique) بالخطابة أو البلاغة. والريطوريقا ترجع على الديالقطيقية (الجدل) "وكلتاهما توجد من أجل شيء واحد" (الإقناع) (أرسطو، الخطابة،

ص83). وهي بتعريف أرسطو نفسه "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المقنعة" (أرسطو، م.ن، ص89).

ارتبطت الريطوريقا الكلاسيكية (اليونانية) بالديموقراطية اللاتينية والحاجة إلى علم البيان للإقناع، والتأثير على الجمهور. وعرّف أفلاطون (Platon) الخطابة بأنها "فنّ حُكم الناس باستثارة مشاعرهم وعواطفهم"، وكانت لغة خطباء أثينا تمتاز بالوضوح والقوّة، والبُعد عن المحسّنات اللفظية (ديورانت، قصة الحضارة، مج7-8، ص409).

قرّب بارث إشكالية الريطوريقا الأرسطية من المفاهيم الحديثة للاتصال، فخصّص الكتاب الأوّل من مجلداته لمرسل الرسالة، أي مُنشئ الخطاب (مفاهيم الحجج). والكتاب الثاني لمتلقي الرسالة (الانفعالات والحجج أيضاً). والكتاب الثالث للرسالة نفسها (تحليل الصور، ونظام أجزاء الخطاب).

تكاد بريطوريقا الاتصالية أن تكون الضابطة الأولى، أو الرئيسية لثقافتنا الاتصالية سواء في ما خصّ أنواع الرسائل (الخطابات) والنظريات في مجال الاتصال: من التعبير والعبارة، إلى الإقناع وإعطاء الأدلة إلى الإعلام.

5 - مدرسة بالو ألتو (L'école de Palo Alto)

اشتهرت مدرسة "بالو ألتو" بدراسة الاتصال بين الأشخاص (Communication inter personnelle)، وتشكلت في "بالو ألتو" جنوب سان فرانسيسكو (San Fransisco) في الولايات المتحدة الأميركية، حول غريغوري باتسون (Gregory Bateson)، وهو أنتربولوجي ومختص بآداب العادات، والاتصال الحيواني.

انتقدت مدرسة (Palo Alto) ترسيمة جاكسون الخطيّة (Shéma de Jakobson et sa linéarité) Emetteur على طريقة التلغراف، واقترحت مكانها نموذج "الأوركسترا" النسقي، التفاعلي، حيث يشارك الأفراد في

عملية التبادل، وكل يقوم بدوره في عملية الاتصال. فالتواصل الاجتماعي يشبه الأوركسترا، حيث أن أفراد ثقافة ما يشاركون في التواصل، كما يشارك الموسيقيون في الجوقة، ولكن من دون رئيس، فالبعض يُرشد البعض الآخر. فحضور الفرد يكون من خلال التواصل، كما أكّدت الجملة الشهيرة لبسيكولوجي في "بالو ألتو" واتسلافيك (P. Watzlavik): "لا نستطيع إلا أن نتواصل".

والتواصل هو سيرورة دائرية بحيث تحدث كل رسالة نقدية مراجعة (Feed-Back) لدى المخاطَب (المُتكلم إليه) .(Interlocuteur) ويعني بها ارتداد الأثر وعودته إلى مسبّبه. فالسيرورات التواصلية مجموعة من التأثيرات والانطباعات المراد تحقيقها لدى المستقبِل، ونوعية ردود الأفعال المتوقعة. والـ (Feed-Back)، أو الفعل الراجع (Rétroaction) ترجمه الفرنسيون .(L'alimentation en retour)

أوجد الاتصال العائلي منفذاً لكل من البسيكولوجيين دون جاكسون (Don Jackson)، وبول واتسلافيك وجانيه هيلميك سيفين (Paul Watzlawick et Janet halmick seavin) لدراسة علاج الحالات النفسية بواسطة (Thérapies systématiques). ورأى هؤلاء أن التواصل هو المفتاح لحل آليات السلوك البشري.

وهذا التواصل، هو الذي يقود الذات العليلة إلى التخلص من كل العقد والاختلالات النفسية.

ويمكن أن نذكر من روّاد هذه المدرسة إدوارد هول (Edward T. Hall) مؤسّس الـ (Proxémité) وهي (دراسة المسافات داخل الاتصال بين الأشخاص).

وأكدت هذه الأبحاث أهمية التواصل غير اللفظي. وبالنسبة لـ (Erving Goffman) (1922-1982)، وهو سوسيولوجي أنكلوسكسوني، وُلد في كندا ومتحدّر من عائلة يهودية روسية. فالاتصال بين الناس هو أشبه بمشهد مسرحي، من الحياة اليومية، حيث يحاول كل فرد أن يُقدّم الوجه

الإيجابي، بصفته عضواً فاعلاً. فالأفراد هم فاعلون ومشاهدون، ضمن نظام من القواعد المنتظمة للاتصال، ذات أوجه اجتماعية وأخلاقية.

وقادت علوم اللغة، بدءاً من الستينيات إلى ظهور علم السيمياء (La sémiologie)، وهو علم يدرس عالم العلامات (Signes) في وسائل الاتصال الجماهيري، فالبراغماتيكيان جون أوستن (John Austin) وجون سيرل (John Searle) درسا الاتصال كفعل لغوي.

وتوفر طريقة السيمياء إطاراً أوسع للاستدلال على وفرة الأنظمة المتاحة في عالم الاتصال، الذي لا يتوقف على الإشارات والدلالات اللغوية، بل يتعداها إلى الإشارات (Indices) والصور (Icones) والحركات (Gestes) ومجموع وسائل التفاهم والتخاطب، أي إرسال الرسائل التفاهمية بين المجموعات البشرية عبر الوسائط أو وسائل الاتصال، مكتوبة كانت أو مرئية أو مسموعة.

وحسب باحثو مدرسة بالو ألتو فإن التواصل يدخل ضمن السياق الذي يجري فيه، ويتعلق بالعلاقات التي تربط بين الأفراد الذين لا يتواصلون (علاقة الغرباء)، والعلاقة بين زملاء العمل والآباء والأطفال. والسياق هو إطار رمزي حامل لقيم وقواعد ونماذج وطقوس التفاعل.

6 - مساهمة العلوم الإنسانية والاجتماعية:

يعتقد فيليب بريتون (Philippe Breton) أن التيّار الثالث الذي ساهم، إلى جانب "الريطوريقا" و"السيبرنطيقا"، في ظهور علوم الإعلام والاتصال والمرتبط بالحرب العالمية الثانية هو تيّار العلوم الإنسانية، بدءاً من مدرسة شيكاغو (Ecole de Chicago) التي قدّمت تعريفات للبراغماتية والتفاعلية الرمزية، ممهدة بذلك لإعادة تعريف الاتصال بأنه مشاركة في الخبرات وعملية خلق روابط بين أعضاء الجماعة الديموقراطية، بدءاً من المنهجية السلوكية وطرائق البحث الكمي.

انطلاقاً من براديغما وسيلة الإقناع (Moyen de persuasion) والذي

أدى إلى خمسة برامج أبحاث للدكتوراه في الاتصال في جامعات أميركا الشمالية بين العام 1943 و1950.

وحلّ هذا البراديغم الجديد مكان براديغم الدعاية (Propagande)، بعد مناقشات أسفرت عنها الحرب العالمية الأولى لجهة صحة الدعاية وتطبيقاتها في مجتمع ديموقراطي كالمجتمع الأميركي، لا سيما بعد تبريرات دخول الولايات المتحدة الحرب العالمية الأولى، والنقاشات التي اندلعت، اثر ذلك، في أوساط الرأي العام الأميركي.

وساهمت الاكتشافات الأولى في العلوم الاجتماعية التطبيقية في توفير خبرة للبحوث في قياس الرأي العام في المؤسسات الكبرى الخاصة والعامة من خلال الاستطلاعات والتحقيقات الكمية (Les sondages) لمعرفة كيفية التحوّلات لدى الرأي العام بتأثيرات الراديو كوسيلة اتصال جماهيرية.

مع وصول النازية (Nazime) إلى الحكم في ألمانيا هربت مجموعة من المفكرين اليهود إلى الولايات المتحدة الأميركية، حيث بدأوا بأبحاث حول الدعاية المضادة للنازية، وتشكلت مؤسسات البحث في مناهضة دعاية "غوبلز".

ومن هؤلاء كورت ليفين (Kurt Lewin) (1890-1947)، وبول لازارسفيلد (Paul Lazarsfeld) (1901-1970)، وتيودور أدورنو (1903-1969)، وماكس هوركهايمر (Max Horkheimer) (1895-1971)، وليو لوفندال (Léo Lovendhal) (1900-1993).

وتركزت أبحاث هؤلاء ونقاشاتهم حول نتائج استخدام الدعاية في زمن السلم وتأثيرات وسائل الإعلام الجماهيري (Effets des mass media) على السلوك.

وأدت النقاشات حول الدعاية إلى مجادلات حول الـ (Mass media) (وسائل الإعلام الجماهيري) والثقافة الجماهيرية (Culture de masse) ومجتمع الجماهير .(Société de masse)

بعد الحرب العالمية الثانية (1939-1945)، تحوّل الاهتمام بالأبحاث في حقل الإعلام والاتصال، من التركيز على الدعاية إلى التركيز على الإقناع (Persuasion)، الأمر الذي فتح الباب أمام حقل جديد من الإبحاث في العلوم الاجتماعية، أطلق عليه "الأبحاث حول الاتصال الجماهيري".

بين أيلول 1939 وحزيران 1940، أطلقت مؤسسة روكفلر حلقة بحثية دراسية، بإدارة جون مارشال (John Marshall) (مدير المؤسسة)، في نيويورك، لدراسة الاتصال الجماهيري. وضمّت مجموعة من الأخصائيين في العلوم الاجتماعية (12 مختصاً)، وكانت تلتقي شهرياً، بهدف استخلاص إطار نظري عام، يسمح للمؤسسة بتحديد المعايير (المبادئ) العامة الدائمة، لتقديم مساعدات مالية محتملة لمشاريع البحث في الاتصال.

ومن هؤلاء الباحثين داخل الحلقة: ليمان بريسون (Lyman Bryson) (جامعة كولومبيا) (الذي أصبح ناشر أعمال الحلقة)، هادلي كونتريل (Hadley Cantril) (البسيكولوجيا)، هارولد لاسويل (Harold Lasswell) (1902-1970) (علوم سياسية - جامعة بال)، ولازارسفيلد، وروبير ليند (Robert Lynd) (اجتماع - كولومبيا).

أدى غزو ألمانيا لبولندا عام 1939، إلى قلب أجندة الباحثين: كيف يمكن للحكومة الأميركية استخدام وسائل الإعلام لإقناع الجمهور مع هذا التحوّل المفاجئ في الحرب بدخول الحرب ضد الألمان؟

لعب لاسويل دوراً حاسماً داخل هذه الحلقة (Ce séminaire)، خاصة بعد أن توصّل عام 1948 إلى تزويد السوسيولوجيا الوظيفية لوسائل الإعلام بإطار مفاهيمي ضمن نموذج من خمسة أسئلة:

"Who says what to whom in what channel with what effects?".

أو

"Qui dit quoi à qui par quell canal et avec quells effets?".

1 - مَنْ : Emetteur.

2 - ماذا : Messages, News, Signes.

3 - مَنْ : المتلقي Récepteur.

4 - الوسيلة.

5 - التأثيرات Effets.

وتأسس هذا الإطار المفاهيمي على تعريف الاتصال (Communications) كعملية إقناع (Persuasion) أي تأثير.

وتمثلت الآفاق المعرفية التي فتحها البراديغم السلوكي Paradigme) (béhavioriste أو مدرسة لاسويل بتزويد وسائل الاتصال، ليس بالإطار المفاهيمي فحسب، بل بتأسيس فروع بحثية، تناولت:

1 - تحليل التحكّم والرقابة.

2 - تحليل المحتوى.

3 - تحليل وسائل الإعلام (Les supports) (الحوامل).

4 - دراسة الجمهور.

5 - دراسة التأثيرات.

وتعرّضت مدرسة لاسويل ونموذجه المفاهيمي إلى نقد تركّز على المأزق المترتّب عن غياب السؤال: لماذا (Pourquoi)؟

تتحكّم المنظمات بالاتصال الجماهيري، وما هي طريقة هذا التحكّم، وهل ثمّة وظائف أخرى للاتصال غير:

أ - مراقبة المحيط، من خلال الكشف عن كل ما يُهدّد نظام القيم أو العناصر المشكلة لها؟

ب - ربط مجموع الأجزاء المشكلة لمجتمع ما.

ت - نقل التراث الاجتماعي (أرمان وميشال ماتلار، ص52).

ومن المساهمات الرائدة في تأسيس الأبحاث في علوم الإعلام والاتصال، عمل السيكولوجي التجريبي كارل هوفلاند (Karl Hovland)

(1912-1961) على تقييم أفلام الدعاية المخصصة لإقناع الجنود بالاشتراك إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. وتابع هوفلاند أبحاثه في جامعة (Yale)، تمهيداً لولادة مهمة للتقاليد البحثية في الإقناع.

وفي مكتبة الكونغرس، وضع لاسويل منهجية لتحليل المضمون (Analyse du contenu)، وطبّقها على رسائل الدعاية البيضاء (Propagande Blanche) (الموجهة للجمهور في البلدان الحليفة)، والدعاية السوداء (Propagande noire)، الموجهة إلى الأعداء، والتي تُخفي حقيقة باعث الرسالة أ, المرسِل.

وفتحـ ت أبحاث لاسويل الطريق أمام مجال الدراسات السياسية في الاتصال.

ويعتبر إيفريت روجرز (Everett Rogers) أنّ ويلبر شرام (Wilbur Schramm) (1907-1947) هو المؤسّس الحقيقي لحقل الدراسات في الاتصال في الولايات المتحدة الأميركية، والذي ضمّن رؤيته نظرة نيوإنسانية (Néo humaniste) للسلوكية الوضعية، انطلاقاً من تعريف الاتصال بأنه فن الإقناع، وعمل قابل للقياس، بالطرائق الكمية، انطلاقاً من المسلمة التي يتفق حولها الباحثون: التأثيرات المباشرة للاتصال (Breton, L'explosion de communication, P. 141).

وتبرز مدرسة فرانكفورت النقدية (Ecole de Francfort) تيودور أدورنو وهاربرت ماركيوز (Herbert Marcuse) التي تنظر إلى "الميديا" كأجهزة توفر هيمنة الإيديولوجية الرأسمالية المسيّطرة.

7 - مساهمة ماكلوهان:

تُعرف مساهمة مارشال ماكلوهان (Marshall Mcluhan) في دراسة تأثير الابتكارات التكنولوجية بأن وسائل الاتصال تغيّر المجتمعات وأنماط الحياة فيها. ومن هذه النقطة صاغ نظريته حول أن "الوسيلة هي الرسالة" (Le médium, c'est le message). وتحدث عن حتمية تكنولوجية، وعن قرية

كونية (Village planétaire)، وعن وسيلة ساخنة ووسيلة باردة.

وكتب ماكلوهان في كتابه "فهم وسائل الإعلام": "هناك مبدأ أساسي يُميّز بين وسيلة ساخنة مثل الإذاعة ووسيلة باردة مثل الهاتف، ووسيلة ساخنة مثل الفيلم ووسيلة باردة مثل التلفزيون. والوسيلة الساخنة هي التي تنقل معنى أو إحساساً واحداً "بوضوح عال". والوضوح العالي هو حالة الامتلاء الجيّد بالبيانات. الصورة الفوتوغرافية بصرياً هي عالية الوضوح، الرسم الكاريكاتوري منخفض الوضوح، ووسيلة ساخنة مثل الراديو لها تأثيرات على المستخدم مختلفة جداً عن تأثيرات وسيلة باردة مثل الهاتف". (برغر، وسائل الإعلام والمجتمع، ص38-39).

الوسائل الباردة	الوسائل الساخنة
هاتف	الإذاعة
العرض التلفزيوني	الفيلم
كاريكاتير - Cartoon	الصورة
الكلام	الكلمة المطبوعة
الحوار	الكتاب
الحلقة الدراسية	المحاضرة

الوسائل الساخنة والباردة عند ماكلوهان

8 - المقاربة اللغوية، البراغماتية (La pragmatique)

لكل من فيلسوف اللغة جون أوستن (John Austin) (1911-1960) وجون سيرل (John Searle) (وُلد عام 1932)، والقائمة على النظر إلى الكلمة ليس من خلال وظيفة القول (Fonction de dire)، ولكن بوصفها أداة إرشادية لما يمكن عمله (Fonction de faire)، أي اللغة التي ينتج عنها عمل أو سلوك، مثل صرّحت (Je déclare)، عمّدتك (Je te baptise)، وَعَدْتُ (Je promets)، أمرتُ (J'ordonne). (La communication: 85).

9 - نظرية تحليل التبادل بين الأفراد (L'analyse transactionnelle)

والتي تبلورت مع البسيكولوجي أريك برن (Eric Berne) (1910-1970)، الذي استخدم مفاهيم عدّة، أهمها المتعلقة بحالات الأنا (Etats du moi)، وكل فرد له حالات ثلاث: الرفاق (Le parent) (سلطة أو تسلية)، الناضج (L'adulte)، التحليل الموضوعي (Analyse objective)، الطفل، مزاج وخضوع (Humour, Soumission)، فالاتصال بين فردين يكون التبادل انطلاقاً من حالات هذين الفردين المناسبة للخطة العمرية.

وهدف تحليل التبادل (Analyse transactionnelle) هو فك ترميز هذه العملية الاتصالية.

10 - تحليل الحديث (L'analyse de conversation):

وهو حقل بحثيّ جديد شقّ طريقه في سبعينات القرن الماضي من مقاربات متعددة:

1 - L'éthnographie de la conversation دراسة وصفية للحديث، المحادثة (هايمز، D. Hyms).
2 - منهجية النظام الاجتماعي (L'éthnométhodologie) (غارفنكل Carfinkel).
3 - الاجتماعي - اللغوي (La sociolinguistique).
4 - أنتربولوجيا الاتصال (Labov, Fishman), (Antropologie humaine), (Coffman).

وتحليل الحديث يدرس الأحاديث في الواقع الحقيقي، ويُبرهن أن اللغة في الحياة اليومية الجارية، لا تتطابق مع القواعد النحويّة الشكلية. يفترض الحديث ثقافة مشتركة بين المتخاطبين (المتكلمين).

وعليه، فتحت الدراسات حول أنواع الاتصال وأشكاله الباب نحو آفاق معرفية جديدة، في هذا الميدان. والاتصال يكون إنسانياً أو اجتماعياً، وهو يعني الدخول بعلاقة مع الآخر عبر زمان ومكان وآليات اتصال

ولأهداف معينة. فلا اتصال بلا هدف. ويمكن تمييز أربعة أشكال من الاتصال أو التواصل:

أ - التواصل مع الذات (Communication intrapersonnelle).

ب - التواصل بين شخصين (Com. Interpersonnelle).

ج - التواصل بين مجموعة صغيرة (Com. En petit groupe).

د - التواصل الجماهيري (Com. Publique).

أنماط الاتصال (Les modalités de la communication):

حدّدنا الاتصال على أنه عملية تبادل بين أفراد، والهدف منه هو حلّ مشكلات. وفق أية قوالب أو صيغ أو نماذج أو أنماط يمكن أن يسير هذا الاتصال؟ وفق الأنماط التالية:

1 - النمط الإخباري (La communication acte d'information).

2 - نمط تحديد الهوية بالنسبة للآخرين (La communication acte de positionnement personnel).

3 - النمط التعبوي (La communication acte de mobilisation d'autrui).

4 - النمط العلائقي (Concrétisation et spécification de la relation humaine).

5 - النمط المرجعي أو المعياري (Acte d'élaboration de normes relationnelles ou d'information).

1 - النمط الإخباري (La communication acte d'information):

الاتصال فعل الإعلام. أوّل شكل من أشكال الاتصال هو الاتصال من أجل المعلومات. أية عملية اتصالية فيها معلومات وفق رسم E-M-R. هذا يؤدي إلى وضع المسلمة المعرفية التالية: "أن أتّصل يعني أن أعرف".

هذا الرسم أصبح قديماً لأن التحوّلات التي أصابت المتلقي نتج عنها إسقاط E-M-R. لأن ليس كل عملية فيها مرسل، يكون بالضرورة فيها مستقبل. لأن التفاعلية اليوم بين E وR تفرض رسماً جديداً دائرياً.

الاتصال بالتأكيد في جانب منه هو نقل معلومات. لا حضارة بلا اتصال لأن ما يتحكم فيه هي معرفة تنمو وتتغيّر. إلام يؤدي الاتصال؟ الاتصال يؤدي ليس فقط إلى نقل المعلومات وإنما إلى أن يصبح بإمكان المتلقي التعرّف أكثر إلى المرسل والعكس. تم تجاوز نمط E-M-R لأنه بسيط وأحياناً لا يكون المرسل شخصاً وإنما وسيلة.

2 - نمط تحديد الهوية بالنسبة للآخرين

(La communication acte de positionnement personnel):

نمط تحديد الهوية أو تموضع المرسل نحو المتلقي. كيف ينظر المرسل إلى المتلقي E)، أي ما هو موقعه في عملية الاتصال؟ حسب هذا النمط إن الشكل E-M-R يقبل ضمناً القول إن موقع كل اتصال يمكن أن يكون مرجعاً للتبادل بين الأفراد، وهذا يخفي ظواهر التموضع أو الموقع بالنسبة للمرسل والمتلقي، أي تحديد الهوية بالنسبة للآخرين. حتى تكون هذه العملية واضحة وناجحة يجب تحديد هوية المتصل. استلام الـ (Message) يدخل فيه بعد نفسيّ، نفعيّ.

والمقصود بالهوية: السلطة - المكانة للمشاركين في الاتصال. وتتوقف أهمية والاتصال ونجاح التبادل الإنساني على تحديد هوية الأفراد في عملية الاتصال. حسب نمط E-R يكون أحد الفاعلين يبث والآخر يتلقى. لكن هناك مساواة في عملية التبادل. ولكن إن تبدّلت العملية وصار الذي يتلقى يبث أيضاً ليس هناك مساواة. نجاح هذا النمط يتوقف على تحديد الهوية والمكانة .Statut إه هذا الشكل يصادر المساواة بين شركاء الاتصال وتصبح الظاهرة الاتصالية مرتبطة بعلاقات السلطة. ويرتبط تحديد الهوية بغائية الاتصال. إن هذه الغائية للاتصال تتوضح بالنسبة لباحثين مثل (Varela) و(Ghiglione) تحدّد هدف الاتصال بخلق هوية بالنسبة للآخرين. بالنسبة إلى هذا النموذج الثاني هو خلق ثقة مخالفاً للنموذج الأوّل. إن فعل التحقق أي وصول الرسالة إي الإنجاز الاجتماعي يتم بواسطة اللغة التي تعطي الحياة لعالمنا. تأكيدات، وعود، طلبات وتصريحات.

في الواقع أن شبكة متواصلة من الحركات التعبيرية تتضمن الشروط والرضى، وتشكّل أداة للاتصال وهي الحكمة الحقيقية التي ترسم هويتنا. يحدد لنا الاتصال الاجتماعي هوية الآخرين، ونقصد بهوية الفرد ووظيفته ومركزه الاجتماعي وميوله واهتماماته. وهذه المعلومات هامة لأنها هي التي سوف تحدد أسلوب اتصالنا به وتؤدي معرفة هوية مصدر الرسالة إلى أن تكون اتجاهاً عقلياً ونفسياً عنه وتجاهه. وانطلاقاً من سؤال أساسي: مَن أنا بالنسبة إليك، ومَن أنت بالنسبة لي؟.

3 - النمط التعبوي (La communication acte de mobilisation d'autrui):

الاتصال كفعل تعبوي والأساس فيه هو التأثير. كيف يمكن أن تقوم (Message) بالتأثير على الـ (Récepteur). يقول (Ghiglione): "هو دائماً محاولة للتأثير في هذا الآخر". فانطلاقاً من النمط الثاني وبما أن R يثق بـE كيف سيستخدم ذلك للتأثير على R؟ هذا يعني أنه يجب تحديد ما أفكّر به أو ما أريد عمله بالنسبة للآخر. أي أن أحدد وضعي إزاءه، انطلاقاً من ذلك يتحدّد مدى إمكانية الرسالة في التأثير على الـE. في تحديد كل هوية يكون ارتدادات بالنسبة للآخر. وانطلاقاً من هذه الارتدادات يعتقد (Ghiglione) أن كل تبادل اتصالي هو حامل لرهانات حيث يُعاد بناء الحقيقة انطلاقاً من أن الآخر بالنسبة للآخر هو في عملية اغتراب عنه. إن الاتصال بهذا المعنى مخصص لإحداث تأثير. هو إعادة بناء المشهد لا يكتفي باللغة الكلامية ولكن يحتاج إلى فعل.

بكلمة، إن معرفة هوية الآخرين، تحدّد مدى استجابة أو عدم استجابتنا لفحوى الرسالة التي ينقلها، أو يحدّد ما يمكن أن نتوقعه من تفاعل أو عدم تفاعل في المستقبل (نجاح العملية الاتصالية يتوقف على معلومات ما قبل الاتصال، وهذا له علاقة بالعامل النفسي والعقلي).

حسب (Coffman) (1994)، لنتمكن من الاتصال، لا بدّ من امتلاك هوية ما، لإعادة تأويل دور الذي قام بعملية الاتصال.

4 – النمط العلائقي (La communication: acte de concrétisation et de spécification de la relation humaine)

كل الذين حاولوا وضع مقاربة للإنسان، وضعوا في البداية أصلاً أو مبدأ. مثلاً الاقتصاديون اعتبروا أن الإنسان حيوان اقتصادي. علماء النفس اعتبروا الإنسان حيواناً نفسانياً. علماء السياسة والاجتماع اعتبروا الإنسان حيواناً اجتماعياً ومدنياً وذا عقل سياسي بالطبع. أما أتباع النمط العلائقي فينطلقون من أن الأصل في المجتمع هو الاتصال، وانطلاقاً من هذا الاتصال يتحدّد الوجود الاجتماعي للأفراد. بمعنى ما قد يصبح الاتصال أداة الترابط والتفاعل والتفاهم الاجتماعي والتبادل الاجتماعي. أما التفاهم والتبادل فيحتاجان إلى لغة ورموز ومعيار وخلفية أخلاقية وقانونية.

الاتصال يبدو كأصل وجودي للعلاقات الاجتماعية، أي حتى تكون هناك علاقات بين الناس، لا بد أن يتوفّر الاتصال، وبالتالي يصبح الاتصال أداة لهذه العلاقات.

الاتصال هو للدخول بعلاقة مع الآخر عبر زمان ومكان وعبر آليات اتصال ومن أجل أهداف معينة. فلا اتصال بلا أهداف. هل الهدف من الاتصال هو نقل معلومة؟ أم تغيير اتجاه بعد تحديد الهوية؟ نحن ننطلق من الاتصال لتكوين علاقات انسانية إلى اتصال لتفاعل اجتماعي أو لهيمنة داخل المجتمع أو لتحرّر داخل المجتمع. هل الاتصال أداة هيمنة أو تحرّر؟

هذه الظاهرة الاتصالية قابلة للدرس لأنها قابلة للملاحظة وقابلة لتكوين معطياتها ومسائلها لأنها تجري بموضوعية بمعزل عني كباحث أو كفرد. فوجودها غير مرتبط بذاتي. وأنا لا أراها كإحساس. وإنما بموضوعية، أي أنها خارجة عن إرادتي.

كيف يحصل الاتصال على المستوى الإنساني والاجتماعي؟

في الاتصال الإنساني هناك إما تجاذب (Sympathie) أو نفور (Antipathie). متى يحدث التجاذب والنفور؟ يحصل التجاذب بين

المتشابهين (Semblables). والنفور بين غير المتشابهين. وهنا السؤال المطروح حول دور اللغة ودور الرموز. اللغة والمعيار والرموز والخلفية الأخلاقية والقانونية هم حصراً على الاتصال الاجتماعي وليس الأفراد. واللغة في الاتصال الإنساني تهدف إلى التفاهم. أما في الاتصال الاجتماعي فتهدف اللغة إلى التبادل. وفي بعض الأحيان لا تستطيع اللغة أن توصل إلى التفاهم. والاتصال، خاصة عندما يذهب إلى المجتمع ليس إرادياً. ولكنها موجودة بطريقة موضوعية. وحين نتكلم عن الاتصال الاجتماعي نتحدث عن وجود وسائط لهذا الاتصال أي (Média). حين بدأت حركة الإنترنت بدأ الاتصال مع الشباب، أي مع مَن يشبهنا. ولكن هل يستطيع الإنترنت تكوين ظاهرة كبيرة ضد الطائفية في لبنان مثلاً؟ طبعاً لا.

- إذاً الاتصال الإنساني هو تكوين العلاقات الاجتماعية والإنسانية مع مَن يشبهنا.
- الاتصال الاجتماعي هو لإقامة العلاقة داخل المجتمع على هذا النحو.
- هذا الاتصال لا يقف عند حدّ بل يتطوّر عند أي تطوّر يحدث في اللغة والرموز والمعايير والخلفية الأخلاقية والقانونية، ويحدث في وسائل الاتصال نفسها ما ينتج تطوّراً في الظاهرة الاتصالية بكل جوانبها.

5 - النمط المعياري

(La communication: acte d'élaboration des normes relationnelles):

يجري الاتصال وفق قواعد ومعايير. مثلاً، تعميم النموذج الديمقراطي في العالم من الوجهة الغربية المرتبطة بالرأسمالية، أليس نوع من تعميم المعايير والقواعد كي تتم عملية الاتصال والسيطرة بشكل أوسع وأسرع؟ في إطار عملية الاتصال، يجب أن تتمّ هذه العملية على نطاق كوني. والاتصال لا يمكن أن يتحقق إلا في دائرة من القواعد المشتركة.

مثال آخر العولمة. وهي أن نأخذ النموذج الغربي ونعمّمه على العالم

حتى تصبح عملية الهيمنة والسيطرة أسهل. إذاً لا بدّ من تغيير المعطيات ووضع قواعد ومعايير لعملية الاتصال تسبقنا اجتماعياً، في حال الغزو الثقافي. وبالرغم من أني أختلف مع هذا الغزو أو هذه الثقافة إلا أنني أتلقاها. وهنا يحدث إما القبول أو النفور. ويحصل النفور حين لا تكون الأهداف هي نفسها. الاتصال هو أداة، هذا الاتصال الإنساني والاجتماعي حتى يتحقق لا بدّ من قواعد معينة، وهذه القواعد هي المعايير. ولا يمكن للاتصال أن يتحقق أو أن يرى النور أو أن ينتقل من القوّة إلى الفعل بمفهوم أرسطي، ما لم تكن هناك قواعد يتم ضمنها أو في سياقها.

إن الاتصال من وجهة نظر هابرماس ينطلق من أن فعل التواصل هو فعل غائي عقلاني. في هذه الغائية لا يحدث الفعل إلا في سياق من الإجراءات الأخلاقية. أو المعايير الأخلاقية التي تجعل من الفعل مقبولاً أو مرفوضاً. وتكمن أهمية الفعل الاتصالي في المجتمع الديمقراطي من كون أنه يترتب على العملية الاتصالية معنى أن رأي الفرد أو صوت الفرد له تأثير في القرار النهائي.

ولشرح ذلك، يعتبر تشومسكي[1] (Chomsky) (1928) أن الغرب والأميركيين لا يريدون الديمقراطية في هذه منطقتنا. لأنه من شأن الديمقراطية أن تُنتج رأياً عاماً معادياً للأميركيين على خلفية القضية الفلسطينية. ولأنه من شأنها أن تنتج رأي عام له علاقة بتشكيل السلطة. وهذا ما لا يريده الغرب. هنا نسأل: هل يستطيع الفعل الاتصالي أن يشكّل ضمن معايير وقواعد معينة تأثيراً في الأفراد في صناعة قرار مستقبلهم؟ في الغرب هذه الإمكانية إلى حدّ ما متوافرة. لذلك نشهد الحرب على الوسائل الإعلامية هناك. فالإعلام سلطة، ولا يمكن للإعلام أن يكون خارج السلطة. والإعلام قوة اجتماعية، ولا يمكن أن يكون خارج القوة الاجتماعية. ولكن هل تستخدم هذه القوة من أجل تأييد سيطرة أو تشكيل

(1) أفرام نعوم تشومسكي، أستاذ جامعي في اللغويات. أسهم في إشعال شرارة الثورة الإدراكية في علم النفس. له مؤلفات عديدة.

هيمنة ما أو من أجل تشكيل حرية ما؟ في البداية كانت القوة عسكرية أو دينية أو إيديولوجية أو سياسية، بدأ يدخل الإعلام وبدأت تتحوّل وسائل الإعلام لصناعة عقل يقبل وليس عقل يرفض. وبات هذا هو الهدف لوسائل الإعلام، تشكيل عقل يقبل. هنا تصطدم المعايير والقواعد الموضوعة مع البنية الأخلاقية والقانونية لمجتمع من المجتمعات في ما يخصّ الديمقراطية.

مثال ثانٍ، من نتائج ظهور الرأسمالية والليبرالية في الغرب هي الفردانية. تمزقت الكتلة الكلية وتصدّعت فكرة الجماعة وصار هناك أفراد. أي كتل وذرات اجتماعية تُشكّل المجتمع. فيأتي الإنترنت ويقوم بإيصال مباشر مغاير للاتصال الذي تقوم به الصحيفة، فيصبح الاتصال على صعيد فردي. وهذا يساعد في تفكيك المجتمع. بينما في المجتمعات الأفريقية والعربية وبعض مناطق آسيا لا وجود لأفراد وإنما لكتل أو مجموعات التي هي القبيلة أو العائلة أو الأسرة.

إن مرجعية القواعد العقلانية هي معطى أوّلي للوجود الاجتماعي والاتصال الإنساني. ولكن إذا كان هناك من قواعد لا بد من أن تكون هناك شعائر وطقوس لهذه القواعد عند الجماعات الإنسانية. إن الاتصال بهذا النمط يساهم في بلورة قواعد التبادل الاجتماعي. لذلك مثلاً في المفاوضات هناك مجموعة من القواعد. فأول الأشياء في علم المفاوضات هي أن المعركة تكون دائماً على جدول الأعمال[1].

(1) يمكن العودة إلى كتاب Alex Mucctiellti : (Les situations de communication) لمزيد من الاطلاع والفهم.

III

المســـائل

المحاور، البراديغمات، الإشكاليات

المسألة: لغة، يقال: سَألَ سؤالاً ومسألة. وسألته عن الشيء استخبرته (لسان العرب، مادة: سأل).

والمسألة جمعها مسائل، وهي المطالب التي يبرهن عليها في العلم، ويكون الغرض من ذلك العلم معرفتها. (الجرجاني، كتاب التعريفات، مادة مسائل).

وعرفاً، المسألة: هي قضية نظرية في الأغلب تتألف منها حجتها، وهي مبانيها التصديقية، وقد تكون ضرورية محتاجة إلى تنبيه، وأما ما لا خفاء فيه فليس من المسألة في شيء.

والمراد القضية الكلية التي تشتمل بالقوة على أحكام تتعلق بجزيئات موضوعها. (أبو البقاء، الكليات، مادة مسألة، ص857).

والقضية النظرية عند أبي البقاء الكفوي في الكليات هي التي يسأل عنها، ويطلب بالدليل إثباتها في العلم.

- وهي من حيث يسأل عنها تسمى مسألة.
- وهي من حيث يطلب حصولها: مطلباً.
- ومن حيث تستخرج من البراهين: نتيجة.
- ومن حيث يُبنى عليها الشيء: أصولاً.
- ومن حيث أنها منطبقة على جزئيات موضوعها: قاعدة.
- ومن حيث تتألف منها الحجة: مقدمة وقضية.
- ومن حيث تحتمل الصدق والكذب: خبراً.

واختلاف العبارات باختلاف الاعتبارات. (الكليات، ص713).

والمسألة، بالفرنسية ترادف (Question). وهو طلب إلى شخص يعلم بأمر ما. هو استفهام (Interrogation).

والـ (Question) يدل على: Sujet qui implique des dificultés, donne lieu à discussion. Affaire, matière, point, problème. (LE ROBERT, terme question).

فالسؤال هو موضوع ينطوي على صعوبات، تقتضي مناقشة، هو شأن، مادة، نقطة، مشكلة.

والمسألة التي سنُعنى بها في هذا البحث تتعلق بالمواضيع والإشكاليات والنظريات بقواعدها العامة ومسلماتها وأصولها. أي البراديغمات المعتمدة في حقول الإعلام والاتصال، وهي مترابطة، فالمواضيع تحتاج إلى نظريات، وهذه تترتب عليها إشكاليات، إلا أن طبيعة الدراسة، اقتضت تبويباً ثلاثي الأبعاد.

أ - المسائل بوصفها محاور بحث:

بعد التعرّف إلى نشأة الإعلام كمهنة، بوسائلها ووظائفها وتقنياتها وركائزها، والإعلام والاتصال كمادة بحث ودراسة، بات بالإمكان التطرّق إلى المسائل الإعلامية بوصفها محاور بحث ومصادر لمشكلات بحثية، في هذا العلم الناضج.

يقسّم الباحثون في حقل الإعلام والاتصال الأبحاث بين محاور ثلاثة:

1 - المحور الأوّل: الجوانب الاجتماعية والثقافية لوسائل الاتصال (وسائل الإعلام).

2 - بعاالمحور الثاني: محتوى الرسالة الإعلامية.

3 - المحور الثالث: الاتصال المنظّم.

وانطلاقاً من تحديد المحاور يمكن تحديد البراديغمات الملائمة لكل منها.

المحور الأول: الجوانب الاجتماعية والثقافية لوسائل الاتصال (الإعلام):

تؤثر وسائل الإعلام فينا على مستويات عديدة "فهي تعطينا الأفكار، وتساعد في تشكيل آرائنا ومواقفنا، وهي تؤثر في عواطفنا، وتؤثر فينا من الناحية الفسيولوجية، وتؤثر في سلوكنا". (بيرغر، وسائل الإعلام والمجتمع، ص95).

ويتناول الباحثون، في هذا المحور، التأثيرات المتبادلة لوسائط الاتصال الجماهيري: الصحف الكبرى، الراديو، التلفزيون، السينما، والإعلام الجديد والوسائل الرقمية (Médias numériques) في ضوء ثورة الاتصالات والتقدم التكنولوجي الهائل، من زاوية التفاعلية (Interaction personnelle)، وعلم النفس السلوكي (Béhaviorisme).

لعبت الصحافة دوراً هائلاً في نشر الثقافة وتكوين الرأي العام والدعاية على شتى ألوانها، ممهدة الطريق لظهور علوم الدعاية، من الدعاية الإعلامية إلى الدعاية التجارية والإعلانية، إلى الدعاية الدينية والإيديولوجية إلى الدعاية الفنية.

وأدّت دراسة العلاقات بين "الميديا" والحياة السياسية إلى طرح السؤال حول الرابط بين ازدهار وسائل الاتصال الحديثة، وتكوّن الآراء، من خلال اتساع فضاء التعبير والحملات الانتخابية واستطلاعات الرأي والاستفتاءات.

ومن النقاشات حول مفهوم الرأي العام كانت في عشرينات القرن الماضي، بين والتر ليبمان (Walter Lippmann) وجون دوي (John Deuey) (1859-1952).

الأول كان صحافياً ومحللاً سياسياً، وضع عام 1925 كتابه (Le public fantôme) أو "الجمهور الشبح"، والذي شكك فيه بفعالية الجمهور في التقاط المشكلات وحلها، مؤكداً أن قدرة الرأي العام محدودة في

التأثير على الشؤون العامة، فضلاً عن أن الرأي العام غير جدير بضبط مشكلة عقلياً وإيجاد حل لها، (Rémy Rieffel, sociologie des médias, p36).

والثاني فيلسوف براغماتي، أميركي، ردّ على أطروحات ليبمان، في كتاب نشره عام 1927، بعنوان "الجمهور ومشكلاته" (Le public et ses problèmes)، ودعا فيه إلى بحث مشكلات الجمهور خارج لا مبالاته، أو ما أطلق عليه "كسوف الجمهور" أو اختفاء دوره، ورأى أنه من الضروري تشجيع إجراء تحقيقات معمقة لمعرفة أفضل الأنشطة الإجتماعية ونشر النتائج على نطاق واسع لصنع جمهور يستحق هذا الاسم.

وفي هذا الصدد، يمكن دراسة تأثير الميديا على الجمهور، وعلى الرأي العام، إن لجهة تضخيم ظاهرة الرأي العام، أو صدى ما تبثه وسائل الإعلام أو تنشره، أو لجهة تكوين اتفاق أو اجتماع على مسألة ما.

إن "الميديا" هي أدوات نقل إما صور أو معلومات أو أخبار أو تعليقات. نحن كباحثين نريد درس تأثير هذه المعلومات أو التعليقات على الجمهور، من الجوانب الاجتماعية (Optique sociale)، هذه مقاربة، أو من عدسة ثقافية (Optique culturelle)، أعبّر عنها (كباحث) إمّا بقيم (Valeurs) أو بسلوك (Comportement)، أو آراء جديدة (Opinions).

موضوع التواصل ليس النقطة المحورية في هذا المحور، وإنما المسألة الأساسية هنا هي كيف يأتي الإعلام من أجل إعادة صياغة إما القيم أو السلوك أو تبني آراء ومفاهيم جديدة، وهذه مسألة ثقافية. أما مسألة القيم والسلوك فهي مسألة اجتماعية، ممكن أن تكون التأثيرات دينية أو اقتصادية. نلاحظ أنه لدينا الـ (Média) التي هي طرف أو محفّز (Stimulus) والجمهور الذي هو (Réponse) والذي يتجاوب أو لا مع الـ (Média).

إذا أخذت مثلاً دور التلفزيون بتغيير القيم الاجتماعية. البراديغم هنا الذي استعمله لدراسة هذه الظاهرة هو البراديغم السلوكي (Behavioriste).

والذي يريد دراسة هذه الظاهرة يجب أن يتعمّق في علم النفس السلوكي، والكلينيكي أي العيادي، وتحليل نفسي واجتماعي. لذلك خبراء الإعلام الذين يعملون في الدعاية يكونون من تكوين علم النفس. كيف أقوم بهذه المقاربة؟ كيف تتحرّك هذه العملية وما هي مستوياتها؟

- مستوى المعلومة.
- مستوى الصورة.
- مستوى الخبر.
- مستوى التعليق.
- مستوى الحملة الصحفية.

في هذا المحور الإنترنت ليس لاعباً أساسياً فيه ولا الفيسبوك، وإنما التلفزيون والصحيفة وأحياناً الراديو. إذاً في هذا المحور ندرس تأثير وسائط الاتصال الجماهيري على الجمهور، وبطريقة موضوعية (Objectivement).

مثال آخر: تأثير التلفزيون على إعاقة تعلم الأولاد.

مثال آخر: كيف يُعيد الإعلام التلفزيوني في لبنان إعادة إنتاج القيم، من دون خلق قيم جديدة؟ ما الذي يحرّك سلوك الجماعات البشرية؟ تحركه الحاجات (Besoins) والغرائز (Instincts) والدوافع (Motivations). والحاجات والدوافع والغرائز ليست نفسها. والكائن الحيّ الذي تحرّكه هذه المحرّكات لا تشتغل في الفراغ، وإنما في البنية العقلية وفي المستوى الثقافي والبُعد الاجتماعي والأخلاقي. كيف تتشكّل وتعمل في المجتمع الحديث؟ لا يمكن أن تعمل من دون خلفية ثقافية وخلفية عقلية وبمستوى ما من الوعي. هنا يأتي دور الإعلام ويدخل إلى المعادلة من خلال المعلومات التي يضخّها. المدرسة والعائلة والإعلام هي التي تشكّل الوعي، ولكن وسائط الإعلام الجماهيري هي أساسية في تشكّل العقل والوعي الذي يؤسس لاحقاً للسلوك. ودراسة السلوك الجماهيري أمر صعب ومعقد.

إذاً تدرس هذه الظاهرة، تأثير وسائل الإعلام على الجمهور في مسألة ما عبر البراديغم السلوكي.

مثلاً لدى دراسة أية قضية ناشئة أو حادثة، يُعنى بها الجمهور، أطرح عدة أسئلة إذا كنت أريد أن أدرس هذه القضية:

- ❖ هل كانت ردّة الفعل نفسها لو كانت صحيفة ما، هي التي أثارت الموضوع؟
- ❖ هل كان تلفزيون الدولة الرسمي سيعطي الفعالية نفسها التي أعطاها تلفزيون آخر، تمتلكه جهات غير رسمية؟
- ❖ هل تأثير الإعلام الشفهي والمرئي أقوى من تأثير الإعلام المكتوب؟

إذاً، في أي عملية اتصالية، ونحن ندرس التأثير نتكلم عن الخلفية التي لا تُرى. وعلى الباحث أن يكشف هذه الخلفية، لأنه إذا لم يستطع كشفها لا يمكن القيام بدراسة دقيقة لتأثير الـ (Media)، لأن الخبر يرتبط بالخلفية، والصورة ترتبط بالخلفية وكمية المعلومات التي تضخ ترتبط بالخلفية. مثلاً: إذا حصل حدث ما نعيده في كل نشرة ونأتي بمحلل يؤثر في طريقة مختلفة إذا ما أشرنا إليه لمرة واحدة. هنا يمكن أن نرى تأسيس نظرية حول كمية المعلومات التي نضخها وطبيعة الوسيلة الإعلامية والخلفية.

في التأثير والإعلام لا يمكن أن نتحدث عن الحقيقة. فالبحث لا يدور حولها، وإنما يكون البحث موضوعي ومعرفي. في الغريزة لا نؤتي أفعالاً من دون خلفية معينة. لدرس أي موضوع له علاقة بالتأثير لا بدّ من دراسته على المستويات التالية:

1 - الثقة بالـ (Média) المستخدمة ومدى صدقيتها.

2 - السلطة المرتبطة بها هذه الـ (Média).

3 - طبيعة المعلومات والأخبار والتعليقات والصور والمصدر التي أتت منها وكيف تقديمها.

4 - هل وصلت إلى ذهننا بنقاء أو مشوّهة أو خلافاً لما كان مقرراً أن تصل إليه، أي المعلومات؟

5 - ما هي المعلومات التي وصلت في المرتبة الأولى زمنياً. ولأن الإعلام أدرك أهمية هذا الأمر بدأ ببث الخبر العاجل، فهو بذلك يصنع سلوكاً ويكوّن رأياً.

6 - الخلفيّة.

كباحث أَدرس الظاهرة بطريقة معرفيّة ولا أقوم بإنتاج الحدث.

ويجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن الإعلام كان في البداية عبارة عن نشرة في ساعة معينة. اليوم تغيّر وصار الخبر مثل الهواء، أي حاجة ضرورية، وهنا خطورة اللعبة الإعلامية.

وهذا المحور يقودنا إلى تلمّس مسائل بحثية قوية، يمكن إدراجها تحت باب علوم التلفاز. فبعد أن أصبح مشاهدو التلفاز موضوعات بحث (الجمهور، المشاهدون) حتى أصبحت كذلك اجتماعية التلفاز، أي الطريقة التي يجمع فيها الناس أو يفرّقهم، موضوعات بحث أيضاً، لا سيما الطريقة التي من خلالها يعزّز بُنى سلطة العائلة أو يقوّضها.

ومن المسائل البحثية التي ترتبت على التلفاز وتأثيره، أن أحد فروع الدراسات الثقافية يهتم بتأثير التلفاز على المجال العام أو الفضاء العام.

وفي هذا الفرع يمكن إعطاء بعض المسائل على سبيل التنويه، ليس إلا:

1 - تأثير البرامج الثقافية على تغيير السلوك عند الجمهور.

2 - تأثير وسائل الإعلام على التنشئة الاجتماعية.

3 - تأثير البرامج الثقافية والتعليمية على المعرفة عند الأطفال.

4 - تأثير البرامج الدرامية على السلوك.

5 - تأثير الإعلانات على الجمهور، من حيث تنمية عاداته الاستهلاكية.

6 - دور كتب وقصص ومجلات الأطفال أمثال: "السوبرمان" و "الوطواط" في تشكيل تصورات الطفل لمثله وللعالم الخارجي.

7 - دراسة تأثير وسائل الإعلام الجديدة واستخداماتها وإشباعاتها مثل استخدام الأنترنت والهاتف الجوال والألعاب الألكترونية.

ولا بدّ من كلمة حول مفهوم تأثير (Effet): في السياق العلمي، ندرس ظاهرة تأثيرات "الميديا" على الأفراد، ويمكن تعريفها بدقة من خلال مراحل ثلاث:

1 - قياس رأي الأفراد، عبر استمارة بادئ ذي بدء.
2 - شرح، أو توضيح الآراء وفقاً للإجراء المعطى.
3 - ثم نجري قياساً جديداً للآراء بعد التعرّض (أي بث الرسالة أو المعلومة).

والتأثير هو حاصل الفرق بين القياس الأول والقياس الثاني.

المحور الثاني: محتوى الرسائل الإعلامية
(Le contenu des messages médiatisés):

يُعالج هذا المحور من جوانب العملية الاتصالية: الرسالة، أو الرسائل المبتناة بدءاً من اللغة الصوتية أو الأيقونية باعتبار الأفراد أعضاء في جماعة. وعليه يصبح تحليل الرسائل الإعلامية هو تحليل لبناء وإنتاج اجتماعي للمعنى. فالوضوح لا يحصل دائماً، والرسائل ترتبط بأولئك الذين يبعثون بها. (حسين سعد. البراديغمات المستخدمة في علوم الإعلام والاتصال وإشكالياتها المعرفية).

ما هو المقصود بالرسالة؟

المقصود بها في شكل أساسي هو المعنى. السلوك البشري لا ينطلق إلا من المعنى. والسلوك البشري هو سلوك حيواني + ثقافة (وعي). عندما نرى طفلاً، يعنينا لأنه مشفوق عليه، وهذا هو المعنى. فنحن لا نراه حسب ديانته أو انتمائه السياسي، أو حين نرى حادث سير وقع نتحرك لأن المعنى هو الذي دفعنا للتحرّك. وكباحثين لا ندرس الرسالة الإعلامية بحدّ ذاتها، وإنما ندرس المعنى المرتبط بها. وهذا المعنى هو جزء من البناء الاجتماعي للمجتمع (Structure sociale).

الرسالة تكون إما من خلال الصوت أو الكلمة أو الرمز أو الصورة أو (Icon). في هذه الرسالة ما يبحث عنه الباحث ليس الرسالة بحد ذاتها وإنما المعنى المرتبط بالرسالة. لذلك لا يعمل الإعلام سوى على المعنى. فالرسالة التي تصل ليست رسالة الصورة وإنما رسالة معنى الصورة. مثلاً إذا شاهدنا جثة على التلفزيون وتبيّن أنها لمقاتل ما، كل فرد يراها حسب خلفيته.

يرتبط بناء المعنى بالعناصر التالية:

1 - الخلفية.

2 - الثقافة.

3 - قدرة المرسل الذي وحده يعلم معنى الصورة. وهذه الصورة إذا وصلت، والذي استلمها عرف المعنى منها تكون العملية الاتصالية غير ناجحة.

إذاً الأساس في العملية الاتصالية هنا هو المحتوى، وهذه تعتبر مسلمة إعلامية.

اللغة الصوتية أو الأيقونية:

اللغة الصوتية في الرسائل الإعلامية (Mediatisés) مهمة، فالصوت يتم به إدراك معنى مختلف يهدف إلى التأثير على الجمهور.

تحليل لبناء وإنتاج اجتماعي للمعنى:

المعنى يرتبط ببناء وإنتاج اجتماعي منظم (Système). لماذا يعمل الإعلام في المجتمع الحديث. لأن المجتمع الحديث صار عنده تقارب بالنظرة للأشياء على مستوى عقلي وثقافي. إذاً هناك إمكانية لالتقاط معنى من المعاني. لذلك يأتي الإعلام بأشخاص ليشرحوا الموقف ويدافعوا عنه وعن المعنى.

والرسائل تأتي من مصدر واحد، وتصل إلى عدد كبير من المتلقين،

فالتحليل يتركز على المعنى الموجّه لها، أي للرسالة. فالرسائل التلفزيونية لا تشبه عناصر القصة، وهي توجّه إلى قيم واضحة. والمحتوى الرمزي لإعلان ما يقودنا إلى شيء آخر عبر صفات هذا المنتج، وبالنظر إلى الصورة التي تجعلنا نرتبط به. وعليه يصبح تحليل الرسائل الإعلامية هو تحليل لبناء وإنتاج اجتماعي للمعنى، (حسين سعد، م.س.). ويلائم هذا المحور مقاربتان للتحليل: تحليل المحتوى التقليدي، والتحليل السيميائي. وهاتان الطريقتان في تحليل الرسائل تؤديان إلى المعنى الموجّه للرسائل الرموز وفقاً لتقنية مختلفة، مما يؤدي إلى إدراك الدلالة غير الظاهرة لتلك الرسائل.

مثلاً، مسلسل ناجح، لماذا يحبّه الجمهور؟ لأن المعنى الذي التقطه الفرد في الإطار الاجتماعي له، يجعله يتجاوب معه أو العكس. لذلك يختار توقيتاً معيناً لبث مسلسلات معيّنة، أو لتهيئة الجمهور لحدث معيّن.

والمعنى الرمزي له هدف آخر هو التسويق، اكتساح السوق، المال... إلخ. لذلك في ما يخص هذه المواضيع نستعين بمدرسة علم النفس، أو بتقنية تحليل المضمون، أو تقنية السيميولوجيا.

هل بإمكاننا أن نستنتج الآن أن وراء الرسالة الظاهرة في الإعلام رسالة غير ظاهرة؟ وهل تصبح الدراسة تبحث عن الرسالة غير الظاهرة؟ هل تخفي الظاهرة الإعلامية، ظاهرة غير مرئية؟

ومن المسائل التي يمكن بحثها في هذا المحور دراسة المواقع الإلكترونية وتحليل مضامينها. فقد فتح الأنترنت آفاقاً للبث والإرسال بدمج النماذج السابقة، كالراديو والتلفزيون، وفتح لها آفاقاً جديدة، بمعزل عن ضغوط الأجندة اليومية.

المحور الثالث: الاتصال المنظّم

(La communication organisationnelle)

التنظيم يشكّل أرضية ملائمة لدراسة الاتصال، ومن غير الممكن فصل الاتصال عن التنظيم في هذا المحور. وحسب بعض الباحثين أصبح التنظيم تجريداً لا يتجسّد إلا بالاتصال، عبر الرسائل الشفهية والمكتوبة، وغير الفعلية والإعلامية.

بداية، الميّزة الأساسية للمجتمع الحديث هي التنظيم. المقصود بالتنظيم أو المنظمة (Organisation). والكلمة أتت من جذر Organe عضو آلة. عندما نتحدث عن بنية تنظيمية نتحدث عن كيان يؤدي وظائفه بطريقة آلية بوصفه كياناً عضوياً. وعندما نتحدث عن التنظيم نتحدث عن وظائف للأعضاء. نتحدث عن تقسيم وتفاعل وتكامل. كيف نجري هذه المقاربة؟

عضو = آلة

Organe

↓

الآلة - الجسم - المجتمع

الجسم يعمل بالطريقة العضوية. الآلة صُنعت لتعمل بالطريقة العضوية أيضاً. ويتشكل المجتمع أحياناً ويعمل بالطريقة نفسها.

الآلة ← تكنولوجيا

المجتمع ← الإعلام - الاتصال

والفكرة هنا أن الإعلام والاتصال يصبحان تنظيماً Organe. فنجد في المؤسسات بنية وهوية. هكذا أصبحت وسائل الإعلام منظمات، وصار الاتصال عملاً منظماً وكيانات منظمة.

في إطار الاتصال المنظم وبهدف دراسة مؤسسة إعلامية ما، يجب أن نأخذ النقاط التالية لدراستها:

- بنية المؤسسة.

❖ الوظائف الداخلية في سياق الوظيفة العامة.

❖ الإدارة.

❖ تقسيم العمل.

وفي هذا المحور نعتبر الاتصال العضوي كعلاقة إدراكية (قابل للمعرفة). هذه العلاقة تُفحص بمقاربتين:

1 - المقاربة الوظيفية:

لماذا ندرس الآلة، وندرس الجسم، وندرس المجتمع؟

نريد درس وسائل الإعلام في الإعلام التقليدي والجديد بوصفها بنى تنظيمية تعمل كما تعمل الآلة والجسم والمجتمع. بمعنى آخر هناك أهداف، وسائل، تنظيم، تقسيم عمل، تفاعل، تكامل... وأي وحدة من هذه البنية هي بنية بذاتها نطلق عليها تسمية: صحيفة، إذاعة، موقع الكتروني... إلخ.

والمقاربة الوظيفية هي التي تفحص التركيب والوظيفة اللذين يشكلان التنظيمات، وكذلك الدينامية في العلاقات التي لها شكل بين أعضاء هذه المنظمات.

مثلاً إذا أردنا درس بنى الوسائل الإعلامية نعتمد البراديغم المعتمد في هذا النوع من الدراسات، لأننا حين نقوم بالاتصال نقوم به بواسطة كيان منظّم، أي له وظائف وأهداف ووسائل.

لأفترض أنني أدرس تأثير محطة أو اثنتين فضائيتين، مَن الذي يقوم بالتأثير؟ مثلاً "الجزيرة"، أدرس بنيتها أي المحطة الفضائية، ووظيفتها كبنية وكمؤسسة. في هذه الدراسة آخذ العين ووظيفتها، أو إذا أريد دراسة تأثير "العربية"، هذا تنظيم له خلفية، ورسالة، وأهداف ومكان بث... يجب أن آخذها من زاوية البراديغم الوظيفي أي أدرسها على طريقة علم الاجتماع.

2 - المقاربة التأويلية:

وهي التي تُفصح عن عملية بناء وتمثيل الحقيقة. تمتد طبيعة الأبحاث من الاتصال بين الأشخاص إلى الأثر الحاسم للتكنولوجيا الجديدة التي تغيّر بنى العمل وتركيب البنى الاتصالية. إن الاهتمام بالاتصال المنظم سبق التعرّف إليه في بداية القرن العشرين بنموذجين من الاتصال، حيث فهم أن الاتصال أحد عناصر المنظمة (التنظيم) فقط. هذان النموذجان هما: المدرسة الكلاسيكية ومدرسة العلاقات الإنسانية.

* المدرسة الكلاسيكية: تعتبر المنظمة (Organisation) بمثابة بنية شكلية متمثلة بخطة عضوية لتنظيم الإدارة. المنظمة تدرك بطريقة رئيسية مندرجة، وتمثل الميّزات التالية:

- تقسيم العمل.
- سلسلة القيادة.
- مركزية السلطة.

هذه النظرية تركز على السلطة والنظام، وقد نظّر تايلور (1916) للأهمية (Importance) وركّز على برمجة العمل، والعمل ضمن السلسلة المترابطة. اقترح أن يُدفع للمستخدم حسب مردوده الفردي. في هذه المقاربة يتراوح الاتصال بين التوجيه والأوامر وتنفيذ العمل.

* مدرسة العلاقات الإنسانية: إن دراسة العلاقات الإنسانية تطوّرت في السنوات الخمسين الماضية في مقابل المدرسة الكلاسيكية. هذه المقاربة تستند إلى اعتبار التنظيم بنية مغايرة للأشكال المعروفة (Informel). وإن هذا التعبير الأخير يجعل المرجعية في العلاقات العضوية، غير المفروضة التي يحققها العمال بين بعضهم البعض. وهكذا فإن المنظمة لا توجّه فقط تبعاً للإنتاج، بل تبعاً للأفراد.

إن أهمية الاتصال، من هذه المقاربة لا تزال متواضعة، لكنها تتجاوز القيادة والأوامر. إن الاتصال يخصّ تقريباً وبصورة أحادية، التفاعل بين

الرئيس والمرؤوس ويتّخذ شكل النصائح حول تقنيات الاتصال الخاصة ويحث على التعاون بين العمال.

هذه هي المدرسة التي أعطت ضربة الابتداء للدراسات في حقل الاتصال المنظم.

من أين أتت كلمة تأويل؟

معنى كلمة تأويل أي إعادة المعنى أو الحقيقة إلى المعنى الأول. ولكن التأويل لم يعد يعني فقط ذلك، بل يُنظر إليه على أنه شرح وتفسير وبناء معنى.

مثلاً (Le monde) تعني "العالم"، ولكنها تعني أيضاً صحيفة فرنسية ذات مصداقية وتتمتع بمعلومات لها تأثير... ما هو المعنى الذي يُبنى وراء هذه الكلمة؟

إن كنت أَدرس بنى المؤسسات الإعلامية وظيفياً يجب أن أتناول وظيفتها (Fonction). أمّا الآن أريد دراستها بالمفهوم الاتصالي. كيف أوّل هذا المعنى؟ كل جماعة تبني عوالم الحقيقة الخاصة بها. في عملية التواصل والاتصال لها لغات ورموز وإشارات تبني الحقيقة من ورائها. وسائل الإعلام بوصفها بنى هناك لغة تأويلية فيها سواء في العمل داخلها أو في علاقتها مع الجمهور، وتكون هذه اللغة عبارة إما عن كلمات، أو إشارات، أو إيماءات، أو حركة الجسم.

ونحن ندرس الظاهرة الإعلامية لا يمكن أن نُهمل الجزء الذي له علاقة ببناء المعنى. كيف يتم بناء الحقيقة؟ كل مؤسسة لها عوامل اتصالية وثقافية تختصّ بها عن سواها. مثلاً إذاعة دينية، أو تلفزيون يختصّ بالموسيقى... لها مفاهيم رموز وكلمات ومصطلحات التي بواسطتها نُضفي على الحقيقة المعنى المتلائم مع هذه الوسيلة الإعلامية المعيّنة.

عندما نبدأ بدراسة الوسائل الإعلامية من الناحية الوظيفية سوف ننظر إلى الإعلام من وَجهين: كيف تؤثر هذه الوسيلة الإعلامية؟ وكيف تقوم بُنيتها بالتأثير؟

كل ما هو حولنا يتغيّر. الآلة تغيّر عمل الجسم، المجتمع، نظم الاتصال وبنى الاتصال. لا أستطيع أن أدرس من دون أن أرى كيف تغيّر التكنولوجيا كل شيء في ثقافتنا، بما في ذلك عمل أعضائنا، لذلك لا تصمد الحقائق كثيراً، بل تتغيّر بسرعة. نحن في عالم، عملية بناء المعرفة فيه داخلة في كل تلك التحوّلات التي يعرفها العقل على مستوى المعرفة، والأعضاء على مستوى التكنولوجيا. هل بناء الحقائق والرسالة سيبقى نفسه؟ ربما يكون الجواب، بالطبع، لا.

وفي إطار الاتصال المنظّم، يُمكن دراسة حالة للمؤسسات الإعلامية بهدف التعرّف على مشاكلها وحلها، فضلاً عن دراسة مجالات جديدة على مواقع التفاعل الاجتماعي، مثل "الفايس بوك" و "تويتر" وتأثيراتها.

وكان من نتائج الابتكارات التكنولوجية إحداث ميادين جديدة للبحث في تحوّلات الثقافة (Les métamorphoses de la culture)، والتغيرات التي أحدثها الابتكار التقني في حياتنا، لا سيما في ميادين الصناعات الثقافية، والاقتصاديات الكبرى التي ارتبطت بها، وترتبت عليها.

إن الانتقال من ازدهار الصحافة مع طباعة ملايين النسخ، واختراع السينما، وصولاً إلى الراديو والتلفزيون، وتجارة كتاب الجيب، إلى ازدهار الوسائط المتعددة والأنترنت التي غيّرت حياتنا بالكامل، كان بمثابة تحوّل في طبيعة الثقافة: أي الانتقال من ثقافة النبلاء أو النخبة البرجوازية التي انشغلت بالفنون الجميلة، والموسيقى والمسرحيات والآثار الأدبية الكبرى (Les oeuvres)، إلى ديمقراطية الثقافة، الجماهيرية، التي يهتم بها الجمهور، المتعدد المستويات العقلية والتعليمية، وحتى المستوى الاقتصادي والإجتماعي.

أدّى بناء الطريق فائق السرعة إلى المعلومات وتوصيل الكمبيوتر والأنترنت بأجهزة ذكية داخل المنزل إلى وفرة في الخدمات الجديدة والفرص، وبفضل طاقة اتصال، وقدرة كومبيوترية كافية، أصبحت أجهزة الوسائل الإعلامية مثل التلفزيون والراديو، وآلات اللعب، وحتى العدّاد

الآلي الذي يستهلك قدرة كهربائية لا تُذكر، أجهزة متفاعلة ثنائية الاتجاه (Two-ways). وبدلاً "من المشاهدة والاستماع إلى ما يجري أمامنا، ستكون في متناولنا مستودعات ضخمة لأفلام سينما الكترونية (Digital movies)، عروض تلفزيونية، كتب، مجلات، موسوعات، موسيقى ومعلومات... إلخ، وبدلاً من الامتثال لجدول توقيتات برنامج تلفزيوني عنيد ومتصلب، ستكون بين أيدينا مفاتيح السيطرة في النهاية".

(فرانك كليش، ثورة الأنفوميديا، عالم المعرفة، 253، ص15).

وبدءاً من منتصف القرن الماضي، تحوّل بعض الباحثين إلى دراسة آثار تصنيع الثقافة والوسائط على الأفراد.

وتركزت مسائل البحث، بادئ الأمر، حول معرفة أمر "النشر بالوسائط" (La diffusion médiatique) على محتوى الإنتاج الفكري والأدبي نفسه، ثم على المتلقي، من دون أن يكون لدى هؤلاء أدنى ريبة من أن "النشر بالميديا" يؤدي إلى تشويه (إفساد) الثقافة (La Denaturation de la culture).

ومن الأسئلة التي أثيرت:

1 - هل الميديا مصادر تمثيل للمتطلبات الثقافية أو التقليد الثقافي (العرف الثقافي)؟
2 - أليست وسائل الإعلام، تنتج ثقافة لمصلحة "العولمة" أو الدولة المهيمنة (الولايات المتحدة الأميركية).
3 - أليست "الثقافة الوسائطية" (Culture médiatique) عبارة عن خليط لفسيفساء (Mosaique) من الأخبار والإنطباعات المتناقضة؟

وعليه، تركزت مسائل البحث في هذا الحقل، حول تصنيع الثقافة، والصناعات الثقافية، وصناعة الاتصال، والمنافع المترتبة، كالاقتصاد الرقمي، وتركيز الأنشطة والعولمة.

ومن المحاور البحثية، أيضاً، إشكاليات الإنتاج الثقافي الوسائطي بين

تكوّن التقارب بين الشعوب أو الإجماع أو الهيمنة، وولادة ثقافة الجمهور، والإعلام الرقمي، والانتقال من إنتاج الثقافة إلى استهلاك الثقافة في الحقبة الرقمية.

ومن ثمار التقنيات الحديثة في الاتصال، التحوّلات التي طرأت على ما يمكن تسميته "باللغة الرقمية" برموزها، وأحرفها، وصورها، الأمر الذي طرح السؤال عن إمكانية ولادة بلاغة جديدة في التعبير، مع الانتقال من الآلة الكاتبة (Mécanographie) إلى الحاسوب (Ordinateur)، أي من الورق إلى الشاشة، بمعنى تأثيرات التجديد التقني على التجديد اللغوي أو النيوريطوريقا (Neuréthoriques).

لم يقتصر الموقف من الإنتاج الثقافي الوسائطي، أو تسليع الثقافة وتشييئها على التنديد، ووصف ما ينتج بأنه بضاعة رديئة، أفسدت الثقافة، وأطاحت بالأصالة والابتكار الفني، وأدت بالإنسان إلى التغريب، وحوّلته إلى مستهلك للثقافة كأية سلعة، وهذا ما دفع بمؤلفي كتاب "جدلية العقل" (La raison de la dialectique) من مدرسة فرانكفورت (Ecole de Francfort)، تيودور أدورنو (Thèodor Adorno)، وماكس هوركهايمر (Max Horkheimer)، إلى إطلاق مصطلح "الصناعة الثقافية" على الإنتاج الصناعي للمواد الثقافية كالأفلام والبرامج الإذاعية والمجلات... إلخ، حيث تلعب التكنولوجيا دور الهيمنة.

وترى "أفكار هذه المدرسة أن ما تقدمه وسائل الإعلام هو تشويه للأعمال الراقية هدفها إلهاء الناس عن البحث عن الحقيقة... وحيث تكون السلعة هي الأساس فإن الثقافة يمكن تسويقها أيضاً لتحقيق الربح، وتعمل من خلال مفهوم صناعة الثقافة على ترسيخ الأفكار الخاصة بسيطرة الطبقة المالكة أو المهيمنة على المجتمع بمفهومه الرأسمالي". (مكاوي، حسين، الاتصال ونظرياته المعاصرة ص121).

ويعتبر ستيوارت هول (Stuarat Hall) من روّاد النظرية الثقافية النقدية في انكلترا، والتي تهتم بتحليل الثقافة لتسجيل مدى ارتباط ما تقدمه وسائل

الإعلام بحياة الناس. والأساس في هذه المدرسة اعتبار الهيمنة (Hégémony) هي الأسلوب السائد في العلاقة بين مَن يملكون ومَن لا يملكون وسائل الإنتاج.

والسيطرة أو الهيمنة هي القدرة على رسم حدود الواقع، وعلى وضع جدول الأعمال الاجتماعي للجماعة" عبر وسائل الإعلام. وقد "انعقدت السيطرة القائمة على سلطة رسم حدود وملامح الواقع، في أميركا، للمهيمنين على أجهزة الإعلام وخدماتها المعاونة: العلاقات العامة، والإعلان، واستطلاع الرأي، والبنى شبه التعليمية المختلفة". (هربرت شيللر، المتلاعبون بالعقول، ص212).

والأهم، وفقاً لنظرية الهيمنة، أن ما يشاهده الناس، وما يقرأونه، أو ما يستمعون إليه، وما يريدونه، وما يأكلونه، والأماكن التي يذهبون إليها، وما يتصورون أنهم يقولونه، كل ذلك أصبح وظائف يمارسها جهاز إعلامي يقرّر الأذواق، والقيم التي تتفق مع معاييره الخاصة التي تفرضها وتعززها مقتضيات السوق.

ومع ظهور الأنترنت، والاندماج المتقدّم للمجتمع في النظام المعلوماتي، تغيّرت ركائز استقبال الثقافة لدى الجمهور، وأصبح بمقدوره، عبر الهاتف المحمول، والهواتف الذكية، والكومبيوترات الشخصية، من الموسيقى إلى الأفلام والصحف.

وفي ما خصّ صناعة الاتصال، أدّت شركات المعلوماتية مثل مايكروسوفت (Microsoft) وآبل (Apple) في حياة الشبكة العالمية أو الـ (Web) إلى فرض محتوى جديد للنشر أو البث، يشكّل نموذجاً جديداً من مهارات التوافق (Convergence) تجاه التعليم والأفكار ونمط الحياة.

ولا يجافي بيل غيتس (Bill Gates) مؤسس شركة ميكروسوفت الحقيقة، عندما يشير في كتابه "المعلوماتية بعد الأنترنت - طريق المستقبل" (The road ahead)، عندما يشير إلى أن "توافر نظم متقدمة للاتصالات يبشّر بجعل الأمم أكثر تماثلاً، ويقلل من أهمية الحدود الكونية، وأجهزة

الفاكس، وكاميرا الفيديو المحمولة، وشبكة الأخبار الكبلية هي من بين القوى التي تسببت في نهاية نظم الحكم الشيوعية والحرب الباردة، وذلك لأنها أتاحت للأخبار أن تنتقل في كلا الاتجاهين، عبر ما كان يُسمّى بالستار الحديدي". (غيتس، طريق المستقبل، ص416).

ب - المسائل بوصفها نظريات - البراديغمات:

في ضوء ما تقدّم، ترى الجماعة العلمية في حقل علوم الإعلام والاتصال أن المنهجية الملائمة هي النظريات بوصفها بنى، ومنها "البراديغمات"، بالنظر إلى أن الاتصال كبنية تنظيمية، بوظائف متعددة، وتأثيرات متنوعة، وتأويلات تعيد صياغة المعنى الاجتماعي ين الأفراد. فعلم الاتصال، كما هو معروف، علم متعدّد الأنظمة، وكل نظام يؤدي إلى نموذجه الإرشادي الخاص به.

يشهد علم الاتصال أنظمة عدة من العلوم الاجتماعية والإنسانية التي ينتمي إليها، من مناهج البحث إلى النماذج الإرشادية، باعتباره علماً إخبارياً، وهو من العلوم الجديدة، التي تتبنى "براديغمات" معروفة في الرياضيات، وعلم النفس وعلم الاجتماع والأنتربولوجيا.

و "البراديغمات" المسيطرة في دراسة موضوعات الاتصال إربعة، لكنها ليست تامة ونهائية.

1 - "البراديغم" أو النموذج التحكمي (السيبرناطيقي) التوجيهي (Le paradigme cybernétique).

2 - البراديغم السلوكي (Le paradigme béhavioriste).

3 - البراديغم الوظيفي (Le paradigme fonctionnaliste).

4 - البراديغم التأويلي (Le paradigme interpératif).

في جدول المقارنة التالي، يمكن تكوين فكرة عامة حول مصادر هذه البراديغمات، وخصائصها، ونماذج الدراسة من خلالها، لا سيما في وسائط الإعلام الجديد المتشكّل من تكنولوجيا الاتصالات الجديدة.

1 - البراديغم السبيرنطيقي Le paradigme cybernétique	2 - البراديغم السلوكي Le paradigme Béhavioriste	3 - البراديغم الوظيفي Le paradigme Fonctionnalite	4 - البرايغم التأويلي Le paradigme Interpératif
متحدّر من النموذج المنهاجي النسقي.	متحدر من البسيكولوجيا والوضعية.	متحدر من الوضعية.	متحدر من المثالية الإلمانية.
الخصائص: الاتصال والمراقبة في الآليات والإنسان. علوم الأنساق الموجهة والمراقبة تشير إلى تنظيم تلقائي في الاسترجاع (الفعل ورد الفعل) مثل: مثبت الحرارة في المبنى (Thermostate) والحرارة في جسم الانسان.	الخصائص: نموذج الإثارة- الاستجابة. لكل إثارة استجابة ملائمة، ذات خاصيات مرئية تفترض ردات فعل تلقائية.	الخصائص: إدراك المجتمع كوحدة عضوية، حيث أن العناصر تفسّر بالوظيفة التي تشغلها. الحقيقة الاجتماعية موضوعية. الاتصال عملية. الرسالة هي الأهم في هذه العملية. البحث عن العام (الكل).	الخصائص: المعاني تقع في الأفعال الاجتماعية. تحليل المعاني الذاتية التي تشكل التوافق حول تأويل الواقع. الناس تعطي معنى لعالمها من خلال السلوك الاتصالي. المجتمع بناء مركب من التجارب الشخصية لأفراده.
نموذج الدراسة: في حقل الاتصال المنظم دراسة شبكات الاتصال، معاينة ترابط عناصر السلسلة في الاتصال.	نموذج الدراسة: تأثير وسائط الاتصال على الناس. الدعاية والإقناع. السلطة الخفية أو القوة الساحرة لوسائط الاتصال. تقود وتوجه الأبحاث حول تأثير وسائط الاتصال الجماهيري.	نموذج الدراسة: الاستخدام والإشباع. استخدامات الجمهور لوسائط الاتصال والإشباع التي يترتب عليها. في الاتصال المنظم دراسة توزيع الأدوار، التردد (الشك) والرسائل.	نموذج الدراسة: في الاتصال المنظم، المقاربات الطبيعية والثقافية، تشكل دراسة التواريخ والأساطير والطقوس (الشعائر)، والنزاعات والأنساق الرمزية في التنظيم. دراسة محتوى وجوهر الاتصال.

تقتضي الإبستمولوجيا أن ترتبط المنهجية العلمية بحقل الدراسة، والتطورات التي طرأت على هذا الحقل، معرفياً، أو على مستوى مسائل البحث.

يستلزم هذا، تقديم إيجاز بالتحوّلات التي طرأت على نظم الإعلام والاتصال، أو وسائط الاتصال الجماهيري، لتحديد النموذج أو النماذج الجديرة بقيادة البحث وتوجيهه لدراسة الظواهر الإعلامية، بوصفها ظواهر موضوعية، مع الإشارة إلى أننا سنتوقف على نحو شبه تفصيلي عند اثنين من النماذج الإرشادية هما: "البراديغم الوظيفي" و "البراديغم التأويلي".

تكمن التحوّلات في الأعصر الإعلامية الكبرى التي يحددها علماء الإعلام وخبراء الاتصال بأربعة، وهي للتذكير فقط: الطباعة على الورق والكتاب بالطباعة وظهور التلغراف والثورة الرقمية.

ومكّنت الرقمنة (Digitaliser) من حمل الصوت والصورة ورموز الاتصال إلى أي مكان في العالم تتوفر فيه أجهزة الاستقبال. وصار بالإمكان استخدام مصطلح الإعلام الإلكتروني حول شبكة الأنترنت، مكتوباً ومسموعاً ومرئياً، مما سيفتح الباب على مصراعيه لولادة براديغم جديد، هو البراديغم الإعلامي (Paradigme informationnel).

وثمة مَن يفرّق بين مفهومين لوسائل الإعلام:

أ - الإعلام التقليدي (Traditional média) ويشمل الصحف المطبوعة والراديو والتلفزيون.

ب - الإعلام الجديد (New média)، وتعتمد أنظمة الاتصالية، والتي تُعرف باسم أنظمة الاتصال بواسطة الحاسبات (Computer mediate communication) (CMC).

إن المشترك بين كل وسائل الإعلام التقليدي والجديد هي نقل المعلومات مع تغيّر في الكيفية والسرعة والمضمون، واختصار الأزمنة والأمكنة في عمليات اتصال تشبه البرق من حيث السرعة والآنية من حيث المشاهدة.

وترتبط التكنولوجيا الجديدة في الإعلام والاتصال، بصورة رئيسية، بـالـ (Ordinateur) (جهاز الكومبيوتر): قواعد المعطيات (Bases des données)، البريد الإلكتروني (Courrier électronique)، المؤتمر عبر الكومبيوتر، الفيديوتكس (Vidéotex)، وتلفزيون الكابل التفاعلي (Television par cable interactif) ونظام الفيديو ديسك (Vidéodisque).

1 - البراديغمات المستخدمة في وسائط الإعلام التقليدي (Médias de masse traditionnels):

الاتصال بالجماهير يتم عبر وسيط (Média) (وسيلة إعلامية) فالمرسل والمتلقي يتواصلان بطريقة غير مباشرة (Le biais d'un media) عبر هذا الوسيط (وسيلة الاتصال أو الإعلام). وهذا الشكل من الاتصال ذو اتجاه واحد (Indirectionnielle)، بمعنى أن فرداً أو مجموعة تشكل كياناً (Entité) تبعث برسالة (مجموعة من الرموز)، تصل في وقت واحد إلى عدد من الأفراد أو الجمهور (Masse).

في هذا السياق يفترض الباحثون أن وسائط الاتصال الجماهيري تولد تأثيراً على المتلقين: تغيّرات في الآراء، السلوك والمواقف، هناك أكثر من نموذج (Modèle) لتفسير تأثير الرسائل الإعلامية على أفراد المجتمع.

أ - "البراديغم السلوكي"

الذي منه نموذج (Stimulus - Reponse) الإثارة والاستجابة.

طبّق في دراسة وتفسير تأثيرات (Effets) وسائل الإعلام على الجمهور من زاوية أن هذه الوسائل هي (Stimulus)، وأن ردة فعل الجمهور أو سلوكه، بعد الخبر أو المعلومات هي الـ (Réponse) أو الاستجابة. ومن ميّزات هذا النموذج:

1 - أن لكل (Réponse) - (Stimulus).

2 - يعتبر النموذج السلوكي أن الـ (Média) مثير قوي وأن الأفراد متلقين، ويقبلون بسهولة تأثيراته.

3 - أن المثير والاستجابة وحدة أساسية توحّد بين الوعي والسلوك.

4 - أن ردّات الفعل آلية، تلقائية، فعند حدوث المثير تحدث الاستجابة.

5 - أن السلوك الإنساني كما السلوك الحيواني، قابل للملاحظة. في فترة ما بين الحربين العالميتين، اهتم السلوكيون الأميركيون بدراسة السلوك الإنساني، من زاوية مجمل الأعمال الخارجية التي بموجبها يستجيب الإنسان، أو يردّ بها على المؤثرات التي يتلقاها من الوسط.

يعتبر السلوكيون الأميركيون قبل بافلوف (Pavlov)[1] أنه من الممكن توقع أو التنبؤ بردات الفعل المطلوبة أو المأمول بها.

لذا، كانت الدراسات الأولى لتأثير "الميديا" بعد الحرب العالمية الأولى، إذ أثبتت الدعاية (Propagande) أنها الوسيلة الموقظة للمشاعر الوطنية في الأمة، ومشاعر الكراهية للعدو. ووسائل الدعاية كانت الصحف، الأفلام، الإعلانات، الأفيشات والصور التقريبية.

إن ظاهرة الإعلان الجماهيري أكدت التأثير اليومي للوسائط.

نحت هارولد لاسويل (Harold Lasswell) (1902-1978) الأستاذ المحاضر في جامعة شيكاغو مصطلح "الأبر المخدرة"، وهو المبدأ، الذي تعمل بموجبه وسائل الإعلام، للإشارة إلى التأثيرات المباشرة والجماعية لوسائل الإعلام على الجمهور المشتت.

وجاءت نظرية لاسويل، وفقاً للنموذج الخطيّ (Modélisation linéaire) على النحو التالي: Qui dit quoi, A qui, en utilisant quel canal et avec quel effet.

---

(1) بافلوف، إيفان بتروفيتش (Pavlov, Ivan Petrovich) (1849-1936م)، عالم طبيعي روسي، حائز على جائزة نوبل، مؤسس الدراسات التجريبية الموضوعية للنشاط العصبي الأعلى عند الحيوان والإنسان، مستخدماً منهج الانعكاسات الشرطية وغير الشرطية.
وهي ردود الأفعال المتبقية لدى الإنسان والحيوان، والتي يحددها تنبيه الحواس المستقبلة ونشاط الجهاز العصبي المركزي، والانعكاسات غير الشرطية ردود إفعال موجبة غير فطرية من جانب الكائن الحي العضوي.

وتعني مَن قال، ماذا، لمَن، وبأي وسيلة، وبأي تأثير؟ إلا أن نظرية التأثير المباشر قوبلت بانتقاد، وطرح المفهوم السلوكي في الانتظام الاجتماعي كقضية للبحث، من زاوية أن التأثيرات لن تحصل في وقت واحد لدى كل الأفراد، نظراً للفروقات في الشخصية والفائدة، والذكاء عند كل منهم، فضلاً عن قابلية مصدر المعلومات للتصديق، ومحتوي الرسائل، والانتماء الاجتماعي للمتلقين، هذه العوامل شكّلت مصفاة لتأثير "الميديا المباشر" ومع ذلك فإن هذا البراديغم لا يزال معمولاً به.

وثمة تيار جديد، ظهر في الستينات من القرن الماضي، يُميّز بين الإجراءات المنهجية المتبعة في النظرية السلوكية والنتائج الناجمة عن هذه الأبحاث، من خلال الاستطلاعات والتحقيقات، التي تثبت معطيات تجريبية.

ب - البراديغم الوظيفي:

يستخدم البراديغم الوظيفي في سياق دراسة تأثيرات وسائط الاتصال الجماهيري التقليدي، فضلاً عن دراسة الاتصال المنظم (Communication organisationnelle).

في الستينات، من القرن الماضي، عندما قبلت الجماعة العلمية فكرة أن "الميديا" لا تمتلك إلا القليل من التأثير، انطلقت حركة معاكسة، معيدة الاعتبار لمفهوم التأثير (Effet). وأضافت هذه الحركة، إذاً عناصر للنماذج الأولى (نظرية لاسويل). وحللت التأثيرات الخاصة بأنساق القيم، والاعتقادات والتصرفات في المجتمع. هذه التأثيرات ساهمت في إحداث التغيّرات في القيم، أو تعزيز تلك التي وجدت سابقاً.

مقاربات عدّة عرفت إعادة اكتشاف التأثيرات:

- إعادة الدمج (التكيّف الاجتماعي).
- صياغة الوقع ذهنياً (Construction de la réalité).
- الرقابة الاجتماعية.

إن تيّار الوظيفية السوسيولوجية، كان محاولة لإعادة النظر في نظرية لاسويل، التي تنظر إلى الاتصال كنقطة بدء ونقطة نهاية، فرفض هذا التيار المبدأ الآلي حول التأثير المباشر غير المكيّف حسب الوضعيات، متوقفاً عند المتغيرات الوسيطة، بين نقطة البدء ونقطة النهاية.

وجرى تركيز على أن الرسائل الإعلامية لا تؤثر إلا إذا كان الجمهور مستقبلاً لها (مثال الإعراض عن الإعلام الرسمي والتطلع إلى الإعلام الخاص - الجزيرة - العربية، في متابعة أحداث الثورة العربية 2011).

كما التفت هذا التيار إلى دراسة الجمهور، والتوقعات الخاصة بالحاجات التي يصبو إليها (تركيز الرسائل على الحريات، حقوق الإنسان، محاربة الفساد في الثورات العربية).

إن المقاربات التي يتيحها "البراديغم" الوظيفي عديدة، نستطيع من خلال بعضها أن نحمّل وسائط الاتصال الجماهيري "وظائف" ظاهرة أو مستترة: وظيفة التسلية، وظيفة الإعلام (الإخبار)، وظيفة اللهو، وظيفة تعزيز القيم.

ونستطيع كذلك أن نحمّل وسائط الاتصال الجماهيري اختلالات وظيفية ظاهرة أو مستترة: اللامبالاة، الغزو الثقافي، تدني الفكر النقدي، زيادة التقيّد بالعرف الاجتماعي.

وفي هذا الحقل، تعزز تأثير وسائط الاتصال الجماهيري، سواء عبر الإعلام التقليدي، لا سيما المرئي منه، أو الإعلام الإلكتروني مثل الفيسبوك والتويتر، فقد كان لهذين الإعلامين تأثير كبير على ثورة مصر، وبدرجة أقل على ثورة تونس، والتقى الخبراء والمحللون وقادة الرأي والسياسة، على أن الذي أحدث الثورات المتتالية في العالم العربي هو الإعلام الجديد.

ومن خلال منهجيات وتقنيات مختلفة، نتحقق من تأثيرات (انعكاسات) الوظائف أو الخلل (الاضطراب) الوظيفي على الأفراد.

إن التقنية المعتمدة في بعض مقاربات التيار السوسيولوجي الوظيفي تحوّلت من دراسة الفرد كعضو منعزل إلى دراسته من خلال عدد من المجموعات التي تشكّل الأفراد، ثمة نموذجان مهمان (Deux Modèles) في هذا التيار:

1 - التدفق الثنائي للاتصال (Two steps flow communication).

2 - الاستخدامات والإشباعات (Uses and gratifications).

وثمة نموذج ثالث هو (Le modèle de la agenda setting) وضع الأجندة.

1 - التدفق الثنائي للاتصال (Two steps flow communication).

(كاتز Katz)، لازرسفيلد (Lazarsfeld).

يدّعي هذا التيار أن الرسائل الإعلامية، تصل بادئ ذي بدء عبر قادة الرأي (Leaders d'opinion)، الذين بدورهم، يحولونها إلى مجموعاتهم المنتمية إليهم، المؤلفة من الجمهور، أكثر أو أقل من المعروضة في وسائل الإعلام.

قائد الرأي، يشكّل أداة نقل (Relais) بين الميديا والجمهور الكبير (Alain Laramée, Ibid, p87).

تطوّر هذا النموذج في إطار دراسة العوامل المؤثرة في اختيار الناخبين (Electeurs) في الحملة الانتخابية لرئيس الولايات المتحدة الأميركية روزفلت (Roosevelt)[1].

دراستان رائدتان شكّلتا هذه المقاربة الجديدة حول العناصر والمتغيّرات الوسيطة: الأولى، أجراها لازرسفيلد بعنوان: "اختيار

---

(1) فرانكلين دلانو روزفلت (Franklin Delano Roosevelt)، سياسي أميركي. الرئيس 32 للويات المتحدة (عن الحزب الديمقراطي)، من العام 1933 حتى وفاته، أعيد انتخابه ثلاث مرات، بسبب برنامجه الاقتصادي والاجتماعي، ساهم في إخراج بلاده من الأزمة الاقتصادية العالمية عام 1929، لعب دوراً حاسماً في الحرب العالمية الثانية.

الشعب" (The people's choice) (1944)، لقياس تأثير وسائل الإعلام على 600 ناخب في أوهايو، خلال الحملة الرئاسية.

الدراسة الثانية (1955)، حول التأثير الشخصي: أي دور يلعبه الأفراد في تدفق وسائل الإعلام Personal influence: the part played by people in the flow of mass communication.

وهذه الدراسة كتبها لازرسفيلد وإيليهو كاتز (Elihu Katz)، معتمدين فيها على معطيات ميدانية تعود لعشر سنوات سابقة، ويتعلق الأمر أساساً بدراسة سلوك المستهلكين في عالم الأزياء والترفيه، لا سيما المحددات التي تحكم اختيار الأفلام (أرمان وميشال ماتلار، تاريخ ونظريات الاتصال، ص59).

وتوصل الباحثان من خلال هذه الدراسة إلى أهمية "المجموعة النووية" وأن الاتصال يتم على مرحلتين، حيث يعتبر دور قادة الرأي مركزياً.

وتقوم نظرية التدفق على مرحلتين (Two step flow):

- الفئة الأولى من الأشخاص، الذين هم على دراية بما يجري في محيطهم، وهم قادة الرأي.
- الفئة الثانية: الأفراد الذين يتابعون وسائل الإعلام بدرجة أقل، ويعتمدون على الآخرين في الحصول على المعلومات.

اعتمد لازرسفيلد تقنية البانل (Panel)[1]، في الميدان الانتخابي، في دراسته للخطوات المتتابعة في اتخاذ القرار من زاوية تبني التجديد وانتشاره، عبر مراحل من البحث، تضمنت مستويات عدّة من الوعي، الاهتمام، التقييم، التجريب، التبني أو الرفض، شبيهة بقاعدة الجذب الإعلاني (AIDA)، وهو يعني:

---

(1) تقنية البانل (Panel): نموذج من تقنيات البحث تخضع فيه عينة من الأشخاص لمقابلات متكررة لفترة زمنية معينة.

Capter l'attention, suciter l'interet, stimuler le désir, passer à l'action ou à l'achat.

(جذب الانتباه، خلق الاهتمام، تحفيز الرغبة، الانتقال إلى التنفيذ أو الشراء).

وفي محاولة للاستفادة من هذه النظرية، في التأثير على الجمهور لجأت وسائل الإعلام المرئي إلى إعطاء مساحة مدفوعة لقادة الرأي، إما للتعليق على الأحداث، أو لإجراء حوارات مطوّلة ونقاشات حولها.

2 - نموذج الاستخدامات والإشباعات

(Uses and grafications) (Mc Quail 1972):

حسب هذه المقاربة - النموذج، يتركز البحث على معرفة سلوك الناس، قبل تعرضهم لوسائل الإعلام.

هذه المقاربة الوظيفية تعطي توجيهاً جديداً للأبحاث من الآن وصاعداً، يتركز الانتباه قليلاً على تأثير الميديا: على الأفراد، وكثيراً على استخدام الميديا حيث أن الناس يصنعون "الميديا" (Uses).

هذه المقاربة، تستند إلى أن الناس هم الذين يصنعون الاستعمال (Uses)، وهذا الاستخدام (Usage) واع وإرادي، بحثاً عن شيء خاص في "الميديا": خبر، نصيحة، مساعدة، دعم رأي بالمختصر: إشباع (Gratification).

إن الباحثين الذين بلوروا هذا النموذج (Modèle) يتساءلون لماذا يلجأ الناس إلى "الميديا"، ويتساءلون حول سلوك الأفراد الذين يتخلون عن "الميديا" (Alain Laramée et Bernard Vallée, Ibid p71). إنهم يفتشون عن اكتشاف المجموعات من الناس، الذين يستهلكون محتوى وسيلة إعلام محددة، ثم يطلبون من هؤلاء الإجابة عن سؤال: لماذا يقبلون على هذه الوسيلة؟

زعزعت هذه الأبحاث التجريبية حول استخدام الناس "للميديا" جدياً

البراديغم السلوكي، القائم على التأثير المباشر (إثارة - استجابة)، لصالح فهم جديد لتأثير الميديا. فحسب "البراديغم الوظيفي: فإن الرسائل لا تؤثر إلا إذا كان المستقبل، مستقبلاً لها، وليس معرضاً عنها، بمعنى آخر انكبّ الباحثون على دراسة التوقعات، المطالب والحاجات التي تخص الجمهور إزاء الميديا".

ابتعد إيليهو كاتز (Katz) أحد الوجوه البارزة في التيار السوسيولوجي عن نظريات التأثيرات المباشرة (الفرضيات السلوكية). وتجاوزت التأثير المحدود والتأثير غير المباشر (لأن انتقائية المتلقين تجعل دور وسائل الإعلام محدوداً)، بطرح السؤال المعاكس: ماذا يفعل الناس بوسائل الإعلام؟ بدلاً من طرح السؤال الكلاسيكي: ماذا تفعل وسائل الإعلام بالناس؟

طوّر تيار "الاستخدامات والإشباعات" في ثمانينات القرن الماضي مفهومه لتأثير وسائل الإعلام، عبر "الاستخدام والإشباع"، والتركيز على أن "المعنى والتأثيرات تولد من تفاعل النصوص والأدوار التي يضطلع بها الجمهور، وإن فكّ الرموز يرتبط بمشاركة الجمهور في عملية الاتصال، وتربط المشاركة ذاتها بالطريقة التي تبني بها مختلف الثقافات دور المتلقي" (أرمان وميشال متلار، تاريخ نظريات الاتصال، ص167).

وكموضوع للدراسة، يمكن اقتراح: معالجة إقبال فئات واسعة من الجمهور اللبناني على فضائية الـ (MBC) باللغة العربية، التي تعرض مسلسلات تركية "مدبلجة"، والتي حذت حذوها بعض الفضائيات اللبنانية مثل (NTV).

3 - مقاربة "وضع الأجندة" (Agenda setting):

يرتكز نموذج "وضع الأجندة" على التأكيد، بدلاً من تعديل سلوك الأفراد، على مشاركة "الميديا" لهؤلاء بالاهتمامات.

إن الأفراد عندما يطلب إليهم وصف اهتماماتهم في النظام

الاجتماعي، ويجدون وسائل الإعلام تولي شأناً لهذه الاهتمامات باعتبارها أولويات، فإن وسائل الإعلام تكون قد نجحت بتحقيق الأولويات الاجتماعية (أي وضعت الأجندة) (Set the agenda) لأفراد المجتمع.

يؤكد نموذج "وضع الأجندة" على "وجود علاقة إيجابية بين ما تؤكده وسائل الإعلام في رسائلها وبين ما يراه الجمهور مهماً، أي أن دور وسائل الإعلام والاتصال يسهم في ترتيب الأولويات عند الجمهور" (مي عبد الله، نظريات الاتصال، ص283).

إن مقاربة "وضع الأجندة" هي مقاربة تجريبية، والطرائق المستخدمة في الوصول إلى نتائج، تعتمد على تحليل مضمون الرسائل المبثوثة عبر وسائل الإعلام، والتحقيقات حيال الجماهير التي ستستهلك هذه الرسائل.

البراديغمان المستخدمان في الاتصال المنظم:

Les deux paradigmes utilisants dans la communication organisationnelle:

يسيطر في الاتصال المنظم "براديغمان" هما: البراديغم الوظيفي والبراديغم التأويلي:

أ - البراديغم الوظيفي (Le paradigme fonctionnaliste):

ناقشنا في ما تقدّم، ثلاثة نماذج من نماذج التيار السوسيولوجي الوظيفي في دراسة ظواهر الإعلام الجماهيري التقليدي.

في جانب آخر، سندرس كيف يدرس هذا "البراديغم" ظواهر الاتصال المنظم.

من المسلم به، جوهرياً، أن هذا البراديغم يتركز على تصوّر المجتمع كوحدة عضوية، إذ تفسر عناصره بالوظيفة التي يشغلها.

فالمجتمع (Société) يعني التنظيم (Organisation). فالمقارنة هنا تتحدّد بالرؤية الوظيفية، في البحث السوسيولوجي، كما تبلور مع تالكوت بارسونز[1] (Talcot Persons).

وفي حقل الاتصال المنظم، يعتبر البراديغم الوظيفي التنظيم (Organisation) كنسق[2] (نظام Système).

وفي ما يلي ترسيمة تبيّن أوجه الاتفاق والاخ لاف بين المجتمع والاتصال من زاوية الوظيفة - البنائية:

السيستام	الفعل	الأعضاء - الوظائف ترابط - تعاون	الهدف
1 - الكائن العضوي	الطعام، الشراب، النوم	الفم، المعدة، القلب.. إلخ	حفظ الحياة
2 - المجتمع	الأعمال، الوظائف، الأدوار	الأفراد - الجماعات	إشباع الحاجات، الاستقرار - التوازن
3 - الاتصال	الإنتاج - التوزيع	الأفراد الشبكات - القنوات	التبادل والتفاعل مع الرسائل الإعلامية

فالمقاربة الوظيفية هي: الكائن الحي (الجسم) يعمل (الأفعال) لإشباع الحاجات المحددة، عبر أجزاء مترابطة، متعاونة.

❖ **المجتمع**: الأفعال ترتبط بإشباع حاجات البقاء والاستمرار، ويتكون المجتمع من أفراد يتعاونون على تحقيق هذه الحاجات، والأفعال تهدف إلى تحقيق التوازن وحالة من الاستقرار والنظام.

---

(1) تالكوت بارسونز (1902-1979)، عالم اجتماع أميركي، الأستاذ المحاضر في جامعة هارفارد. أنتج إطاراً نظرياً ضخماً يدّعي من حيث المبدأ قدرته على الإحاطة بكل جوانب الحياة الاجتماعية.

(2) النسق Système: كلمة شاعت ترجمتها إلى العربية "نظام"، في الإنكليزية: كلمة مركبة، أي مجموعة من الأشياء تعمل معاً وفقاً لآلية أو شبكة أو ترابط مجموعة من الأشياء بينها صفات مشتركة.

❖ **الاتصال**: الأفراد يعملون بطريقة التفاعل والتبادل (أي بطريقة متعاونة) لإنتاج وإيصال الرسائل.

والفعل الاتصالي كفعل اجتماعي يهدف إلى إيصال الرسائل والتفاعل إزائها. ومن أهم العمليات الاجتماعية: توصيل المعاني (الرموز والمعلومات).

فالمقاربة الوظيفية، تنظر إلى الأفعال على أنها وسائل لتحقيق غايات محددة (فوائد عملية، تحقيق قيم)، وهذه الأفعال يجب أن تفهم في إطار المعاني التي يخلعها عليها الأفراد.

فبارسونز يعتبر أن الحياة الاجتماعية لا ترى إلا من خلال أفكار البشر: المعايير[1] والقيم[2].

من هذه العدسة، فإن الاتصال يوفّر التفاعل والتبادل بين عناصر السيستام، ويربط التنظيم لجعله منسجماً إن شبكات الاتصال تسمح للأفراد بالعمل معاً كفريق، ويصبح الاتصال كنسق مفتوح.

إن التنظيم يؤثر في البيئة (L'environnement)، كما أن البيئة تؤثر في التنظيم، ويوفر الاتصال الاستقرار داخل التنظيم بالرغم من المتغيّرات التي أثرت عليه (التكيّف)[3].

المقاربة الوظيفية للبناء التنظيمي تعتبره كالإناء، منه توزع أدوار الأفراد، بحيث أن "السلوك المرتبط بكل دور يبقى ثابتاً بغض النظر عمّن يحمل تلك المكانة (هذا الدور)" (إيان كريب، النظرية الاجتماعية، ص72). فهو، أي المجتمع ومؤسساته، شبكة من الأدوار، محكومة بمعايير وقيم ثابتة.

---

(1) المعايير: القواعد المقبولة اجتماعياً التي يستخدمها البشر في تقرير أفعالهم.

(2) القيم: ما يعتقده البشر عمّا يجب أن تكون عليه الحياة. وهي أيضاً لها تأثير في حياة البشر.

(3) التكيّف Adaptation: كل نسق لا بدّ أن يتكيّف مع بيئته.

فالبنى موجودة، مستقلة عن العمليات التي تخلقها أو تحوّلها، بما يرجّح "الحتمية"، فالأفراد نتاج البيئة... ويستجيبون بطريقة ميكانيكية (آلية) لمؤثراتها الخارجية.

والاتصال كمادة ملموسة، يذهب من فوق (منتجو الرسائل) إلى تحت (الجمهور). إنه بنية ملموسة للأنشطة التي تحدث فجأة. إن الرسائل الاتصالية التي لها وضعيات زمانية مكانية، تحدث بصرف النظر عن المرسل والمتلقي إن نقل الرسائل ودراسة تأثير قنوات الاتصال تشكل مواضيع الدراسة المفضلة من وجه المدرسة الوظيفية.

على وجه الإجمال، فإنه بالنسبة للوظيفي، فالواقع يوجد بحد ذاته، ويكفي تحليله من الخارج لفهم جوهر العمليات الاتصالية (Alain Laramée et Bernard Vallé, Ibid, p97).

ب - البراديغم التأويلي (Le paradigme interprétatif):

تختلف المقاربة التأويلية في الاتصال المنظم عن المقاربة الوظيفية. هذا النموذج من البحث، تتابعي، يتمحور حول دراسة المعاني (الدلالات)، أو (ما تدل عليه الكلمات)، حيث أن "الأفراد يعطون معنى (Sens) للعالم عبر تصرفاتهم الاتصالية" (سلوكهم) (Ibid.).

إن المقاربة التأويلية تسلم أن صميم التأويلات يقع في الأفعال الاجتماعية. لهذا، فإن مهارة الاتصال بين الأفراد، كفاعلين عضويين يمكن أن تخلق وتبني الواقع الاجتماعي عبر كلماتهم، رموزهم، وسلوكهم.

فالتنظيم (Organisation)، لا يعتبر كواقع موضوعي (كما ترى المقاربة الوظيفية)، بل كبناء لمجموعة من المعاني، والاتصال (Communication)، لا يعتبر كرسائل (Messages)، عبر التبادل والشبكات (كما ترى المقاربة الوظيفية)، بل كعنصر (Elément)، يبني التواريخ، والأساطير، والطقوس داخل التنظيمات. فالمقاربة، إذاً، رمزية وليست حتمية.

بالنسبة لهذه المقاربة، الأمر المهم هو خلق المعاني المشتركة، هذه الرؤية الرمزية تجد معناها الاتصالي عبر التجربة المتبادلة، أكثر منها في نيّة المُرسل أو مراقبة (Filtrage) المستقبل.

التفاعل الاجتماعي يولّد المعاني، والمعاني تشكّل عالمنا. "وهذا يعني أننا نخلق عالمنا بما نخلع عليه من معان: فقطعة الخشب هي قطعة خشب، غير أنها في حياتنا اليومية تصبح منضدة. وكلمة "منضدة" تعني الدور الذي تلعبه قطعة الخشب في عملية تفاعلنا: أي ذلك الشيء الذي نأكل عليه، أو تلك التي نعمل عليها... وكما أن تلك المعاني تتغيّر وتتطور، فإن العالم يتغيّر أيضاً معها ويتطوّر" (إيان كريب، النظرية الاجتماعية، ص133).

فبناء المعنى، هو اهتمام أول للتفاعل التبادلي الرمزي. ومسألة جوهرية في نظرية الاعتماد على وسائل الإعلام والاتصال، من زاوية السؤال: "كيف يؤثر العالم الذي خلقته وسائل الإعلام والاتصال على الطريقة التي يفسّر بها الأفراد والجماعات عوالمهم الشخصية والاجتماعية؟" (مي العبد الله، نظريات الاتصال، ص243).

إن مناهج البحث العائدة للمدرسة التأويلية تتجه لفهم الظاهرة الاجتماعية من استخلاص الأبعاد الوحيدة للحالات، أكثر من استقراء القوانين العامة للسلوك الاجتماعي. التشديد، إذاً، على "هنا والآن" وعلى التجارب الشخصية للفاعلين في التنظيم، وفي حين يتحقق "الوظيفي" من الخارج، يتحقق التأويلي من الداخل.

إن المقاربة التأويلية، غالباً، ما تكون استقرائية، يعني أنه انطلاقاً من حدوس أو مفاهيم مسبقة (Apriori)، فإن الباحث يحاول إيجاد المعطيات التي تثبت أو تدحض تفسيراته. والنموذج أو الإطار التأويلي متحدر أساساً من مجمل التقاليد الفلسفية والاجتماعية، خاصة المثالية الألمانية (إيمانويل كنط)[1].

---

(1) إيمانويل كنط Emmanuel Kant، (1724-1804)، فيلسوف الماني كبير، مؤسس =

إن الواقع الاجتماعي يوجد في "فكرة ما" أكثر من كونه يوجد في المعطيات والوقائع الحسيّة.

هكذا، فإن المقاربة التأويلية، بقدر ما تبحث عن العام، فإنها تنزع إلى تفسير ونقد الإجماع في التأويل المتولد عن المعاني الشخصية، عبر منهج الملاحظة بالمشاركة.

وفي النهاية، فالباحث هو الذي يبني، جزئياً، واقع فهم الاتصال المنظم، في محتواه ومادته.

إن "البراديغم" التفسيري (التأويلي) يستخدم بصورة خاصة في حقل الاتصال المنظم (Communication Organisationnelle)، ويستلهم مقاربتين: المقاربة الطبيعية (L'approche naturaliste)، والمقاربة الثقافية (L'approche culturelle).

منهج الملاحظة بالمشاركة (Méthode participant). هذا المنهج هو أساس الدراسات الميدانية في الأنتربولوجيا الثقافية والاجتماعية.

ويتلخص في أن يشارك الباحث في الأنشطة الاجتماعية التي يمارسها أعضاء المجتمع. وبين الموضوع (الثقافة مثلاً) من خلال المشاركة، وذلك من خلال:

1 - كسب ثقة المجتمع، عبر دور يؤديه.
2 - لا يبدأ بطرح الأسئلة قبل أن يتعلم أسلوب الحياة الجديدة.

= الفلسفة النقدية في أوروبا عام 1781، أخرج كتابه الأكبر "نقد العقل المحض Critique de la raison pure"، وفيه يثبت أن المعاني هي الشروط الأولوية المتعلقة بها المعرفة الحسية. وفي الكتاب يبيّن إلى أي حدّ تتطابق معاني العقل ومدركات الحس، والانطلاق من المقولات والمبادئ كشروط للمعرفة الحسيّة يعني أن "الطبيعة لكي تكون معلومة لدينا، يجب أن تطابق الشروط التي نستطيع أن يتصوّر وجودها عليها. وأن شروط الطبيعة تستنبط من شروط الفكر. فالانقلاب الذي أحدثه كنط هو أنه جعل الأشياء تدور حول الفكر بدل أن يعتقد الناس أن الفكر يدور حول الأشياء". (يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة) ص231.

3 - استخدام اللغة، المفاهيم، المشاركة بالطعام والكلام والاحتفالات والملابس.
4 - كتابة تقارير يومية (Field notes) عن كل صغيرة وكبيرة تقابله.
5 - عندما تتضح له فكرة عامة عن أسلوب المعيشة في المجتمع (العمل في مؤسسة إعلامية) يبدأ في التحليل والكشف عن عناصر الثقافة والترتيب البنائي للمجتمع.
6 - لا يكتفي الباحث بملاحظة ووصف ثقافة مجتمع ما، وإنما يحاول الكشف عن الترتيب البنائي الذي يكمن تحتها. أي أن يكشف عن النماذج والأنماط التي تمكنه من ملاحظة الثقافي ككل مترابط الأجزاء.
7 - في كتابة التقارير اليومية، الأفضل تسجيل المعلومات في مكان الحادثة وأثناء حدوثها. فيتم إبعاد عامل التحيّز في الاختيار (Selection Bias) (عاطف وصفي، الأنتربولوجيا الثقافية، ص285-288).

تشمل المقاربة الطبيعية: التفاعلية الرمزية (Interactionnisme symbolique)، ومنهجية النظام الاجتماعي (L'ethnométhodologie).

1 - التفاعلية الرمزية:

هي أقدم التقاليد النظرية القائمة في علم الاجتماع والمهتمة بدراسة التفاعلات الاجتماعية اليومية، من زاوية أن "المجتمع محادثة" وليس بنية أو تنظيماً (Organisation). كان مركز النظرية قسم الاجتماع بجامعة شيكاغو في عشرينات القرن الماضي. اعتمدت على الفكر البراغماتي[1] النفعي (Paragmatisme)، وعلى التفسير الاجتماعي للإيكولوجيا (دراسة العلاقة بين الكائن والبيئة). تعتمد المنهج الأنتربولوجي، الملاحظة

(1) الفكر البرغماتي Pragmatisme: مذهب أسسه شارل بيرس، وطوره وليم جيمس، وهو ينظر إلى الحقيقة Truth، بأنها في صميم التجربة الإنسانية أو الفعل البشري، وأن النظريات أدوات سلوك، وأن صدق الأفكار بكونها ذات فائدة أو منفعة.

بالمشاركة. مؤسسها جورج سيمل وهربرت ميد (1863-1931)، والتفاعلية الرمزية تعود إلى فكرة وحدة الفعل الصغرى، على طريقة بارسونز. ومن مسلماتها أن "الفاعل يختار من بين أهداف ويختار الوسائل لتحقيق تلك الأهداف في موقف يتكوّن من موضوعات مادية واجتماعية، والاجتماعية تتضمن معايير اجتماعية وقيماً ثقافية (إيان كريب، النظرية الاجتماعية، ص130)، تتطلب عملية خلق المؤسسات أن يوجّه الفاعلون أفعالهم نحو بعضهم البعض لتحقيق الإشباع المتبادل" (م.ن.).

إن الفرضيات المعتمدة في هذا النموذج أو المقاربة، كما يوضحها هاربرت بلومر[1] (1969) هي:

1 - إن البشر يتصرّفون حيال الأشياء على أساس ما تعنيه تلك الأشياء لهم.

2 - هذه المعاني هي نتاج للتفاعل الاجتماعي في المجتمع الإنساني.

3 - وهذه المعاني تحوّر وتعدّل ويتم تداولها عبر عملية تأويل يستخدمها كل فرد في تعامله مع الإشارات التي يواجهها (إيان كريب، النظرية الاجتماعية، ص132).

فما هو المعنى، وما هو الرمز؟

الرمز (Signe)، هو العلامة أو الكلمة. أقول مثلاً: منى الصوت هو "الدال" ومعنى الكلمة أي منى هو المدلول، فالرمز هو الـ (Symbole)، ومكوّن من: الدّال (صوت Signifiant). ومن المدلول (مكون ذهني، فكري)، فالمعنى المتكوّن أو الذهني، أو ما دلّ عليه الرمز بالنسبة لهذا الفرد أو ذاك هو التأويل... والرمز يستخدم لنقل رسالة ما شرط أن يدل هذا الرمز على شيء... "فالزهرة التي تنمو كي تحمرّ خجلاً من دون أن ترى فلا يمكنها أن تصبح رمزاً، لأن ليس هناك من شخص يمكن أن يحوّلها إلى رمز. أما حين "توجد الزهور ضمن ثقافة من الثقافات فإنها يمكن أن تتحوّل إلى رموز، عندما يصنع منها إكليل وترسل إلى جنازة، هنا يكون

---

(1) هاربرت بلومر Harbert Blummer (1900-1986) أميركي من أهم روّاد التفاعلية الرمزية.

الإكليل دالاً قد نعبّر عن مدلوله بقوله: تعازينا" (جون ستروك، البنيوية وما بعدها، ص15).

وهكذا فالمقاربة الطبيعية تبحث في نهج الأنظمة الرمزية في التنظيم، القواعد والمعايير التي تؤلف الروتين، والممارسات المنتظمة اليومية.

2 - منهجية النظام الاجتماعي:

وهي تعني دراسة أساليب الشعوب في خلق النظام الاجتماعي. والإتنوميدولوجيا[1] هي النموذج الثاني من مناهج السوسيولوجيا التأويلية، التي استمدت عناصرها من أعمال جورج سيمل، وجورج هربرت ميد، وهي تهدف إلى دراسة المنطق العملي للحس العام في الأوضاع المؤلفة للفعل، ويحلل "البحث الإثنومتودولوجي الأنشطة اليومية باعتبارها المناهج التي يتبعها الأعضاء لجعل هذه النشاطات تظهر بشكل منطقي مرئي وممكنة الوصف (بمعنى إمكان أن تقدّم تقريراً عنها) باعتبارها تنظيماً للنشاطات اليومية العادية" (أرمان وميشال ماتلار، تاريخ نظريات الاتصال، ص149).

ومؤسس هذا التيار هارولد غارفنكل (Harold Garfinkel) (1987-1917) تلميذ بارسونز، والأستاذ بجامعة كاليفورنيا من خلال كتابه المعنون "دراسات في الإثنومتودولوجيا (Studies in Ethmomthodolgy)، الذي صدر سنة 1967" (م.ن، ص148).

وتتركز منهجية النظام الاجتماعي على دراسة المواقف واللغة، والفكرة الأولى، هي الطبيعة الفهرسية (Endexicality)، للمعنى، فعمل اللغة يشبه عمل الفهرسي في المكتبة، الذي يحيلنا إلى أعمال أخرى في الموضوع نفسه، وكذلك اللغة، فكل كلمة من كلماتها يحيلنا معناها إلى سياقها[2] والمواضيع التي تناسبها من كلمات أخرى.

---

(1) Ethnomethodologie: منهجية النظام الاجتماعي، ومؤلفة من دراسة Logy، أساليب Method، الشعوب Ethno، في خلق النظام الاجتماعي.

(2) السياق: يتضمن في حالة المحادثة نبرة الصوت، تعابير الوجه واستخدام الإيماءات، =

أما الفكرة الثانية، فتعالج مسألة قدرتنا على التصرف كما لو أن المعاني واضحة، في إشارة إلة خاصية البصيرة (Reflexivity)[1] "التي نمتلكها بوصفنا بشراً، والتي تظهر في حديثنا عن أفعالنا ومواقفنا" (إيان كريب، النظرية الاجتماعية، ص158).

وأشار غارفنكل (Garfinkel) إلى أن هذا النشاط بوصفه "التوقعات الناشئة من الخلفية" (Background expectancies)، وهي أشكال مستمدة من السليقة المسلم بها من دون نقاش، ومنهجية النظام الاجتماعي هي نظرية في "المعرفة الاجتماعية"، أو نظرية عامة عن الأشخاص والأفعال، وهي "نظرية عن الطريقة التي نتفق بها على ما يتشكّل الواقع الاجتماعي منه" (م.ن، ص8).

إن مهمة العالم والإتنوميدولوجي تشخيص العمليات التي من خلالها يدرك الناس مَن هم. إن الحدث الاجتماعي ليس معطى، إنه خلاصة لنشاط الأشخاص من أجل إعطاء معنى لممارساتهم اليومية. إنه مخطط الاتصال، يحل محل مخطط الفعل، وقدرة المتلقي على إنتاج المعنى، وعلى تطوير آليات التأويل.

المقاربة الثقافية (Approche culturelle):

يعرّف كليفورد غيرتز[2] الثقافة بأنها "عبارة عن عالم يصنعه الانسان، وتمكنه من صُنعه القدرة على الترميز، على إلحاق معان غير مباشرة تجريدية، بالأشياء والأحداث" (كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ص13).

والمقاربة الثقافية للمنتظمات الاجتماعية، تتمثل بدراسة الأنتربولوجي

= وعليه فإن الجملة التالية: أنا قادم الساعة الخامسة قد تعني وعداً أو وعيداً أو رجاء. (محمد حسين غلوم، في النظرية الاجتماعية، هامش، ص157).

(1) البصيرة Reflexivity، الملكة التي تمكن البشر من تأمل مواقفهم الذاتية (م.ن، ص158).

(2) كليفورد غيرتز Clefford Greetz، أستاذ العلوم الاجتماعية في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون/ نيوجيرسي.

لأشكال العمل، الفولكلور، الطقوس الثقافية (الموت، الزواج والفرح). تنهض المقاربة، مثلاً، على دراسة الحقيقة المبتناة، انطلاقاً من الأفراح، التاريخ، الأساطير، آداب السلوك... إلخ.

من هذه الزاوية، فإن الاشتراك بالمعايير والطقوس يزوّد الأفراد بأرضية رمزية مشتركة. إن المقاربة الثقافية يمكن أن تفسّر النزاعات، الإخلال بالتعهد، والالتزام وتبريرات السلوك، وتسمح بتوقع مستقبل الأحداث الاتصالية.

والبراديغمات هذه، أو النماذج التحليلية للبحث، تتضمن مجموعة مقبولة من النظريات والإجراءات والافتراضات، انطلاقاً من نظرة الباحثين إلى العالم، ومقاربة الحقيقة، أو كيفية بنائها. وهذه النماذج التحليلية تعتمد في العلوم الاجتماعية. ولاحظ نيومان (Newman) (1977) وبليكي (Blaikie) (1993) ثلاث مقاربات لبحوث العلوم الاجتماعية: الوضعي، الموضوعي (Positivisme) أو الإيجابي، والتفسيري (Interprétatif)، والنقدي (Critiqual). والحقيقة بين الموضوعي والتفسيري تتراوح بين الاستقلال عن الباحث (Positive)، أو ذاتية (Subjective). كذلك في النظر إلى الظواهر والكائنات البشرية لجهة التشابه أو عدم التشابه.

وإجرائياً، يمكن التوقف عند الاختلافات العملية بين ما هو موضوعي، وضعي، وما هو تفسيري تأويلي:

1 - الباحث في المقاربة الوضعية، منفصل عن البيانات والمعطيات. وفي المقاربة التفسيرية لا وجود للبيانات بلا الباحث.

2 - التصميم: حسب الوضعية، يتقرر تصميم الدراسة قبل أن يبدأ بها الباحث. وفي التفسيرية، التصميم يتقدم أثناء البحث.

3 - الإطار - الخلفية: في المقاربة الوضعية يحاول الباحث الحدّ من المتغيرات الدخيلة، في إطار السيطرة على البحث، أما الباحث التفسيري مجري الدراسة في الميدان، من دون السيطرة على المتغيرات الدخيلة.

4 - أدوات القياس: في المقاربة الموضوعية تكون أدوات القياس منفصلة عن الباحث، أما في المقاربة التفسيرية فالباحث هو الأداة، ولا يمكن لأي شخص أن ينوب عنه (باحث آخر).

5 - بناء النظرية: الباحث الموضوعي يسعى لاختبار النظرية (قبول أو رفض). الباحث التفسيري يطوّر النظرية كجزء من العملية البحثية. فالنظرية تتطور من البيانات، كجزء من عملية البحث. (روجر ويمر، مدخل إلى مناهج البحث الإعلامي، ص212-213).

جـ - المسائل كإشكاليات:

دلّت الإبستمولوجيا، عبر كشفها عن الصدوع المعرفية، في المنطق والمنهج ومصادر المعارف والعلوم على تعدّدها وتنوّع مشاربها، أن التطوّر هو سمة العلم والمعرفة على حد سواء.

كما دلت الإبستمولوجيا أن تحوّلات الواقع واكتشافاتها غيّرت من منشأ المعرفة والعلوم، انطلاقاً من ظهور العقل الوضعي، التجريبي، الذي ركن إلى التجربة والاختبار كأساسين قويين من أسس المعرفة.

والمسألة الآن، إذا كان منطق أرسطو تصدّع، بفعل أورغانون فرنسيس بيكون وطريقة ديكارت، وإذا كان منهج ديكارت تصدّع بقوة التجريبية الإنكليزية، التي قادت إلى نشأة فلسفة العلم، وولادة منهج الكشف لدى كارل بوبر، وبراديغم البحث لدى توماس كون وغيرهما، فلمَ لا تتصدّع، والحال، النظريات التي سوّغت مشروعيتها على أسس معارف ومناهج تعرّضت للاغتيال، وهي وضعت أساساً لتفسير ظواهر اجتماعية ونفسية وإنسانية؟

فعلى سبيل المثال، لا الحصر، كيف يمكن أن أطبّق نظرية عالم الاجتماع الفرنسي إميل دوركهايم، التي تتحدث عن انتقال مهن الآباء للأبناء على الصحافة أو الإعلام الإلكتروني؟ يمكن تطبيقها لغاية الصحافة المكتوبة (النهار لآل تويني، الصيّاد والأنوار لآل فريحة... إلخ).

هذا يعني أنه لا يمكن النظر إلى النظرية بمعزل عن سياقها في الواقع، وظروف ظهورها، والدور التفسيري الذي لعبته في دراسة ظواهر اجتماعية أو إنسانية.

وهذا يقودني إلى التشدّيد على قضية ذات أهمية، وهي أن النظرية إرشاد، لما يمكن عمله في حلّ مشكلة. فِهم النظرية يعني معرفة إلى أي حدّ ساهمت هذه النظرية في حل مشكلة بحثية. وهنا، لا يمكن فهم آليات الإعلان في المجتمع الاستهلاكي الحديث بالاستعانة بـ "الريطوريقا" الكلاسيكية اليونانية، بل لا بدّ من العودة إلى رولان بارت وبرلمان في فهم كيفية التأثير في الناس أو إقناعهم بشراء سلعة ما، بعدما فرضت الدعاية نفسها كنمط من أنماط الحياة في قالب النظام الإعلامي.

والمسألة هنا، على الباحث الإعلامي ألا يستعجل حسم خياراته. التأني واجب، هو عليه أن يسأل نفسه لماذا ظهرت النظرية، وما هو عنصر التشابه أو عنصر الاختلاف بين الظاهرة التي سعت لتفسيرها أو اكتشاف العلاقات الداخلية بين عناصرها، ومع الظاهرة التي يدرسها؟ هل المشكلة البحثية لديه، تتعلق بالتأثير، أو بالوظيفة، أو باللغة، أو بالجمهور، أو وسائل الإعلام أو "الميديا"؟

يلعب التبصّر دوره في التماس الطريق إلى النظرية أو المقاربة.

ثمة تحوّل حصل بعد الحرب العالمية الثانية، فالأبحاث لم تعد تتركز على الدعاية من زاوية الإثارة والاستجابة، بل على الإقناع بواسطة أدلة واقعية، ذات ارتباط بالواقع الموضوعي... وهذا من شأنه أن يبدّل اللغة والخطاب على حد سواء.

ولا مراء في أن حقل الدراسات في الإعلام والاتصال تشكّل من أنظمة معرفية متعددة، تمتد جذورها إلى أصول إغريقية، ونظريات رياضية، وعلوم إنسانية.

والعلوم الإنسانية، والتي تعنى في وصف الظاهرة الاجتماعية نجحت

على هذا الصعيد، لكنها حققت نجاحاً أقل في تفسير الظاهرة: لماذا التطرّف الديني مثلاً؟

والوصف في أبسط معانيه هو اكتشاف العلاقات (Discovery) والتي لم تكن معروفة من قبل، داخل الظاهرة. أمّا التفسير فهو التقاط علاقات السببية، أو الأثر والنتيجة بين عناصر الظاهرة. وهنا، يطرح السؤال: لماذا تتناقض التفسيرات داخل الظاهرة الإنسانية؟

لعل أسباباً عدّة، تقف وراء هذا التناقض:

1 - اعتبار الباحث نفسه كجزء من المشكلة الاجتماعية، باعتباره كائناً اجتماعياً، مثل بحثه في موضوع تعدّد الزوجات، هل هو حميد أم ذميم؟
2 - تفرّد الظاهرة الإنسانية، وتحكّم الإرادة البشرية في وقائعها، ومهما قيل عن موضوعية، في هذا المجال، فإن ذاتية الظاهرة، وتشكلها، لا يمكن القفز فوقها.
3 - وعلى خلاف ذلك، فالظاهرة الطبيعية، تجري مسالكها خارج الإرادة والثقافة الإنسانيتين.

وهذا ما يطرح إشكالية إبستمولوجية عويصة: كيف يمكن إخضاع الظاهرة الاجتماعية إلى التجريب، بعيداً عن التنظير، انسجاماً مع روح العصر؟

ربما، يكون من شأن إبعاد الإيديولوجيات عن الدراسات في العلوم الاجتماعية، بعض الإجابة الناقصة.

1 - يواجه البراديغم التحكمي أو السيبرناطيقي أزمة، لجهة أن النسق يعمل بطريقة آلية، أوتوماتيكية، وفقاً لنظام المعلومات المزوّد به، وهذا يمكن أن يصحّ في الأعضاء الحيّة، وفي الآلات. ولكن كيف يمكن أن يصحّ في دراسة البنية الاتصالية، من المرسل الذي يعمل بالإرادة إلى الرسالة التي تأخذ في نظر الاعتبار الإرادة والثقافة، والمصالح الواعية؟

إنه من الممكن تطبيق الطرائق السيبرناطيقية في سياق نظرية الأنساق، مع الانتباه إلى مخاطر إسقاط بعدي الوعي الثقافي والسيكولوجي في هذا المجال.

2 - نقد مسلمات البراديغم السلوكي: جاء هذا البراديغم من السيكولوجيا، ومن الوضعية إلى حدّ ما. وينطلق من مسلمات ثلاث:

- كل مثير له استجابة.
- الاستجابة ملائمة للمثير.
- الاستجابة تلقائية.

نقد هذه المسلمات:

1 - المسلمة الأولى: الاستجابة لم تعد حتمية اليوم، إمّا بسبب التكرار أو التعوّد، أو التكذيب.

2 - المسلمة الثانية: السلوك يتغيّر حسب الأفراد، ولم تعد الاستجابة ملائمة للمثير. وهذا التغيّر يتعلق بالقواعد الاجتماعية، والمعايير الأخلاقية، والوعي الذهني السائد لدى جماعة أو في المجتمع.

3 - المسلمة الثالثة: لم تعد الاستجابة تلقائية، فبعد أن ظهرت السلوكية الانعكاسية الشرطية عند بافلوف (Pavlov)، فالاستجابة لن تحدث كل مرّة، بل هي تحتاج إلى وسط (وسيط)، إلى محيط وبنية وعوامل ثقافية واجتماعية، بمعنى ما لا بدّ من مراعاة البنية الإدراكية، تقبّل الرسالة أو عدم تقبّلها.

من هنا نفهم كيف أن البسيكولوجيا لم تعد كما كانت. في البداية كانت تدرس الوعي والاستبطان والتحليل النفسي والذاكرة. أما اليوم لدينا علم نفس الحيوان، علم نفس الطفل، علم نفس الإنسان. طرأت تحوّلات كثيرة لا بدّ من أخذها بعين الاعتبار، ومنها علم النفس المعرفي، أي كيف تتم عملية الإدراك؟ ما هي الشروط النفسية والعقلية والبيئية للإدراك؟ (انظر كتاب "علم النفس الجديد" أليكس ميشيللي، منشورات عويدات، ترجمة حسين حيدر، 1997).

هكذا لم يعد هناك مثير واستجابة. ولكن دخل عنصر ثالث وبُعد آخر هو الوسط. وبهذا الوسط تدخل مجموعة من العناصر معظمها ذو طبيعة ثقافية فكرية لها علاقة بالإدراك والمعرفة.

ما هي الحقول التي يمكن دراستها في هذا البراديغم السلوكي؟ مثلاً:

- تأثير وسائل الاتصال على الناس.
- الدعاية والإقناع.
- السلطة الخفية أو القوة الساحرة لوسائل الإعلام.

إذا كنت أريد دراسة وسائل الإعلام القديم لديّ مثير (Stimulus) واستجابة (Réponse). لا أستطيع درس تأثير الوسيلة الإعلامية من دون دراسة الوسط الذي تتم فيه العملية الاتّصالية. ثمة اتفاق أن وسائل الاتصال والإعلام هي التي تشكّل ما يمكن أن نعتبره مثيراً، ويترتب على ذلك تأثير (Effet)، وتحتاج هذه العملية إلى وسط حتى يُعطي الحدث نتائجه.

في وقت من الأوقات كانت الدراسات تدور حول أهداف. ولكن اليوم بعض الدراسات لا تُعير الأهداف أهمية. وتعتبر أنه لا ضرورة لكل دراسة أن يكون لها هدف. النقاش الذي يدور الآن يتصل بمحتوى الرسالة الإعلامية، بمرسل الرسالة الإعلامية وبالقناة أو الوسيلة أو الآلة التي تتم من خلالها العملية. ويتعلق بالمستوى الثقافي للجمهور بالانتماء العقلي والعرقي والخلفيات ومسألة المصدر والمصداَقية، لأن هناك تحوّل في القوة الإدراكية عند الجمهور، تحوّل في الصورة التي يشكّلها الجمهور بالنسبة إلى المرسل، أو القناة أو الرسالة. لم تعد المسألة تلقائية. فالعامل الثقافي ذو تأثير قوي ومهم. لم يعد السلوك تلقائياً، لأن الوعي والإدراك بات يُغيّر في السلوك. وهنا تكمن الأهمية في المصدر والمصداقية لوسائل الإعلام بسبب وجود الوعي والإدراك عند الجمهور. والتكنولوجيا هي التي فجّرت هذه الثورة الإدراكية والوعي الثقافي. تفجّر عالم المعلومات أدى إلى تفجّر الثورة الإدراكية عند الجمهور.

في ما يتعلق بتطبيق السلوكية على وسائل الإعلام، حتى ينجح

الإعلام في التأثير، هو بحاجة إلى بناء الصورة الذهنية للمُنتَج أو السلعة.

البراديغم الوظيفي: إشكاليات متعددة

ترتب على إشكاليات البراديغم السلوكي التفتيش عن براديغم آخر، هو الوظيفي. وهو يقوم على أن تأثير وسائل الإعلام يأتي من الوظيفة المرسومة لها في النسق الاجتماعي - السياسي - الاقتصادي. فالتأثير يرتبط بالوظيفة، وليس بالإثارة والاستجابة. هذا يعني أن الدراسة لا تكون من جانب واحد: فالمسألة ليست فقط كيف تؤثر وسائل الإعلام في الجمهور، بل هي أيضاً كيف يمكن للجمهور أن يتحكّم بوسائل الإعلام؟ وإذا كانت دراسة الظاهرة الاتصالية تجري باعتبارها ظاهرة اجتماعية، فهنا تطرح قضية الموضوعية على بساط البحث أيضاً: إلى أي حدّ بإمكان الباحث أن يكون موضوعياً، في ما لو كان هو جزء من الظاهرة المدروسة؟

وما دام الجزء الأهم في الدراسة، من زاوية البراديغم الوظيفي، يصبح السؤال: ما هي الوظائف الاجتماعية للوسيلة الإعلامية: هل هي التسلية، الدعاية السياسية، بناء القيم، تعميم الثقافة، إعادة بناء الحقائق، أو توليد حقائق جديدة؟

إن الباحثين في جامعة كولومبيا (Colombia) أجابوا على أسطورة القوة المطلقة لوسائط الاتصال الجماهيري بانتقادات مجتمع الجماهير (Société de masse)، بواسطة إثبات فظّ: وسائل الاتصال لا فعالية لها، أو فعاليتها نسبية. لكن هذه النقطة نفسها، شكلت وهماً جديداً (Mythe)، كما قال السوسيولوجي البريطاني جيمس هالوران (James Halloran)، الذي أحل مفهوم الفعالية محل مفهوم التأثير المحدود، حاصراً البحث بين تعريف تأثيرات الميديا وأسطورة اللاقدرة على التأثير (Breton, l'explosion de la communication, p.160).

وهذا التباين بين النظرة إلى تأثير وسائل الإعلام أو فعالية وسائل الإعلام، أثار جدلاً إيديولوجياً حول دور وسائل الإعلام في المجتمع.

وإزاء الانتقادات للثقافة الجماهيرية والمجتمع ككل، طرحت الأسئلة الإشكالية حول جدوى الصرامة العلمية، والبحوث التجريبية التي انطلقت مع لازارسفيلد وكاتز، في مقابل ظهور مفهوم التلاعب وفعالية الميديا، بحيث بدا أن السلطان المطلق لوسائل الإعلام موضع جدل أيضاً.

وأصبحت نماذج لازارسفيلد وسواه موضع تشكيك حتى بدا أن هذا العالم نفسه أدرك أن وسائل الإعلام، يمكن أن تسبّب خللاً وظيفياً (Disfonctionnement)، أي أن تحدث آثاراً غير مرغوب فيها للمجتمع. وهو ما أطلق عليه مصطلح "تخدير" بسبب طوفان المعلومات، الذي يؤدي إلى اللامبالاة (Apathie) لدى الجمهور.

ومع ذلك، فإن عدداً من الباحثين والمعلنين والسياسيين، ظلوا على قناعة بالسلطة المباشرة والمهمة لـ "الميديا" على الناس، وتأثيرها القوي على العقليات والتصرفات (Mentalités et comportements)، وهذا التأثير هو سلطة حقيقية.

وبعض من هؤلاء بقي مخلصاً لبراديغم "الآثار المحدودة" (Effets limités)، وأطروحة التأثير غير المباشر عبر ثلاثة تيارات: تيار الاستخدامات والإشباعات (Uses and gratifications)، وتيار الابتكارات من خلال شبكات التواصل الاجتماعي، والثالث تيار الأعمال المرتبطة بنظرية التباعد المعرفي (Knowledge gap)، والتي تقوم على أساسين:

1 - تعريض الفرد أو الجمهور لأنواع من المعلومات والأفكار الجديدة التي تتنافر مع ما يحملونه من أفكار واتجاهات نفسية، والهدف من ذلك هو إثارة الإحساس بالبلبلة وعدم التوازن في أذهان الجماهير تمهيداً لتغيير الاتجاهات غير المرغوبة.

2 - معاونة الجمهور على الخروج من حالة عدم التوازن بتزويده بالمعلومات الجديدة التي تحقق هدف القائم بالاتصال (صلاح جوهر، 1980، في كتاب الاتصال ونظريات المعاصرة، ص142).

وجاءت هذه التيارات الثلاثة، لتعيد النظر في الآثار القصيرة (A

(court terme)، وطويلة الأمد (A long terme)، انطلاقاً من فرضية أن "تكرار التعرّض لبعض أنواع المحتوى في بعض البيئات، لبعض أعضاء الجمهور، يؤدي إلى بعض التغيير طويل الأمد في الاتجاهات والسلوك" (نظريات الاتصال ص409). والإشكاليات هنا تبدو منهجية لجهة إقامة الدليل على هذا الافتراض، وقياس هذه التأثيرات.

وإذا كان البراديغم الوظيفي أو التحليل الوظيفي (Functional analysis) يركّز على ظاهرة متكررة (مجموعة من السلوك)، ولتكن (الظاهرة) محتوى الذوق الهابط داخل هذا النظام (الوسيلة الإعلامية). ويسعى التحليل الوظيفي إلى إيضاح أن لهذه الظاهرة نتائج تسهم في استقرار وبقاء النظام ككل، وإذا كان لهذه الظاهرة تأثير إيجابي يقال إنها "وظيفية" ، وقد يكون لها تأثير سلبي، ويقال أن لها "اختلالاً وظيفياً" (نظريات الاتصال ص129).

وإذا كان لازارسفيلد وروبرت ميرتون يعتقدان أن وسائل الإعلام تقي المجتمع من الأزمات، عبر منع الاختلالات الوظيفية، فإن ما يحصل في الواقع الاجتماعي، يطرح إشكالية الوظيفة، وإمكان تحقيقها في المجال الاجتماعي.

وكما تدل الوقائع، فإن الرسائل الإعلامية لا تؤثر في الجمهور إلا إذا كان الجمهور مستقبلاً لها.

من كل ما تقدّم، وما رَسَت عليه الدراسات الإعلامية، من تجزئة للأبحاث بين 1980 و2000، وظهور الدراسات المتصلة باستقبال الجمهور للرسالة (La réception) فإن المقاربات الوظيفية في علوم الإعلام والاتصال، كعلوم تنتمي إلى العلوم الاجتماعية معرّضة للفشل والنجاح، وذلك مرتبط بالمشكلات ونوعيتها، وهي لا تقتصر على ما هو نظري أو منهجي، بل تشمل أيضاً ما هو عملي، من مشكلات إعلامية ذات صلة بالحريات وحقوق الإنسان، والفساد أو الإصلاح الاجتماعي.

البراديغم التأويلي أو إشكالية بناء الحقيقة:

إذا كانت الموضوعية تقضي وصف الحقيقة، كما هي حادثة في الواقع، بصورة وضعية، أي بمعزل عن الذات الشاهدة أو الملاحظة للواقع، فإن النظر إلى المجتمع كمحادثة، والواقع كصورة ذهنية، من شأنه أن يكون صورة هذا الواقع، على أساس ما يعتقد الناس أنه "الموقف الحقيقي".

وهنا الإشكالية المترتبة على البراديغم التأويلي، بمقارباته المتعددة، لا سيما التفاعلية الرمزية، ومنهجية النظام الاجتماعي. فالصحف، مثلاً، "تقدّم تفسيراً أو تأويلاً للأحداث، يمكن أن تغيّر بشكل كبير تفسيرات الناس عن الواقع الحقيقي، وبالتالي تغيّر من أنماط سلوكهم تجاه هذا الواقع" (الاتصال المعاصر ونظرياته، ص155).

ويورد والتر ليبمان، مثالاً هو تصوير الصحافة لأحداث الحرب العالمية الأولى، فعندما ذكرت الصحف في 6 (ت2) 1918 نبأ الاتفاق على الهدنة (وكان هذا خبراً زائفاً) لأن الهدنة لم تتحقق إلا بعد 5 أيام، كان الناس يحتفلون ويبتهجون بصورة زائفة عن الواقع، وفي الوقت نفسه، كان ألوف الشبان يلقون حتفهم في المعارك.

وهذا ما حمل ليبمان على الاستنتاج أن "الناس يتصرّفون ليس على أساس ما يحدث أو وقع فعلاً، ولكن على أساس ما يعتقدون أنه الموقف الحقيقي" (م، ن، ص، ن).

ويترتب على إشكالية "موضوعية الحقيقة" أن البراديغم التأويلي يكاد لا يعترف بالوجود الموضوعي للمجتمع، ككيان قائم بذاته وقابل للدراسة.

والواقع أن ما ينقله الإعلام، التقليدي والحديث، والمعاني المترتبة على فهم الأحداث، والمؤدية بالتالي إلى السلوك الفردي، أو التأثير الاجتماعي، يخفي وراءه المشكلات الحقيقية، التي سوف يتجاوزها "البراديغم التأويلي" عبر بناء الحقيقة، ميدانياً، وبصورة شخصية، تفتقر إلى الموضوعية.

إن إعادة صياغة وبناء الواقع، انطلاقاً من المعنى، تطرح إشكالية إضافية، حول المقاربات الطبيعية والثقافية في تكوين قواعد ومعايير الممارسات اليومية للجماعات والأفراد، عبر الرموز المستخدمة، والمشكّلة للمعاني التي تكوّن الصور الذهنية، لدى الأفراد، بدءاً من الفولكلور إلى الروتين والعادات ونظام القيم. ووسائل الإعلام هي من أكثر من يستخدم الرموز، لأن لديها الصورة واللفظة والإشارة. مثلاً في الحروب الدعائية والنفسية تُستخدم رموز تذهب نحو معانٍ بعيدة، ووظيفة الإعلام هي أن يلعب دوراً في التأويل وبناء الصورة الذهنية، وحين يتركب التأويل لدينا ويصبح لدينا سلوك، يكون هذا السلوك من صنع وسائل الإعلام.

IV

الأطروحات:

المفاهيم - الإشكاليات - الأطر النظرية

الأطروحات: Thèses, thesis

الأطروحات أو الدعاوى هي أفكار أو دفاعات عقلية حول ما يتعيّن اعتماده لنقل علوم الإعلام والاتصال إلى علوم تصديقية، يمكن الدفاع عن بديهياتها ومسلماتها والنتائج النظرية التي تنجم عن الدراسات في هذه الميادين، ويمكن اعتبارها قضايا منهجية أو نظرية.

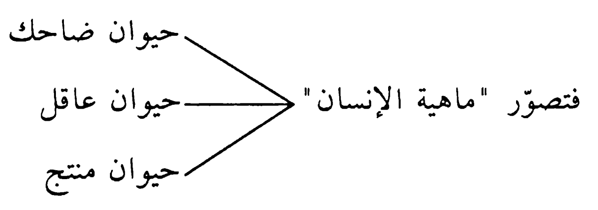
الأطروحة الأولى:

يبدأ البحث من علم أول أو معرفة مسلّم بها. يعني يبدأ من المبادئ إلى المطالب. من المعلوم إلى المجهول.

فما هي المبادئ؟ (البديهيات، المسلمات، التعريفات)، أي ما ينطلق منها العقل التحليلي. هي شروط التحليل الاستدلالي، الاستنباط قبل التجربة، قبل الاختبار. وحول هذه الأطروحة يمكن الانطلاق من أن "كل معرفة وعلم إمّا تصوّر وإما تصديق" (ابن سينا، النجاة، ص43).

التصوّر هو العلم الأول، ويكتسب العلم الأول بالحدّ (التعريف) مثل تصورنا "ماهية الإنسان". وتصوّر الشيء يعني:

- المادة.
- الصورة.



يترتب عليه نتائج معرفية هائلة، تشكّل خط المسار للعمليات المعرفية اللاحقة.

مثال: تصورنا أن الإنسان حيوان عاقل، ولّد فلسفات عقلية. فأفلاطون اعتبر أن القوة العاقلة هي العنصر المحدد في تصوّر الكائن العاقل (Homosapiens)، وعلى أساس ذلك بنى نظامه السياسي والتربوي والاجتماعي... نظام الطبقات والحكم للفلاسفة.

مثال آخر: الـ (Canal) أو وسيلة الاتصال (Média)، تصوّرنا أنها أداة نقل للمعلومة، للرسالة، يبقيها في دائرة الوسيلة أي العضو أي الآلة (Organe).

أما تصوُّرنا أنها جهاز إيديولوجي (مدرسة فرانكفورت أو المدرسة النقدية) يعني دراسة مغايرة للقناة أو الميديا.

في الحالة الأولى: الميديا تنقل المعرفة، تنقل الحقيقة، تمثّل الواقع.

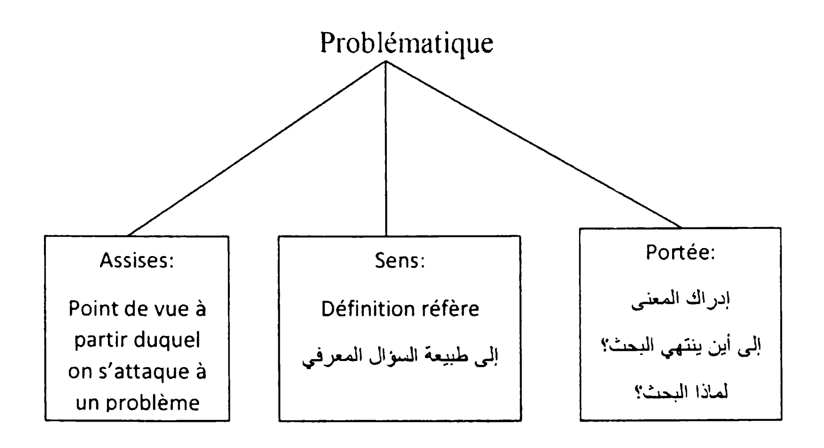
في الحالة الثانية: الميديا تنقل المعرفة التي تصنع إيديولوجيا الفرد: انحيازه، سلوكه الأثيني، أو الأسبارطي، العاقل، الحربي، العنفي.

هكذا يتضح أن التصوّر هو اللبنة الأولى للعلم، وهذه هي نقطة انطلاق المعرفة هي توليد للمسلّمة، هي بناء للنظرية.

التصوُّر أو التعريف هو بديهية أيضاً.. فإذا عرّفنا الاتصال البشري قلنا: هو فعل بين شخصين أو أكثر. الأول يسمى المرسل (Déstinateur)، والثاني المتلقي ويسمى (Déstinataire). فهذه بديهية وتصوّر معاً.

فجون ستيورت مل يقول إن كل تعريف يتضمن بديهية. (بدوي، مناهج البحث العلمي، ص98).

إن التعريف أو المعنى المستفاد (Sens, Signification, Notion) يشكّل الحجر الأساس في الإشكالية البحثية.



فما هو المعنى؟ المعنى هو الصورة الذهنية من حيث وُضع بإزائها اللفظ.

ويطلق على ما يقصد بالشيء، أو كل ما يدل عليه القول، الرمز، والإشارة.

- دلالة القول على فكرة المتكلم.
- دلالة اللافتات على اتجاه السير.
- دلالة السكوت على الإقرار.
- دلالة البكاء على الحزن.

وميّز شارل بيرس (C.S. Peirce) بين ثلاثة أشكال للعلامات:

1 - الأيقونة (Icon): تكون العلاقة علاقة مبنية على التشابه، فالصليب المتدلي من رقبتي يشبه ذلك الذي صُلب عليه المسيح.
2 - المؤشر (Index): تكون العلاقة علاقة سببية، كالعلاقة القائمة بين السحاب والمطر.
3 - الرمز (Symbol): وتكون العلاقة مستندة إلى العرف أو الاتفاق

الاجتماعي، علاقة اعتباطية، فلا ارتباط ضروري بين اللون الأحمر وأمر الوقوف بالنسبة للمرور.

الفرق بين المعنى والمفهوم:

المفهوم: الصورة الذهنية، سواء وضع بإزائها اللفظ أم لا، في حين أن المعنى هو الصورة الذهنية، من حيث وضع بإزائها اللفظ.

المعاني (جمع معنى) تطلق على مبادئ علم من العلوم المدونة. تقول: المعاني الرياضية، المعاني السياسية، المعاني الفقهية، المعاني الإعلامية.

المعاني الإعلامية، مثل:

1 - وسائط الاتصال. إنتاج تلك الوسائط، سلطة الوسائط، صدقية الوسائط.
2 - النيّة (Intention): الدعاية السياسية، الإقناع، استراتيجية البرمجة.
3 - الرسالة (Message): تحليل محتوى الصحافة، البث التلفزيوني، التحليل السيميولوجي للإعلان.
4 - الترميز (Codage): دراسة الشكل الأيقوني، النصي، الفعلي، محتوى الرسالة... إلخ.

إذا لم يؤدِ اللفظ إلى ارتسام صورة ذهنية واحدة لم يتم التفاهم بين الناس سوء اتصال، سوء إعلام.

فالصورة الذهنية مختلفة باختلاف الأفراد. والسبب الاختلاف بالتصورات، والرغبات والميول. فربّ لفظٍ أثار في ذهنك صوراً غير تلك التي أثارها في غيرك.

الجانب العلمي أو الموضوعي في المعاني:

ما تدل عليه الألفاظ من المعاني المتفق عليها وضعاً واصطلاحاً.. وأقرها الاستعمال فأصبحت مادة مضامينها واحدة.

مثال:

- معاني الألفاظ المدونة في المعاجم.
- الكتب العلمية.
- الموحدة في الاستخدام.

أما المعاني المشتركة (Sens communs - Notions communes)، فهي الحاصلة بالنفس بالفطرة (كالبديهيات، والمسلمات).

يتّضح مما تقدّم أن التصوّر أو المفهوم أو التعريف ضروري في بناء العلم وتقدمه، سواء أكان العلم يتبع المنهج الاستنباطي، كما هو الحال في الرياضيات أو المنهج الاستقرائي، كما هو الحال في العلوم الطبيعية والاجتماعية.

فالتعريف له صفة تكوينية، عقلية، وتجريبية، ففي منهج الاستدلال العقلي (التحليلي) تفيد المبادئ (بديهيات، مسلمات، تعريفات) في استخلاص القضايا المتصلة بالمطلوب، وكيفية البرهنة عليه بالاستنباط... فالعبرة في التصديق تكون للمبادئ، وليس للنتائج المترتبة عليها.

التصديق أو الإثبات، الصدق، الحقيقة، بناء العلم القائم على الحقيقة يكتسب بالقياس. والقياس أو الاستدلال يُبنى على حزمة من المبادئ المعمول بها في العلوم.

فالتصديق يكتسب بالقياس أو الاستدلال التحليلي، ويكتسب بالتجربة أو الاستدلال الاستقرائي.

هذا يفترض عناية خاصة، ببناء التعاريف، والبديهيات والمسلمات.. لحسن صياغة الفروض وبلورة خطة سير الإثبات والاختيار، وتحويل المعرفة إلى معرفة إخبارية، تصح فيها مسألة الصدق والكذب.. أو التفنيد، من خلال المحاولة والخطأ، وإعادة المحاولة واستبعاد الخطأ.. على حد ما يرى كارل بوبر.

الأطروحة الثانية:

إعادة تعريف العلم تصبح مسألة واقعة، عند استقبال براديغم جديد، وهذه الأطروحة مبتناة على تأكيد لطالما استخدمه فيلسوف العلم توماس كون (1922-1994) (Thomas Khun): "إن استقبال براديغم جديد يقتضي غالباً إعادة تعريف العلم المطابق له" (بنية الثورات العلمية، ص194). وهذا يعني أن الانتقال من العلم العادي أو البراديغم المعمول به من قبل الجماعة العلمية، في حقل ما من حقول المعرفة إلى علم جديد أو براديغم جديد في الحقل المعرفي نفسه، يقضي إعادة تعريف المصطلحات والمفاهيم والمبادئ (القواعد) وحتى المسلمات التي يمكن النظر إليها كافتراضات.

والمتفق حوله، أن الانتقال من القديم إلى الجديد هو سمة الكون، الوجود، الطبيعة، وصولاً إلى المجتمع والفكر والعلم نفسه.

وهذا يقتضي إعادة النظر في مبادئ المعرفة الأولى كالبديهيات والمصادرات والتعريفات، بوصفها مقدمات نظام الاستدلال، أو المنهج الاستدلالي الاستنباطي.

البديهية: قضية بيّنة بنفسها، من غير الممكن البرهنة عليها. صادقة عند مَن يفهم معناها.

خصائصها:

- تنقدح واضحة في النفس بلا برهان أو واسطة.
- أولية منطقية، غير مستنتجة من غيرها.
- قاعدة صورية عامة.

معنى هذا المصطلح بالإنكليزية أهم منه في اللغات الأخرى (Evidence). فهو يقال على اليقين الذي يفرض نفسه على المرء. (مراد وهبة، المعجم الفلسفي، مصطلح بداهة، وضوح).

توجد البديهية في الرياضيات، وفي العلوم الروحية والاجتماعية، كما توجد في الميكانيكا.

البديهيات بعضها مجرّد تعريفات أو نتائج لتعريفات.

فكيف نعرف الكل والجزء من دون أن نضمن في التعريف أن الكل أكبر من الجزء. لذا كانت صورية (Forme).

- من البديهيات في الإعلام: الفرد كائن إعلامي، اتصالي.
- مَن يملك وسائل الإعلام ليس كمن لا يملك وسائل الإعلام. مثل قوله تعالى: "هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون".
- تزود الصحف القارئ بالمعلومات.

البديهية في معجم (LE ROBERT):

(Evident,ente): caractère de ce qui s'impose à l'esprit par son caractère d'évidence certain, flagrant, incontestable, indiscutable, sûr. Il est évident qu'il a menti.

صفة، لما يفرض نفسه على الذهن بخاصية البداهة.. أكيد، واضح، جلي، ظاهر، غير قابل للنزاع، غير قابل للنقاش، ولكن الرياضيات الصورية، تربط صدق البديهية، بفرض البرهنة عليها.

تفتح البديهيات الباب المعرفي على مصراعيه أمام المصادرات والتعريفات، في الميادين البحثية أو العلمية أو المعرفية.

فبديهية الفرد كائن إعلامي، قادت إلى البحث بالفرد وصولاً إلى الجماعة، مَن هو؟ ولماذا يسعى إلى الإعلام وأدّت في نهاية المطاف إلى ولادة مصطلحات، الـ (Masse)، (Audience)، المستمعون، إعلامي يهتم بمعرفة الخبر، ما يتعلق به ما يحفظ كينونته.

بديهية ثانية: تأثير وسائل الإعلام في المجتمع. هذه البديهية لا تصلح أن تكون عنوان بحث إعلامي، خاص، جزئي، فردي، ولكنها يمكن أن تقود الباحث أو القائم بالملاحظة إلى الإجابة عن "الأسئلة المطروحة

بدوافع تمسك السلطة أو القوى صاحبة المصلحة في المجتمعات المسيطرة على هذه الوسائل" (محمد عبدالحميد، نظريات الإعلام واتجاهات التأثير المعاصرة، عالم الكتب، (ط2) 2000، ص245).

المصادرة (Postulat)

أقل بديهية، ووضوح، ووثوقية من البديهية.

- ❖ البديهية واضحة بذاتها.
- ❖ المصادرة يسلم بصحتها، فهي تفيد بناء العلم.
- ❖ البديهية: قضية تحليلية.
- ❖ المصادرة: قضية تركيبية.
- ❖ البديهية: تعبّر عن قضايا مشتركة (وخصائص مشتركة).
- ❖ المصادرة: تتعلق بنوع معيّن.
- ❖ المصادرة تتفق مع البديهية بأنها غير قابلة للبرهان، لا يُبرهن عليها، بل يسلّم بها.
- ❖ المصادرة يمكن أن تستبدل: بتغيير العلم تتغير المصادرات.
- ❖ تتحقق صحة المصادرة بالنتائج.
- ❖ والمصادرة هي المسلمة، وهي مبادئ موضوعة لاستنباط بعض الحقائق المبنية عليها، لعدم العثور على غيرها، ولحاجة البرهان عليها.

المسلمة (Présupposition). المصادرة (Postulat).

Postulat: point de départ indémontrable, mais tenu pour incontestable d'un raisonnement logique:

نقطة انطلاق، غير مبرهن عليها، ولكن تؤخذ بوصفها غير قابلة للتنازع، في تعليل منطقي.

الرياضيات: Postulats d'Euclide

من نقطة يمكن مدّ مستقيم ______ D'un point on peut faire

مواز مستقيم ________________ Une seule parallèle

المصادرة في الاقتصاد:

- ❖ الإنسان يفعل وفقاً لما يرى فيه الأنفع.
- ❖ كل إنسان يطلب السعادة.

في الإعلام:

الاتصال لم يكن ممكناً بين البشر من دون الاتفاق على معانٍ موحدة للرموز الموجودة في البيئة.

هذه المصادرة التي تُبنى عليها نظرية "التفاعلية الرمزية" تؤدي إلى استنباط أو استدلال أن الأفراد ينظرون إلى الأشياء والأشخاص عبر العملية الاتصالية من خلال إدراك الرموز وتحديد المعنى، وهذه عملية عقلية.

من المسلمات (المصادرات) الكبرى في الأعمال الأولى حول التلقي (الاستقبال) (Reception).

1 - المسلمة الأولى: بما أن للجمهور وجود فعلي، واقعي، لذا يتعيّن أن ترتكز برامج الأبحاث على الإصغاء إلى صوت هذا الجمهور. وهذا يؤدي إلى التخلي عن النظرة إلى المستقبل من خلال نموذج النص - الكاتب (Texte de l'auteur)، كما ينظر إليه الباحث، بل إلى الجمهور الفعلي، عبر الملاحظة، كيف تلقى النص أو الرسالة؟

2 - المسلمة الثانية: تتعلق بنموذج النص - القارئ (Modèle texte-lecteur). فمعنى النص لا يكون جزءاً من النصّ بالنسبة للقارئ. فالمتلقون يهتمون بالرسائل الموافقة لميولهم، وليست المعارضة لآرائهم.

3 - المسلمة الثالثة: إعادة الاعتبار لتأثير الوسائط على الجمهور. يوجد توتر جدلي بين سلطة الميديا وقدرة المستقبِل على مقاومة هذه السلطة أو التآلف معها.

التعريفات: التعريفات كالمصادرات تتعلق بتصورات خاصة بكل علم. في الهندسة: الخط، النقطة، المثلث، التطابق.

التعريف:
- معنى المعرَّف وحده وماهيته (الشيء، الموضوع) وهو الشيء المراد تعريفه
- المعرِّف، القول الذي يحدّ خواص الشيء المعرَّف.

في علم الإعلام: المرسل المستقبِل = الرسالة.

- الإعلام.
- الجمهور.
- الوسيلة (Support) (Outlet).

هناك تعريف عقلي، مفهومي، مجرّد، كالتعريف الرياضي، فهو قبلي، نهائي، ثابت، كليّ، ضروري.

والتعريف الرياضي تكويني (Génétique). الخط يتكوّن من نقاط. المثلث من ثلاثة مستقيمات.

التعريف التجريبي يتعلق بالعلوم الطبيعية.

المنهج التجريبي تتكون عناصره شيئاً فشيئاً في ميدان التجربة.

التعريف التجريبي: فكرة الإنسان أو (Homosapiens) لم تتكوّن دفعة واحدة، بل بإضافة صفات إلى صفات نكتشفها بالتجربة. التعريف التجريبي عناصره مفتوحة على عناصر جديدة. نكتشف المعرَّف بالتجربة ماهيته. أي ماهية المعرَّف ← هكذا يصبح التعريف قول متغيّر بتطور العلم.

يمكن أن يوجد للشيء الواحد تعريفات عدة كلها متساوية، وغالباً ما يتكوّن بطريقة تكوينية وفقاً لنمو المعرفة.

لغة: عرَّف (يعرِّف) تعريفاً: 1- عرَّفه الأمر: أعلمه إياه، جعله يعرفه، عرَّفني أخي طريقة حل المسألة.

عَـرَف: عكس جَهِّلَ.

1 - عرَّفه: جَعَله يعرفه، عرَّفتُ أهلي برفيقي الجديد.

Définition:

1. Définir: déterminer par une formule précise l'ensemble des caractères qui appartiennent à un concept, à une idée générale (et correspondent à une classe de choses).

عرَّف: حدّد بصيغة دقيقة مجموعة الميزات التي تنتمي إلى مفهوم ما، لفكرة عامة، وتناسب طبقة من الأشياء/ صنف.

2 - التحديدات (التعريفات) (Définitions) التي تعرَّف بها ماهية الشيء على سبيل التصوّر.

On définit un concept, et on décrit un objet.

- التعريف يمكن أن يكون تصوّرياً، تجريدياً، مفهومياً.
- ويمكن أن يكون وصفياً، تعريفياً، تقريرياً. وبكلا التعريفين يمكن أن نقف عند حدود الخصائص، الدقيقة المحصورة، أي التي لها حدود.

Définition d'un mot, donner ses significations Définition

2. Caractériser une chose, une personne particulière.

تعريف كلمة: إعطاء معانيها. تعريف: إعطاء خصائص شيء، شخصية فردية (جزئية).

Une sensation difficile à définir → Indéfinissable conditions qui restent à définir. Mot bien défini.

3. Définition: opération par laquelle on définit un concept (en énumérant ses caractères ou tous les objets auxquels il renvoie).

إحساس صعب تعريفه غير قابل للتعريف. شرائط باقية للتعريف. كلمة محددة تماماً.

3 - إجراء من خلاله نعرّف مفهوماً (بتعداد خواصه، أو الأشياء التي تعود إليه).

تعريف (Définition): قول شارح.

1 - عند أرسطو: قول دال على ماهية الشيء، ويكون مشتملاً على مقوماته أجمع. مركب من جنس وفصل.
2 - التعريف: حدّ: القول الدال على ماهية الشيء، أي على كمال وجوده الذاتي.

تعريف اسمي: المتعلق بمعاني الألفاظ.

أهمية التعريف أو التعريفات (التحديدات) في البحث، أو العلم، سواء أكان علماً أكسيوماتيكياً (رياضيات) أو من العلوم الدقيقة والطبيعية (فيزياء، رياضيات) أو من العلوم الروحية (اقتصاد، أخلاق، جمال)، أو العلوم الإنسانية (علم نفس، تاريخ) أو العلوم الاجتماعية (مجتمع، انتروبولوجيا، أجناس... إلخ).

اعتبارات عدّة:

1 - إشكالية البحث (Problèmatique)

تتطلب تحديد المعنى (Le sens)

تقوم الإشكالية البحثية على اعتبار التعريف قضية محورية في البحث.

لذا، لا يصدق عليه أنه صادق أو كاذب. هو اصطلاح لغوي، هو فعل من أفعال العقل الغاية منه تسهيل العمل، وتيسيره ← هو أداة التفاهم، هو أداة المعرفة.

فلا علم ← بلا تعريفات.

لذا، أنتم تبدأون بحوثكم بوضع التعريفات. هنا انتبهوا: إذا كانت الإشكالية تتعلق باستخدام تعريف بذاته، استخدمه صاحب نظرية، فانطلقوا

مما قصده هو بالتعريف، أو بالمعنى الذي قصده من وراء اللفظ الموضوع، أو المنحوت، لكن المستخدم في النظرية..

2 - نصل إلى سبب آخر لاستخدام التعريف أو التصوّر يتعلق أساساً بمنهجية بناء الأبعاد والمؤشرات والمتغيرات.

في مناهج التحقيقات الكمية (البحوث الكمية) (Enquetes quantitatives) التي عادة ما تحاول الإجابة على سؤال لماذا؟

- لماذا يختلف الانتحار وفق الأزمنة؟

- لماذا تختلف وسائط الاتصال في معالجة الأخبار؟

يحتاج الباحث إلى التصوّر، أو التعريف، أو المعنى الملائم للفظ في معرض ليس طرح الأسئلة وحسب، بل أيضاً الانتقال من الأسئلة إلى الأجوبة، عبر استخدام منهج كمي للملاحظة، عبر إجراءات:

1 - صياغة الفرضيات.
2 - إنشاء منهج الملاحظة.
3 - إنشاء المتغيرات.
4 - تحليل العلاقات بين المتغيرات.

ففي إنشاء المتغيرات: لطرح مسألة أو برهنة فرضية لا بدّ من إنشاء المتغيّرات، أي إقامة المتغيرات.

وإنشاء المتغيّرات يعني ترجمة التصورات إلى قرائن، أي الانتقال من التعريف المتجرّد (Conception abstraite) إلى (Conception concrete).

سواء:

1 - في تجسيد التصوّر.
2 - تخصيص التصوّر ← تحليل مركباته (الحالات والمظاهر).
(Dimensions) = الأبعاد التي تستخدم من المفهوم أو التصوّر.
3 - اختيار المرشدين (Indicateurs).
4 - تكوين الأدلة.

الأطروحة الثالثة: المشكلة البحثية (Problème de recherche)

تنطلق هذه الأطروحة من أن المشكلة البحثية هي سؤال الانطلاق في البحث (Question de départ).

ويُطلق هذا المصطلح (مشكلة) (Problème) (Problem) على أي سؤال مطروح سواء في المجال النظري أو في المجال العملي (Lalande, vocabulaire technique et critique de philosophie).

ولكن هذا السؤال المطروح يكون مشكلة عندما يرتبط بإيجاد حل له أو لها. يُقال: اطرح مشكلة للنقاش، ويقال: مفتاح المشكلة.

حسب (Le Robert)، فالمشكلة هي سؤال للحلّ (Question à résoudre) (Le Robert, dictionnaire, terme problème)، انطلاقاً من معطيات (Donnés)، أو سواء في ما خصّ المنهج (Méthode) الذي ينبغي اتباعه، بهدف الوصول أو الحصول على نتيجة.

يقال: مسألة في الجبر (Problème d'Algèbre).

وتطلق المشكلة على صعوبة (Difficulté) يتعيّن حلها للحصول على نتيجة. وضع غير مستقر أو خطير يتطلب قراراً من مسألة.

يقال مشكلات السير، مشكلات الشرق الأوسط، المشكلة الفلسطينية.

يقال لا مشكلة إنها شيء بسيط، بديهي. يقال مشكلات بسيكولوجية: هو في عمر لا مشكلات لديه.

المشكلة في المعرفة هي البحث عن نقاط مجهولة، خفية، غير معروفة. وهي تنطلق من مفاهيم أو نظريات، أو معادلات، أو مسلمات معروفة.

إن خط سير البحث عن المشكلة أو البحث في المشكلة يكون هكذا:

معلوم ← مجهول.

ونتيجة البحث يصبح المجهول معلوماً. وهذا ما يُعرف بالحل، ونتيجة البحث في المشكلة.

فالحل أو المعالجة ينطلق من معرفة، وقد يكون مسلماً بها وهو يحتاج إليها.

على أن المعرفة (Connaissance) لا تكفي وحدها بل هي بحاجة أيضاً إلى خط سير أو طريق، وهو ما يعرف بالمنهج (Méthode) ← (Méthodologie)، وهو ما يدرسه علم المنهجية.

وعليه: كلما تتغير المشكلة تتغير المعرفة، لأن المنهج، والمعالجة (الحل) يتغيران.

إذاً، الأصل في البحث هو المشكلة: نبدأ بمعالجتها مما هو معروف، أو معلوم لسبر غور الظاهرة (أو المشكلة)، وذلك بإرجاعها إلى سلوك العناصر النهائية المقوّمة لها، التي تتّحد مع بعضها من أجل تشكيل مختلف المركبات (راندل، تشكيل العقل الحديث، فصل (1)، ص133).

وهذا السبر أو التحليل، منه يبدأ العلم الحديث، وبالمحصلة، يتعين أن ينتهي البحث بمعرفة جديدة (Nouvelle connaissance).. والمشكلة البحثية تنتسب إلى ميدان أو حقل من ميادين أو حقول المعرفة، وربما سبق لآخرين أن بحثوا فيها أو مما شاكلها.

على الباحث المغمور شغفاً بالمعرفة، أن يعي أن المشكلة هي صعوبات معرفية، ومنهجية، والصعوبة هي إحدى خاصيات المشكلة البحثية الجديرة بالسبر والتحليل.

فهم المشكلة:

ماذا يعني فهم المشكلة (Comprendre de problème):

من الصعب إيجاد حل لمشكلة لا يفهمها الباحث، إن فهم المشكلة يعني اكتشاف صعوبتها. من المتعذر إيجاد حل لمشكلة (معالجة المشكلة)

من دون فهمها. وهنا يطرح كارل بوبر (Karl Popper) (1902-1994) (بوبر، أسطورة الإطار ص126-127) منهجاً جديداً للتعرّف على المشكلة، بصورة أفضل، وتسمح بحلها: "فهم المشكلة يعني أن نفهم لماذا لا يسهل حلها... لماذا تفشل أوضح الحلول".

الخطوة الأولى: إخراج الحلول الفاشلة من المحاولة. والخطوة الثانية أن نحاول اكتشاف لماذا تفشل هذه الحلول: هل الأسباب تتصل بالواقع والمتغيّرات، أم بالطريقة (المنهج)، أم بأي سبب آخر؟ الخطوة الثالثة: أن نلجأ إلى التخمين من جديد، محاولة جديدة.

ويعتبر بوبر أن هذا هو منهج "المحاولة واستبعاد الخطأ، وهو يختلف عمّا يسمى منهج الاستقراء" (م، ن، ص127).

وأياً كانت المشكلة، نظرية أم عملية (تطبيقية) فإن حل المشكلة، يبدأ بفهمها، وذلك عندما نكتشف أن حلاً واضحاً وهيناً لا ينطبق عليها. "ذلك أن المشكلة صعوبة، وأن نفهمها، يعني أن تمرّ هذه الصعوبة في خبرتنا" (بوبر، م، ن، ص128).

وتستمر المحاولة حتى نصبح على إلفة مع المشكلة: الفشل ليس سوى طريقة للتعلم.. الفشل هو اكتشاف الصعوبات.

ينطلق بوبر من أطروحة معرفية - علمية قوامها أن: المعرفة لا تبدأ من الإدراكات (Perceptions)، أو الملاحظات (Observations)، ومن خلال جمع المعلومات أو الوقائع (Collecte d'informations ou des faits). إنها تبدأ مع المشكلات: لا معرفة من دون مشكلات (Pas savoir sans problèmes) (Popper, A la recherché d'un monde meilleur, p102-103). لكن بوبر يستدرك، للتو، أن لا مشكلات أيضاً من دون معرفة.

السؤال هنا: هل علم مناهج البحث (أو نظرية المعرفة العلمية) أمام سؤال عسير أو تناقض (Paradox)؟

يجيب بوبر: نعم، هناك تناقض ظاهري (Paradox) فعلي، يواجه

نظرية المعرفة، لا سيما المعرفة العلمية (Connaissance Scientifique)، ويكمن بالتعارض أو التصادم بين:

1 - أطروحة المعرفة الواسعة: العلم بتفاصيل ووقائع ذات أهمية تطبيقية، ونعرف أيضاً النظريات المفسّرة للأشياء، سواء أكانت في الطبيعة أم الحياة، "ونحن نعرف أنفسنا والمجتمعات الإنسانية" (بوبر، أسطورة الإطار، ص129).

2 - الأطروحة الثانية: إننا نجهل، من دون حدود، جزئيات المعرفة، ومع كل معرفة نكتسبها، نتيقن أكثر فأكثر كم هو مترامي الأطراف جهلنا (Ignorance).

ومن هاتين الأطروحتين (المسلمتين) يخلص بوبر إلى أن هذا التصادم أو "التوتر" هو ما يميّز الموقف المعرفي، وهو مهم لنمو المعرفة وتقدمها.

ومن وجهة نظره، لا تعدو المشكلة أن تكون هذا التوتر، بجوانبه المختلفة.

وينتهي بوبر إلى تحديد 3 خطوات في نظرته إلى منهج العلم:

1 - "نعثر على مشكلة.

2 - نحاول أن نحلها، عن طريق اقتراح نظرية معينة.

3 - نتعلم من أخطائنا، خصوصاً الأخطاء التي تظهر بوضوح أمامنا، ونحن نحاول اختبار هذه الحلول". (بوبر، أسطورة الإطار، ص13).

وهنا ترسيمة من 3 كلمات لإجراءات ما يصفه بوبر بـ "العلم العقلاني" (م، ن، ص، ن):

مشكلات ← نظريات ← نقد

الأطروحة الرابعة: حول الإشكالية وبناء الموقف المعرفي:

ليس من السهل بناء الإشكالية أو صياغتها خارج ما يمكن تسميته بالموقف المعرفي. وهو ما يمكن أن يُعرف بالتصميم أو الخطة. تلك الخطة التي تُماثل أو تُحاكي إقامته بناء أو تشييد بناء، أو تنفيذ مشروع.

بناء الموقف المعرفي هو المنهج الذي يتعيّن اتباعه لمعالجة مشكلة بحثية. مثل أي بناء ترتبط الترسيمة أو الخارطة، أو "البروفة" بـ:

- طبيعة المشكلة.
- الغرض البحثي منها.
- الإشكالية التي يتعيّن الانطلاق منها.

بعد تحديد المشكلة وتعريفها يمكن الانتقال إلى الإشكالية، ولكن هذا الانتقال ليس فورياً، هو بحاجة إلى محطة وسيطة، مرحلة تجميع المعطيات، هي الاستكشاف (L'exploration)، وقوامه القراءات، وتشمل المؤلفات الكلاسيكية في حقل الإعلام والاتصال (ولا أدري مدى توفرها) والتقارير البحثية المعاصرة والأوراق البحثية المعاصرة والأوراق البحثية، والأدب العلمي المبدع، والأنظمة المعرفية، على شتى منابعها ومشاربها.

وبالإضافة إلى القراءات، هناك الأحاديث، والمقابلات، والاستفتاءات والاستطلاعات والتحقيقات الميدانية وسواها.

تستخدم القراءات التمهيدية في مهمة إطلاع الباحث على الأبحاث التي تناولت الموضوع الذي يدرسه، والتي من شأنها أن تساهم في إرشاده حول كيفية مقاربته أو التصدّي له، من خلال المقاربة أو العدسة النظرية التي تفيده في إحاطة موضوعه، وبناء الموقف المعرفي الملائم له.

ومن شأن المقابلات وجمع المعلومات بشتى التقنيات المتاحة، مساعدة الباحث على إعادة بلورة المشكلة البحثية، تمهيداً للانتقال إلى طرح الإشكالية.

وعلى سبيل التذكير، فتعريف المشكلة بسيط: هي سؤال معرفي يتشب إما إلى:

- مسألة أو ظاهرة في الواقع العياني الملموس.
- إما مشكلة عملية أو تطبيقية (Problématique).
- إما مشكلة نظرية أو ميتودولوجية (Méthodologique).

ومن مميزات المشكلة:

- قابلة للعيان، فهي ظاهرة.
- لها مكان وزمان فهي متميزة.
- قابلة للاختبار والتكذيب، فهي إخبارية، تجريبية.

والمشكلة أو الظاهرة المدروسة تجري مقاربتها عبر الإجابة عن سؤالين: السؤال الأول وصفيّ، كيف (Comment): كيف تشكلت المشكلة، التكوين، النشأة، التطوّر، ما هي عناصرها. والسؤال الثاني تفسيري: إجابة عن السؤال: لماذا؟ (Cause-effet) العلاقة بين العناصر، كيف تعمل هذه العناصر؟

مع مرحلة الاستكشاف وإعادة صياغة المشكلة أو تعريفها في ضوء القراءات والمعارف المحصلة بالاستبيان والمقابلة والتحقيقات الكمية، يمكن طرح النموذج أو الإطار لبناء الموقف المعرفي. وهو ما يمكن تسميته بـ (Le modèle)، وهو يعتمد على المشابهة والمماثلة. فهو أقرب إلى ماكيت الصحيفة (Maquette) أو الرسم الهندسي، أو خارطة البناء.

و"الموديل" (Modèle) هو تمثيل مجرّد لما يحدث في العالم الحقيقي.

لذا على الباحث المهتم بحل مشكلة ما أن يقرأ كثيراً، وأن يتصل بالآخرين، ممن يعملون في الإطار نفسه، وأن يوثق ويبحث بحثاً دقيقاً وجدياً.

... وفي البحث العلمي عليه أن يلمّ بكل ما كتب سابقاً حول

الموضوع أو المشكلة التي يريد بحثها. (روشكا، الإبداع العام والخاص، ص39).

من المشكلة إلى الإشكالية: فما هي الإشكالية؟

لغة: يقال أشْكَلَ، إشكالاً، وأشكل الأمر أي التبس. وأمور أشكال: ملتبسة، وبينهم أشكلة، أي لبس. (لسان العرب، مادة شكل).

وثمة من يميّز معنيين للفظ إشكال (Problématique) اصطلاحاً، ومعنى دارجاً. "ففي الاصطلاح: الإشكال: صفة لما لا يبيّن فيه وجه الحق، ويمكن أن يكون صادقاً، إلا أنه لا يقطع بصدقه. وفي المعنى الدارج، صفة لما هو مشتبه، ويقرر دون دليل كافٍ، ومن ثم يبقى موضع نظر" (وهبه، كرم، شلالا، المعجم الفلسفي، مادة إشكال). فالإشكال هو قضية احتمالية، فمعرفياً لا يمكن الاستناد إلى أحكامه على أنها صحيحة ثابتة.

والإشكال يبعث على الشك في صحة أحكامه، ذلك لأن مقدمات هذه الأحكام ليست يقينية، فهي لا توصل إلى نتائج حتمية، لذا تبقى موضع نظر، أي تأمل وبحث.

ومفهوم الإشكال يرتبط "بالحالات التي نجد أنفسنا فيها مواجهين بعدة احتمالات لمعالجة موضوع معيّن من دون أن يكون في حوزتنا أي مؤشر واضح إلى ما يجب اختياره من بين هذه الاحتمالات". (عادل ضاهر، مادة إشكال، في الموسوعة العربية الفلسفية، مج1).

في معجم روبير (LE ROBERT) الـ (Problématique) صفة واسم. فعلى سبيل الصفة، تتضمن صفة الشك أو الإحتمالية، مثال: حقيقة الوجود إشكالية. النجاح مشكوك فيه، النصر استشكالي. أي غير ثابت، غير يقيني.

والإشكالية بمعنى الاسم (Nom) هي مجموعة الأسئلة المطروحة في ميدان علمي، أو فلسفي أو سياسي.

ترتبط الإشكالية بالمشكلة، لكن تعريف الإشكالية وبنائها بعد تحديد

موضوع البحث، الذي هو المشكلة أو السؤال المعرفي المرتبط بقضية ما، لها وضع، وتحتاج إلى حلّ، هو الخطوة اللاحقة، والمرحلة الأكثر أهمية وصعوبة في البحث.

والإشكالية في البحث العلمي، تعني تحويل الموضوع من الصفة التقريرية إلى الصفة الاستفهامية: أي تحويل الموضوع إلى سؤال، فيه إحراج لجهة الإجابة، أي صعوبة.

والإشكالية هي علم طرح المسألة أو اللغز الذي يحتاج إلى حلّ. وهي عملية يحتاج الطالب إلى التعوّد عليها، ليتمكن في وقت ما مِن تعريفها وبناء عناصرها.

والإشكالية، هي قاعدة البحث ومحوره، ووجهته، هي التي تطرح المقاربة (Approche) أو الزاوية النظرية (Perspective) التي تفرض "الموديل" أو النموذج الذي يتعيّن بناء الخطة وفقه، هي التي تفرض الإطار النظري، الذي منه تخرج الفروض (Hypothèses).

فما هي الإشكالية في العلوم الاجتماعية؟

هي مقاربة أو عدسة نظرية، نقرّر أن نقبلها لمعالجة مشكلة مطروحة من خلال سؤال الانطلاق، هي طريقة مساءلة الظاهرة المدروسة.

والمقاربة هي طريقة التصدّي لدراسة المسألة. ونحن نتحدث عن مقاربة سوسيولوجية مثلاً، للوقائع اللغوية.. والمقاربة تُبنى على أساس التشابه والمماثلة.

أمّا المنظور أو المنظورية (Perspective)، فهي تشير إلى الإمكانية، والاحتمال، وإلى نسبية المعرفة.. والـ (Perspective) هي جانب من خلاله يجري تقديم شيء، أو طريقة لتقدير شيء ما، عدسة نظرية، وجهة نظر.

Perspective: Aspect sous lequel une chose se présente, manière de considérer quelque chose. Optique, point de vue.

والإشكالية، هي استفهام من طبيعة مفهومية.

La problématique est une interrogation de nature conceptuelle. (Pierre Romelaer et Michel Kalika, comment réussir sa thèse, p30).

تحدّد الإشكالية بدقة أنماط المتغيّرات والمؤشرات ذات الطبيعة المفهومية التي يدخلها الباحث في عداد بحثه. وهي بمعنى ما تمثيل مبسّط للعالم.

مثال: لدراسة فعالية الابتكار في الإدارة، فإن الإشكالية التي ستنطلق منها تتركز على تعريف برمجة الأعمال.

يمتلك هدف البحث أو ما يطمح إليه، الإشكاليات الملائمة والممكنة، والمتعلقة بقابلية البحث على الإنجاز (الوسائل والوقت الممكن) (Faisabilité)، وضرورة استخدام المتغيّر في النظرية، والمتغيّرات الأخرى الملائمة في النظرة نفسها.

يؤدي بناء المعلومات والمعطيات إلى إيقاظ التفكير بالإشكالية التي تحتوي على عدد من المعارف التي تصف وتشرح جزءاً من الواقع، الذي سيدرس، وتحرّك الدراسة إلى الجزء الآخر من هذا الواقع. فالإشكالية، والحال، هي نقطة إرساء، منها يسير البحث كله.

وهي تتألف من الركائز (القواعد) (Assises) وفهم المشكلة (Le sens) وأهمية البحث ووزنه المعرفي (La portée) (Aranée et Valée, La . recherché en communication, p129).

❖ وركائز البحث أو قواعده تعني وجهة النظر، أو الإطار المعرفي، أو المقاربة، التي منها سيعالج الباحث موضوعه.

في بداية أي بحث علمي، ثمّة إضاءة على طبيعة المشكلة، ومنها الإشكالية، المنهج المستخدم، النتائج المتوقعة.

❖ وفهم المشكلة (Le sens) يعني ربط المفاهيم بالسؤال المعرفي، أي إعادة المعنى، إرجاعه (Réfère) إلى طبيعة سؤال الانطلاق.

وعندما يؤكد الباحثون أن الإشكالية هي المعنى (Le sens)، فهذا

يُفهم منه، أن تعريف الإشكالية يرجع إلى حيث كان السؤال الذي هو محور البحث. والإشكالية هي الوحدة المركزية التي تدل على البحث كله.. والمفاهيم هي ألفاظ، ترشد إلى السلوك والعمل.

ونقصد بأن الإشكالية تتضمن أهمية البحث (La portée de la recherche)، فهذا يعني إدراك، ووعي لماذا البحث، وإلى أين يجب أن ينتهي؟ ولا معنى لبحث لا يساهم في تقدّم العلوم. لذا فحل الإشكالية أو معالجتها، يعني أن ما توصّل إليه الباحث قابل للتطبيق، ومفيد للمعرفة والعلم على حدّ سواء.

وكون الإشكالية تبحّر أو تعمّق في سؤال الانطلاق (Question de départ) أو مشكلة البحث، فهذا يقتضي فحص مختلف جوانب المشكلة (الإطار العام) أولاً، ثم الانطلاق إلى الإطار الخاص (أي ما يُراد درسه ثانياً). فتعريف الإشكالية ينطلق من العام إلى الخاص.

وهذا المسار، يرتبط بسلسلة خطوات منتظمة، ومنطقية تبدأ بموضوع البحث، إلى المشكلة العامة التي يخضع لها البحث أو يدخل في دائرتها، إلى تقدّم في تدقيق المفاهيم (Concepts) وحصر حقل البحث. وهذا ربما استغرق وقتاً بين القراءات وبلورة الإطار النظري، والمراجع البحثية التي يمكن استيعابها.

وهذا التعاقب الزمني يتضمن:

1 - طرح سلسلة أسئلة منهاجية ومترابطة، تنطلق من المشكلة العامة، تمهيداً لتحديد سؤال البحث أو مشكلة البحث.

2 - الإشكالية تتصل بعلاقة الأسئلة المطروحة بموضوع البحث، خصوصية الأسئلة المتعلقة بالموضوع.

من المشكلة العامة إلى المشكلة الخاصة، أو المخصوصة، تحاول الأسئلة استجواب الموضوع، عبر أسئلة محرجة (تضعه في دائرة الشك). والإحراج (Aporie) يعني وضع نظرية لها دليلها، مع نظرية لها دليلها في إجابة عن مسألة واحدة).

3 - التخصيص يقف عند سؤال هو جوهر الموضوع، أو المشكلة البحثية، وهو يرتبط بالفائدة والأهمية والوزن المعرفي للأسئلة والأجوبة.

4 - يقود كل ذلك إلى المخطط البحثي، أو الهيكل أو تصميم الموضوع، الذي يجب أن يرتبط بنظرة متحركة أو دينامية بحثية، ليست جامدة. (إبراهيم مراد، طرائق البحث الاجتماعي، ص150).

في الإطار الخاص، يختار ويشرح إشكاليته الخاصة، عبر اختيار الإطار النظري الملائم للمشكلة، وعمّا إذا كان هذا الإطار كافٍ للإحاطة بها، في ضوء سؤال الانطلاق أو موضوع البحث، وصولاً إلى العناصر المكوّنة للمشكلة، بما يؤدي إلى تبني نموذج للتحليل.

في ضوء كل ما تقدّم يمكن إيجاز بلورة الإشكالية أو تعريفها، بإيراد:

1 - دلالة المفاهيم.
2 - طرح المشكلة العامة والسؤال العام.
3 - الانتقال إلى المشكلة الخاصة والسؤال الخاص.

وبعبارة أخرى:

1- Le concept: Outil de base de la méthode scientifique.
2- Le problème générale de la recherche.
3- La question générale de la recherche.
4- Le choix d'un problème spécifique et de question(s) spécifique(s).

(للمزيد من الاطلاع، يمكن مراجعة La recherche en communication, p132-154).

وفي ما يلي مثال، وهو عبارة عن ترسيمة مركبة لعملية تخصيص الإشكالية، عبر موضوع: "تأثير الميديا" (L'effet des médias).

مشكلة عامة Problème générale:

Type de problème: problème d'obstacle à la compréhension du réel.
Exemple: L'étude des effets des médias par le modèle stimulus -

réponse n'explique pas les facteurs qui filtrent le lien entre les médias et les individus.

- نوع المشكلة: مشكلة عائق فهم الواقع.
- مثال: دراسة تأثيرات "الميديا" من خلال نموذج الإثارة، الاستجابة لا يشرح العوامل التي تجعلنا ننتقي الرابط بين "الميديا" والأفراد.

سؤال عام Question générale:

Type de question: besoin d'expliquer une réalité.
Exemple: est-ce que l'appartenance de l'individu à un groupe pourrait modifier la compréhension de l'effet des médias de masse sur l'individu?

- نوع السؤال: الحاجة لتفسير الواقع.
- مثال: هل انتماء الفرد إلى مجموعة يمكن أن يؤدي إلى تغيير فهم تأثير "الميديا" على الفرد؟

Problème spécifique: Type de problème: Absence partielle de connaisance concernant un sujet de recherche.
Exemple: Les résultats des recherches sur l'influence sociale indiquent une solution possible à la compréhension des effets des médias de masse sur l'individu.

مشكلة خاصة:

- نمط المشكلة: غياب جزئي للمعارف المختصة بالموضوع.
- مثال: نتائج الأبحاث حول التأثير الاجتماعي تدل على حلّ ممكن لفهم تأثيرات "الميديا" على الفرد.

Questions (s) spécifique (s):
- Le leader d'opinion peut-il constituer un relais entre les médias de masse et l'individu?
- Les effets de médias de masse peuveut-ils être bloqués ou filtrés par un leader d'opinion?
- Les individus sont-ils influencés par leur leader d'opinion ou par les médias de masse?

- قائد الرأي يمكن أن يشكل أداة بين "الميديا" والجمهور؟

- تأثيرات الميديا يمكن أن تتوقف أو تتسرّب عبر قائد الرأي؟
- الأفراد أكثر تأثراً بقادة الرأي لديهم أو "بالميديا"؟

الأطروحة الخامسة: بناء نموذج التحليل
(La construction du modèle d'analyse):

بناء نموذج التحليل خطوة بالغة الصدقية في البحث التجريبي، على وجه الخصوص، وهي تعني الانتقال إلى مرحلة تفسير الظاهرة، بعد تجزئة عناصرها.

ويشكل نموذج التحليل امتداداً طبيعياً للإشكالية، لجهة تفعيل نقاط الاستدلال والإطار المرسوم، بصورة إجرائية لتوجيه العمل من الملاحظة إلى التحليل.

وبناء نموذج التحليل يعني بناء المفاهيم والفرضيات التي تشكل مجتمعة إطار التحليل المنسجم أو الموافق.

إن "المفهمة" (تكوين المفاهيم انطلاقاً من شيء) (La conceptualisation) أو بناء المفاهيم، تؤلف تركيباً مجرداً يحاكي الواقع.. وفي الواقع، لا يمكن حصر كل جوانب الواقع، بل التعبير عما هو أساسي، ويعبّر عن وجهة نظر الباحث. هو بناء مركب للمفاهيم. والمفهوم بمعنييه النظري والإجرائي.

والتمييز بين المفاهيم الإجرائية (Les concepts opératoires) والمفاهيم النسقية (Les concepts systémiques) من شأنه أن يؤدي إلى التمييز بين التعليل العقلي والقطيعة مع الأحكام المسبقة حول الإشارات الواضحة للمفهوم في الواقع.. عبر الأبعاد (Les dimensions) والمؤشرات (Les indicateurs).

وهذا، يقودنا إلى الكلام عن الفرضية أو الفروض (Les hypothèses) والنظريات (Les théories)، والإطار النظري (Cadre théorique).

Qu'est ce qu'une hypothèse? : ما الفرض

1. En sciences — في العلوم

Proposition admise comme donnée d'un problème, ou pour la démonstration d'un théorème (axiome, postulat).

قضية مقبولة كمعطى لمشكلة، أو لبرهنة نظرية أو قاعدة علمية (حقيقة مقررة، مسلمة).

نظام البديهيات، بديهية، أولية Axiome

في الرياضيات، منهج البحث هو النسق الاستنباطي[1] أو الأكسيوماتيك (Deductive system axiomatic).

2. Proposition relative à l'explication des phénomènes naturels et qui doit être vérifiée par la déduction ou l'expérience. Conjecture, hypothèse exprimentale.
Vérifier la valadité d'une hypothèse

افتراض (قضية) متعلق بتفسير الظواهر الطبيعية، وهو ما يتعيّن إثباته إما بالاستنباط أو بالتجربة (حدس، فرضية اختبارية).

يقال: التحقق من صلاحية الفرضية أو قبولها. أو الإقرار بمشروعيتها.

والإثبات بالاستنباط يسمى المنهج الفرضي الاستنباطي (جذوره عند غاليلو، نيوتن).

أما الإثبات بالتجربة، فهو ما يعرف بـ "المنهج الاستقرائي التقليدي" (بدأ مع فرنسيس بيكون، وطوّره جون ستيوارت مل).

ويقوم هذا المنهج على أساسين:

1 - الاعتقاد بالرباط العليّ بين الحوادث (العلّة).

2 - والاعتقاد باطراد الحوادث في الطبيعة.

وهذا المنهج يقوم أيضاً على 3 خطوات:

---

(1) الاستنباط: هو ارتباط مقدمات نتيجة برباط معيّن بحيث إذا قبلنا المقدمات قبلنا النتيجة.

1 - الملاحظات والتجارب.

2 - تكوين فرض يفسّر الملاحظات والتجارب.

3 - تحقيق هذا الفرض. (محمود زيدان، مناهج البحث الفلسفي، ص6).

يتّسم الافتراض أو الفرض بأنه مركز على تفسير الظاهرة أو إمكانية حصول الحدث، فهو له طابع أو سمة الاحتمال، أو التوقع، والمعرفة النظرية هي افتراضية، حدسية أيضاً.

والسمة الثانية للفرض، أنه يحتمل الشك، فهو غير أكيد، هو إشكالي، أي ملتبس.

والفرض في المنهج التجريبي هو نقطة البداية اللازمة لكل استدلال تجريبي.

الفرض هو تفسير مؤقت لوقائع معينة بمعزل عن فحص هذه الوقائع أو امتحانها، حتى إذا ما خضع لاختبار أو امتحان "أصبح إما فرضاً زائفاً يجب التخلي عنه، وإما قانوناً يفسّر مجرى الظواهر". (بدوي، مناهج البحث العلمي، ص145).

الفرض، إذاً، هو حل لمشكلة. الفرض يلتصق بالقابلية على التنفيذ (الاختبار)، نجاحه يتوقف على إزالة المشكلة.

فهم (Létourneau) لوتورنو بالفرض (Hypothèse): بأنه "حجر الأساس، الذي انطلاقاً منه، نفصل تخطيط البرهنة أو الإثبات"

“L’hypothèse est la pierre d’assise à partir de laquelle s’articule une stratégie de démonstration”. (Alain Laramée, Bernard Vallée, la Recherche en communication: Eléments de méthode, p197).

بهذا المعنى فالفرض هو تخمين، هو إجابة مفترضة على سؤال البحث، حيث أننا لا نعرف بعد ما إذا كان أساسياً أو ملاحظاً، ولكن بالاستناد إليه، نعتقد أن الوقائع الجارية يمكن أن تكون صحيحة ـ أو غير يقينية.

إن تكوين الفرض ينبثق من تفكير عميق حول عناصر الإشكالية،

ويسمح الفرض بتنظيم مجمل البحث حول هدف محدّد، هذا الهدف هو الذي يثبت جدارة أو صحة الفرض. وحول الفرض، علاوة على ذلك، يمكن كتابة تقرير البحث.

يتشكل الفرض أو التخمين من القراءات، من حدس العلاقة السببية بين المتغيرات، عندها يتبلور الفرض الملائم لحل المشكلة.

إن الفروض (Hypothèses) هي نقاط ارتكاز مؤقتة (Momentanés) تسمح بتوجيه البحث، وإنجاز الملاحظة المطلوبة (التحقق منها).

إن الفرض بهذا المعنى، هو توكيد تثبيت مستساغ يمثل العلاقة بين متغيرين أو أكثر من متغيرات البحث.

يسمح الفرض باقتصاد الوقت لتفسير المشكلة (L'hypothèse permet des gains de temps)، ذلك لأنه يسمح للباحث بالرجوع (العودة) إلى تنقيح الكتابات (المخطوطات). والفرض، بهذا المعنى، هو قلب البحث (Cœur d'une recherche)، فهو، في بعض الأحوال، يسمح بالانتقال بين المجرّد (Abstrait) والحسي (Concret)، بين النظرية والتحقق منها في التطبيق.

هذا يقودنا، للتو، للسؤال: ما النظرية؟

تعني كلمة "النظرية" (Théorie) في اليونانية "تأمل منظر طبيعي" (راسل، حكمة الغرب، ج1، ص33)، فهي من النظر، وبهذا المعنى استخدمها المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوت.

وفي المعنى: الميل إلى حب الاستطلاع الذي لا يرتوي.

والنظر في لسان العرب هو حسّ العين، والنظر هو تأمل الشيء بالعين، ويقال نظرت إلى الشيء (لسان العرب، مادة: نظر).

في المعجم الفلسفي، تطلق النظرية على ما يقابل الحقائق العلمية الجزئية، إذا دلت على تركيب عقلي واسع، يهدف إلى تفسير عدد كبير من الظواهر. ويقبله أكثر العلماء في وقته، من جهة ما هو فرضية قريبة من

الحقيقة، مثال ذلك نظرية الذرة (صليبا، المعجم الفلسفي، مادة نظرية).

وفي الموسوعة الفلسفية: النظرية هي "نسق من المعرفة المعممة وتفسير للجوانب المختلفة للواقع" (روزنتال، الموسوعة الفلسفية، مادة نظرية).

وفي معجم "لو روبير" (LE ROBERT) النظرية:

1. Ensemble organisé d'idées, de concepts abstraits prenant pour objet un domaine particulier qu'il décrit et explicite: conception, doctrine, système, thèse. Bâtir une théorie, les théories politiques, économiques.

مجموعة منظمة من الأفكار، المفاهيم المجردة، نحتكم إليها في موضوع، في ميدان جزئي، وصفاً وتفسيراً. النظرية نسق، أطروحة.

يقال أقام نظرية، نظريات سياسية، أو اقتصادية (LE ROBERT, terme théorie).

تتعارض النظرية مع التطبيق، فيقال هذا جيد وجميل نظرياً، ولكن التطبيق مستحيل. تأمل المسألة بطريقة مجردة.

2. Système formé d'hypothèses, des connaissances vérifiées et des règles logiques, qui correspond à un domaine de la science. La théorie mathématique des ensembles. Eléments de connaissance organisés en système.

نظام مكوّن من افتراضات، معارف محققة، قواعد منطقية، تلائم حقلاً من حقول العلم. مثل النظرية الرياضية للمجموعات، عناصر المعرفة المنظمة في نسق ما.

ومن الممكن أن يؤدي هذا النسق إلى ربط النتائج بالمفردات.

من النظر إلى الشيء تتشكّل النظرية. وهذا النظر يتعيّن أن يبدأ عيانياً، من الواقع، من الموضوع، أو المشكلة المتخيّرة (أي الموجودة في الزمان والمكان) ثم يتجرّد، أي ينتقل إلى الذهن، إلى ما هو غير محسوس، إلى المعرفة ← النظرية.

وبمعنى ما، فالنظرية هي فرضية في وصف الشيء وتفسيره، أي فهمه، على نحو أقرب إلى الحقيقة، أو إلى التسليم بها من قبل علماء العصر، في حقل من حقول المعرفة. ومن صفات النظرية التعميم. ولكن هذه المعرفة المعممة، لا تتولد بطريقة عشوائية (Vulgaire)، بل عبر نظام أو نسق من:

- الفرضيات (Hypothèses).
- المعارف (Connaissainces).
- القواعد المنهجية (Règles Méthodiques).

ولكن ما صلة ذلك بالواقع؟

يجيب أوغست كونت (Auguste comte) (1798-1857)، "النظرية العلمية الحديثة تقتضي أن تنحصر رؤية الباحث العلمي في حدود ما هو واقع، أي ما هو ظاهر لأعضاء الحسّ وأدوات التجربة".

المسألة هنا، لا تتعلق بتعلّم النظريات، لاجتياز الامتحان: إنها تتعلق بتعلّم التفكير نظرياً، إزاء المشكلات التي تواجهنا، سواء في الحياة العملية أو العلمية، وفهم النظرية يرتبط بتعلم التفكير قبل أي شيء آخر.

من هذه النقطة، نصل إلى معرفة: ما الأسئلة التي تطرحها النظرية؟ أو ما هي الأسئلة التي يمكن لنا أن نطرحها على النظرية؟

بمعنى أوضح هل تساعد النظرية الوظيفية في علم الاجتماع بفهم وظائف وسائل الإعلام؟ وتركيب هذه الوسائل، والأدوار خلال نظام العمل، مثلاً؟

إن الخطوة الأولى تبدأ بالتأمل، بهدف وضع إجابة. وثانياً التعوّد على ربط الوقائع بالأفكار أو بالعكس، ثم مراقبة التطبيق السليم للنظرية.

إننا بحاجة إلى النظرية كي نفهم الوقائع، وصف الوقائع، شرحها، استبيانها. "والوظيفية الأساسية للنظرية متعلقة بتأويل كل ما نستطيع كشفه والاتفاق عليه من الوقائع" (كريب، النظرية الاجتماعية، ص30).

لا نرى مسوغاً منهجياً أو إبستمولوجيا للتطرّق إلى الحاجة إلى النظرية، ولنتفق أن لا عمل علمياً من دون نظرية، فالباحثون والعلماء ينطلقون من المفاهيم لوصف الوقائع، ومن النظريات لتفسير الوقائع، وإلا ذهبت جهودهم، وبقيت في إطار العمليات التجريبية "ما لم تجر المحاولات للتوصل إلى إطار نظري عام". (كريب، م، ن، ص32).

النظرية هي تمثيل الواقع، الوقائع، الظواهر، أي هي وصفها + تفسيرها.

وهذا التمثيل النظري، الذهني، يعبّر عنه بالعلم، أو العلم النظري، المترابط داخل شبكة محكمة من القوانين، لا اتفاق حول أسمائها، ويمكن أن تصنّف بين ثلاثة أنواع:

1 - القواعد الإمبريقية أي التجريبية، وتدعى قواعد أولية: تنشأ عن تكرار الأحداث أو الظواهر بلا نهاية. الأغصان تصبح صفراء في الخريف، الشمس تبدو حمراء عند المغيب... إلخ. قشرة البرتقالة ذات لون ما. وهذه نتمثلها نظرياً، وبتعبير لغوي.

وقاعدة (Règle) تعني صيغة تدل، على ما يتعين أن يكون حدث عليه، في حالة محددة قانون أو مبدأ.

Règle: formule qui indique ce qui doit être fait dans un cas déterminé → Loi, principe.

والقواعد تؤدي إلى التصنيف، وهو مرحلة مهمة من مراحل الوصف (Classification).

2 - المبادئ (Principes):

(Général) يجب أن يتسم المبدأ بالعمومية، التعميم،. فنحن نتحدث عن مبادئ، في الفيزياء، والبيولوجيا (Biologie)، فالتطوّر (Evolution) مبدأ له شأن.

وأول علم ادعى أن له مبادئ هو ميكانيكا نيتوتن. والمبادئ يمكن استخدامها لوضع تنبؤات (Prédictions).

فما هو المبدأ (Principe):

Principe: Cause première originale. Dieu considère comme le principe de l'univers.
Principe: Notion fondamentale, base d'une science, principes de la physique.

إن اتسام المبادئ بالعمومية يعني أن عليها أن تعطي شرحاً لكل ظاهرة تقع ضمن اختصاصها. فقوانين نيوتن مثلاً حول دوران الأرض تؤدي إلى دوران دولاب البندول. وهكذا ينطبق المبدأ على ما لا نعرفه بعد.. وهنا تكمن قوته وقابليته للتفسير.

ويترتب على هذا، أن أي تعارض ولو واحداً بين الواقع والنتائج المتوقعة لمبدأ ما من شأنه أن يحمل الأجل المحتوم لهذا المبدأ. "إن المبدأ على ساحة الكون لهو مصارع ثيران، والمادة هي الثور الهائج المهاجم". (أومنيس، فهم العلم المعاصر وتأويله، ص319).

3 - القوانين (Les lois):

يعني قانون (Canon) باليونانية مقياس. ويطلق على القاعدة المنطقية التي يجب أن تؤدي إلى بلوغ الحقيقة. (وهبه، كرم وشلالا، المعجم الفلسفي، مادة قانون).

بالفرنسية لفظ (Canon) مرادف لكلمة (Norme) أو قاعدة.

عند كنط (kant): مجموع المبادئ التي تتخذ كأساس للمعرفة.

وفي معجم (LE ROBERT):

Formule générale, non impérative, énonçant un rapport constant entre des phénomènes.

صيغة عامة (مبدأ عام)، غير إلزامي، ينص على علاقة ثابتة بين الظواهر.

تستنبط القوانين من المبادئ. تنطبق على أنواع من الظواهر، فهي من لحم ودم المبادئ، وهي الوسائل لاختبار المبادئ، وذلك عن طريق التحقق والاختبار.

الإطار النظري وبناؤه (La construction d'un cadre théorique):

تتعلق النظرية بما هو عام، بالمشكلة العامة، بالسؤال أو الأسئلة العامة في حقل ما من حقول العلوم الاجتماعية. أما الإطار النظري فهو يتعلق بالمشكلة الخاصة أو الإشكالية الخاصة وأسئلتها ذات الصلة بموضوع البحث الذي يختاره الباحث أو الطالب... وعليه، يمكن تقرير النقاط التالية:

1 - كل مشكلة بحث يتعيّن، بادئ ذي بدء، أن تندمج في مقاربة نظرية عامة.

2 - المقاربة النظرية أو وجهة النظر أو المدخل هي الضامنة لاندماج البحث في الجماعة العلمية.

3 - انطلاقاً من المقاربة أو النظرية العامة، يتعيّن على الباحث، بعد ذلك إدراك الإطار النظري الخاص بالإشكالية.

4 - إن الإطار النظري يختلف بعض الشيء عن النظرية، لأن الإطار النظري، يبنى فقط انطلاقاً من خدمة المشكلة أو السؤال المحدّد في البحث.

وفي حين أن النظرية مخصصة لتعميم تفسير مجموعة من العلاقات، لعدة وقائع وأحداث، فإن الإطار النظري يبنى بهدف معلن هو شرح، وصف، أو تفسير واقعة واحدة، ومشكلة واحدة محدودة.

ولمّا كان الإطار النظري، يستخدم كذلك لاندماج أو إدماج أو جعل البحث العلمي، المفرد أكثر قابلية للتصديق من قبل الجماعة العلمية.

إن هذا الدليل المعرفي، الإرشادي، يعني أن الإطار النظري، يمكن أن يتشكّل من نظرية أو عناصر نظرية، لأن الغرض منه إدخال الإشكالية الخاصة في واحد أو عدّة أنظمة معرفية للتفسير، معترف بها من قبل الجماعة العلمية.

وهذا، ربما يقودنا إلى كلمة عن طبيعة "الموديل" أو النموذج (La nature du modèle)، الذي يعتمد المشابهة أو المماثلة، كما مرّ معنا.

والنموذج هو تمثيل، مبسط، لنظام حقيقي، واقعي، وتجريدي أيضاً، ربما يكون رياضي (خارطة البناء)، رمزي (صفحة الجريدة) وهو يقدّم نظرة مبسطة للظاهرة، أو الـ (Maquette)، الخاصة بالطائرة، أو السيارة، وهي تمثّل بالتدريج مجموعة معقدة للبعد الكبير.

وهنا نتساءل: من هو طالب الدراسات العليا، أو (Thésard) (طالب الدكتوراه)، الذي يحق له التقدّم إلى الدكتوراه

1 - بداية، تجدر الإشارة إلى أن حيازة الطالب شهادة الماستر (Master) لا تعني أن الحاصل عليها، صار مؤهلاً من الناحية العلمية، لأن يكون من أصحاب الأطاريح.

2 - الشغف العلمي - المعرفي للانخراط في الحقل البحثي مسائل ضرورية للطالب.

ومن المفيد التأكيد على أن الطالب، الذي يمعن في السؤال: ما الموضوع الذي تشير عليّ أن أدرسه هو طالب مشكوك في قدرته على الانخراط في البحث العلمي، هو في أقل احتمال، يفتقد إلى الأهلية العلمية، مع إقرارنا بحقه الطبيعي في السعي إلى الوظيفة أو الترقي الوظيفي، أو الحصول على لقب، في اللعبة الاجتماعية (على الطريقة اللبنانية).

3 - ثمّة إشارة إلى صلة الطالب بالمجلات العلمية، المقالات المكتوبة، القرارات. هنا نقترح بتكوين سجلات علمية، للطلبة الطامحين إلى الانخراط في المشاريع البحثية أو الطامحين إلى الدراسات العليا.

4 - ومن الشروط المطلوبة في طالب الدكتوراه أن يكون لديه إلمام معرفي بالمراجع الإسنادية في حقل التخصص، ونزوع إلى مواكبة كل ما هو جديد. فالدراسات العليا ليست استكمالاً لمرحلة الإجازة، وإن كانت الإجازة الشرط الأول المطلوب.

5 - وعليه، فإنني لا أخفي اقتراحي بإجراء امتحان قبول، ليس شفهياً فحسب، بل خطياً للمرشحين إلى متابعة إعداد الأطاريح للحصول على درجة الدكتوراه، وتمديد المهلة، بعد أن أصبحت الدكتوراه في

مرحلة واحدة إلى أربع سنوات كحد أدنى.

الأطروحة السادسة:

في صورة العلم المعاصر تتحوّل الرياضيات إلى براديغما لسائر العلوم الطبيعية والروحية والاجتماعية والنفسية، وحتى المعيارية (Normatives)، ضمن الترسيمة التالية:

الواقع	اللوغوس
↓	↓
العلم	الرياضيات - المنطق

الأطروحة السابعة:

من الأطروحة السادسة يستفاد أن العلم ينتقل من التجريب من الواقع المعيوش إلى الصورة (أو الصورانية) أي التمثيل الرياضي، من التمثيل (إعادة رسم الواقع) بتطبيق القواعد عليه، إلى الصورية، أي اللامتناهي، عبر أنظمة تمثيل لا تتوقف (L'infini).

الأطروحة الثامنة:

إعادة التأكيد على دور الاستنباط والاستنتاج (Déduction & Raisonnement déductif) في ضبط أسس المعرفة في بناء العلم.

هنا يتقدم دور المنطق كعلم للنظام وكعلم للمناهج للوصول إلى الحقيقة في العلم.

الأطروحة التاسعة:

أطروحة إشكالية كيف يمكن لعلم متعدّد الأنظمة المعرفية (Multidisciplinaire) كعلم الإعلام، مثلاً، قبل التحقق من انتمائه إلى نسق العلم الحديث تحميله صورة العلم الرياضي الصوراني، الخاضع لرقابة المنطق، وصرامة العقل الرياضي؟

الخاتمة

ليس من اليسير في صورة ما تقدّم، الخروج بما يشير إلى رضى علمي عن مجري البحث في علوم الإعلام والاتصال وفقاً للمنهجية "البراديغمية"، ذلك لأن البراديغم يرتبط بالعلم الناضج، وهو النظرية الإفضل لدي الجماعة العلمية، والتي تكسب الحجة، في دراسة الظواهر، فضلاً عن اعتباره عملية "غشتلطية" (من الكلمة الألمانية (Gestalt) ومعناها شكل أو صورة، وهو يعتبر، في علم النفس، ما يصنعه بالبناءات النفسية "كليات منظمة أو غشطلت". وليست الأحاسيس أولية وأساسية في الأنا الفرد)، فهو يرتبط بالنظرة الميتافيزيقية للعالم، وهو يجمع النظرية إلى الإجراءات، والمعايير والقواعد البحثية، فضلاً عن التقنيات، أي مجمل الأدوات الفكرية، بتعبير كون نفسه.

ومن زاوية النظر البراديغمي، وعلى الرغم من أن علوم الإعلام والاتصال حديثة العهد، منذ ستينات القرن الماضي (نصف قرن)، فإنها آخذة بالتحوّل إلى علوم ناضجة: لها نظرياتها، ومناهجها، وتقنياتها ومقارباتها المعرفية، فضلاً عن المفاهيم والمسائل المتصلة بالظاهرة الاتصالية كظاهرة إنسانية واجتماعية.

1 - ليس بإمكان أحد من الجماعة العلمية، في حقل الإعلام والاتصال أن يتجاهل النظريات التي ظهرت حول الإعلام والاتصال: من نظرية لاسويل إلى نظرية وينر- شانون الرياضية إلى نظرية وسائط الإعلام الجماهيري، من زاوية الوظيفة والتأثير، وصولاً إلى نظرية الاتصال التفاعلي (مدرسة بالو ألتو) (L'école de palo-alto)، التي تنظر إلى ماهية الاتصال كسيرورات تفاعلية، بالاعتماد على المقاربة النسقية، وهي الفكرة

التي توقف عندها جان شارون (Jean Charron) في محاضرة له في جامعة سلسا (Salsa) باريس (2 حزيران 2007)، بعنوان "التحوّلات البراديغمية في الصحافة" (Les mutations paradigmatiques du journalism)، إذ لاحظ أن القواعد والمهارات والإنتاج الصحفي، تتمتع بخصائص النسق (Système)، فتغيّر وظائف بعض أجزائه يؤدي إلى تغيّر الوظائف في الأجزاء الأخرى.

ويفضل شارون استخدام مصطلح "براديغم" في الكلام على التحوّلات في الصحافة من المخبر (الثرثار) (Gazétier) في القرن السابع عشر إلى المدوّن على الانترنت في القرن الواحد والعشرين (Blogueur)، يفضّل استخدام "البرايغم" بمعنى الإطار، الذي يتضمن فكرة تقليد النماذج، وهو نظام من القواعد، وعلاقة جديدة بين القاعدة والتطبيق.

2 - ومع ذلك، فإن علم الإعلام يشترك مع العلوم الإنسانية والاجتماعية، إلى حد ما، بأنه يفتقر إلى نظرية أو نظريات تسمح بتفسير القوانين والنماذج التجريبية بطريقة علمية وعقلانية، بسبب أن التطبيق يسبق النظرية، في الإعلام والصحافة، وتصبح النظرية وراء الأحداث التي تسعى لفهمها فيحدث الفصل بين النظرية والأحداث.

فدراسة السلوك الجماهيري، في ضوء نظرية سيكولوجيا الحشود (غوستاف لوبون) خلال الحرب العالمية الأولى، أو الثانية في أوروبا، تختلف عنها في دراسة سيكولوجيا الحراك الجماهيري - الشعبي في البلدان العربية، منذ 25 يناير (كانون الثاني) 2011 إلى أيامنا هذه.

بيد أن الباحث، لا ينطلق من فراغ، فدراسة الظاهرة الاتصالية أو الإعلامية، باتت تنطلق من نظريات براديغمية (نظرية لاسوال) أو النظريات التفاعلية، فضلاً عن النماذج والمقاربات، لا سيما في البراديغم الوظيفي والتدفق الثنائي للاتصال إلى "الاستخدام والإشباع"، و "وضع الأجندة، إضافة إلى مقاربات في البحث، من زاويد النموذج الاجتماعي (Modélisation sociale).

3 - على مستوى المفاهيم: مما لا شك فيه أن التحوّلات المفاهيمية، طوّرت حقول البحث في علوم الإعلام والاتصال، وفتحت المجال أمام "براديغمات" جديدة، تتخطى ما هو معمول به. فالبراديغم الجديد يتضمن تعريفاً جديداً، أكثر صرامة في ميادان البحث: لاحظ الفرق، مثلاً، بين التعريفين التاليين: التعريف الأول: الإعلام هو عملية نشر وتقديم معلومات صحيحة وحقائق واضحة وأخبار صادقة ووقائع محددة راجحة للجماهير مع ذكر مصادرها خدمة للصالح العام. والتعريف الثاني: الإعلام معرفة نقلت تتعلق بحقيقة معينة، أو موضوع أو حدث.

إن إمعان النظر لاستخلاص الفروقات - التحوّلات بين التعريفين، يدفع الباحث إلى التوقف عند: استبدال "عملية نشر وتقديم المعلومات..." بـ "معرفة نقلت تتعلق بحقيقة معينة أو موضوع أو حدث...".

نقل المعرفة، يعني استخدام الوسيط الإعلامي (الصحيفة، الراديو، التلفزيون، الانترنت). والمعرفة اقتربت أكثر من معنى الرسالة المحددة في "نيّة المرسل"، فالمسألة قد "تتعلق بالصالح العام" والمعرفة لا تقتصر على الأخبار أو الأحداث أو الوقائع، بل قد تنقل الانطباعات والمؤثرات، والمواقف والتعليقات. فالإعلام كمعرفة يتخطى الإعلام كإخبار، من زاوية المعاني الإدراكية، أي ما يقف وراء الخبر أو الحدث، ويشكّل وعي الجمهور (الحقائق الإدراكية كما تقدّمها وسائط الاتصال الجماهيري).

وهكذا، فنظرية التأثير والقناة التي تحدث عنها لاسويل، تطرح إشكالية طبيعة التأثير ومصدره، وفعله، أي السلوك: فالتأثير لا يمكن أن يتحوّل إلى سلوك ما لم يكن "معرفة محفّزة"، هو عبارة عن وعي أكثر منه "تخديراً" أو شحناً للعواطف والأحاسيس.

مع الإعلام التقليدي، المرئي، ومع الإعلام الجديد: وسائط التواصل الاجتماعي، لم يعد المصدر ذي أهمية، ولم تعد المسألة تتعلق بالآداب الإعلامية أو الخلقية الصحفية، صار بإمكان المتلقي أو المستقبل، أن يعيش الحدث، بأقل احتمالية ممكنة من الخداع.

أتاحت التغطية التلفزيونية، من زاوية أن "الكاميرا لا تكذب" المجال أمام أنماط جديدة من الدعاية السياسية أو الحربية، أو حتى الإعلانية، ولم يعد بإمكان أي حكومة، أو مشروع تجاري أو منظمات كبرى أن تدير دعاية ناجحة، من دون وسيلة تلفزيونية.

ومن هذه الزاوية، اختلطت الوقائع بالبعد الدعائي. وإذا كانت "الكاميرا لا تكذب" لكن الكاميرا تنحاز، فهي تنتقي صورة مؤثرة، من هنا، وتغيّب صورة مؤثرة من هناك.

لقد حوّل الإعلام الجديد، بقدرته على التأثير نظرة القوى المالكة للنظم الاتصالية الكبرى القديمة والجديدة إلى وقائع مادية، قادرة على بناء سياسات واستراتيجيات. وقامت الفكرة مقام المصلحة. وتركزت مفاصل الدعاية على الشفافية، الفساد، "تداول السلطة"... إلخ، وصارت هذه المفاهيم "قنابل إعلامية" فتّتت وعي الجمهور، وزعزعت كياناته الفكرية والعقيدية، منذ الحرب الدعائية ضد النظم الشيوعية، وصولاً إلى أنظمة الحكم في العوالم الثلاثة: الثالث، والإسلامي، والعربي.

4 - الرسالة لا الوسيط: وهي مسألة مهمة وجديرة، في أن تتحوّل إلى حقل بحثي. فإحلال التركيز على الرسالة لا على الوسيط (القناة الاتصالية)، من شأنه أن يساهم في إعادة إنتاج رأي عام يتعلم اتخاذ القرار، بدلاً من أن يُتخذ القرار عنه، وينصاع هو إلى أحكامه ومتطلباته.

فالمعرفة الحقة تستلزم الثقة وبناء الآراء على قاعدة معرفية صائبة، توفرها وسائط الاتصال، وهو أمر مهم لبناء عوالم ومجتمعات، تحتاج إلى الحوار والتفاهم والاستقرار، فتصبح وسائل الاتصالات بعيدة المدى، وتكنولوجيا الأقمار الصناعية قادرة على مدّ الناس بالأنباء والآراء، التي تشكل أفكارهم، وتبني أنماط حياتهم وثقافتهم الجديدة.

5 - يبدو الباحث، غريباً عن الظاهرة الإعلامية أو الاتصالية، التي يدرسها، فهي تجري، سواء، وفقاً للنموذج الخطي من نقطة بدء إلى نقطة انتهاء، أو النموذج التفاعلي (رجع الصدى Feed back) بالاتجاهين. وهذا

ما يجعل علوم الإعلام والاتصال تنتسب إلى نسق العلم الحديث، كعلوم إخبارية تتحدث عن وقائع وأحكام وتفسيرات.

لكن الواقعة الإخبارية الصحفية، باتت تواجه داء ضعف الموضوعية، أو اختلاط الموضوعية بالنفعية، وتحوّل ناقل الخبر، إلى شارح ومفسّر ومعلق، الأمر الذي حوّل الإعلام إلى تبليغ رسالة إلى القارئ أو المشاهد أو المستمع، بغية استمالته إلى جانبه كمشكّل للرأي العام.

والإعلام كمنتج، هو مادة ذهنية، فكرية، يُصيبها هذا الاختلاط بين الخبر والتعليق بالتشويش، ويُفاقم من خطر الالتباس في تكوين الوعي لدى الأفراد أو الرأي العام، بما يخدم الدعاية على حساب الإعلام الموضوعي، الصحيح، ويحل ثقافة التعمية محل ثقافة التنوير، وتُصبح المادة التي يدرسها الباحث، والحال، لا توفّر له قواعد الحياد، ولا حتى معايير العلمية.

المراجع

أ - بالعربية:

- أرسطو، الخطابة. تحقيق عبدالرحمن بدوي، جبيل - لبنان، دار بيبليون - باريس، 2011.
- ابن خلدون، المقدمة. ص2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1979.
- أبو البقاء الكفوي. الكليات، بيروت، مؤسسة الرسالة، ص2، 1993.
- ابراهيم، زكريا. دراسات في الفسفة المعاصرة، القاهرة، دار مصر للطباعة، لا ط، لا تاريخ.
- إمام، إبراهيم. دراسات في الفن الصحفي، القاهرة، مكتبة الأنجلومصرية، لا تاريخ.
- أومنيس، رولان. فلسفة الكوانتم (فهم العلم المعاصر وتأويله)، تر. أحمد فؤاد باشا ويمنى طريف الخولي. الكويت، عالم المعرفة، (350)، 2008.
- بدوي، عبد الرحمن. مناهج البحث العلمي، الكويت، وكالة المطبوعات، ط3، 1977.
- برينتون، كرين. تشكيل العقل الحديث، تر. شوقي جلال، الكويت، عالم المعرفة، رقم (82)، 1984.
- بوانكاري، هنري. قيمة العلم. تر. الميلودي شغموم، بيروت، دار التنوير، 2006.
- بوبر، كارل. أسطورة الإطار. تر. يمنى طريف الخولي. الكويت، عالم المعرفة (292)، 2003.
- بمبر، بروس. الديمقراطية الأميركية وثورة المعلومات. تعريب هالة النابلسي، بيروت، الحوار الثقافي، ص1، 2006.
- بريغر، آسيا، بورك، بيتر. التاريخ الاجتماعي للوسائط. الكويت، عالم المعرفة (215)، 2005.
- بيكون، فرنسيس. الأورغانون الجديد، تر. منذر محمد، دمشق، دار الفرقد، ص1، 2016.
- تورين، آلان. براديغما جديدة لفهم العالم اليوم. تر. جورج سليمان. بيروت، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2011.
- الخولي، يمنى طريف. فلسفة العلم في القرن العشرين. الكويت، عالم المعرفة (264)، 2007.

- ديكارت. مقالة الطريقة. تر. جميل صليبا. بيروت، ط2، 1970.
- تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى. تر. كمال الحاج. بيروت، منشورات عويدات، ص2، 1977.
- ديوانت. قصة الحضارة. بيروت، دار الجبل، مج31-32.
- راسل، برتراند. حكمة الغرب، (جزءان)، تر. فؤاد زكريا. الكويت، عالم المعرفة (ج1 2009)، (ج2 1983).
- راندال، جون هرمان. تكوين العقل الحديث. (جزءان). تر. جورج طعمة. بيروت، دار الثقافة، 1966.
- رويس، جوزايا. مبادئ المنطق. تر. أحمد الأنصاري. القاهرة، ط1، 2002.
- سعيد، إسماعيل علي. التعليم والإعلام، في مجلة عالم الفكر. الكويت، مج4، العددان الأول والثاني، 1995.
- ستروك، جون. البنيوية وما بعدها. تر. محمد عصفور. الكويت، عالم المعرفة (206)، 1996.
- شيللر، هربرت. المتلاعبون بالعقول. الكويت، عالم المعرفة (443)، 1999.
- صالح، رشيد الحاج. المعرفة العلمية بين العوامل الاجتماعية والبنية المنطقية، في مجلة عالم الفكر. الكويت، مج36، 2007.
- العبد الله، مي. نظريات الاتصال. بيروت، دار النهضة العربية، ط1، 2006.
- غيرتز، كليفورد. تأويل الثقافات. تر. محمد بدوي. بيروت، المنظمة العربية للترجمة، توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2009.
- غيتس، بيل. المعلوماتية بعد الأنترنت. تر. عبدالسلام رضوان. الكويت، عالم المعرفة (231)، 1990.
- قنصوه، صلاح. الموضوعية في العلوم الإنسانية. بيروت، دار التنوير، ط1، ص007.
- كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة الحديثة. القاهرة، دار المعارف، ط6، 1979.
- كريسون، أندريه. تيارات الفكر الفلسفي. تر. نهاد رضا. بيروت، عويدات، ط2، 1982.
- كريب، أيان. النظرية الاجتماعية. تر. محمد حسين غلوم. الكويت، عالم المعرفة (244)، 1999.
- كون، توماس. بنية الثورات العلمية. تر. حيدر حاج إسماعيل. المنظمة العربية للترجمة (توزيع مركز دراسات الوحدة العربية)، ط3، 2009.
- كليش، فرانك. ثورة الأنفوميدنا. تر. حسام الدين زكريا. الكويت، عالم المعرفة (رقم 253) 2000.
- محمود، زكي نجيب. قصة عقل. القاهرة (دار الشروق)، ط2، 1988.
- مراد، إبراهيم. طرائق البحث الاجتماعي. بيروت، دار الأنوار، 2007.
- ميشيللي، إليكس. علم النفس الجديد. تر. حسين حيدر، بيروت، منشورات عويدات، 1997.

- ماتلار، أرمان وميشال. تاريخ نظريات الاتصال. تر. نصرالدين لعياضي والصادق رابح. بيروت، المنظمة العربية للترجمة (توزيع مركز دراسات الوحدة العربية)، ط3، 2009.
- مكاوي، حسن عماد والسيد، ليلى حسين. الاتصال ونظرياته المعاصرة. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1998.
- موسوعة لاروس. الاتصالات. تر. أنطوان الهاشم. بيروت، دار عويدات، لا تاريخ.
- هيوم، ديفيد. تحقيق في الذهن البشري. تر. محمد محجوب. بيروت، المنظمة العربية للترجمة (توزيع مركز دراسات الوحدة العربية)، ط1، 2008.
- هايلي، باتريك. صور المعرفة. تر. نور الدين شيخ عبيد. بيروت، المنظمة العربية للترجمة (توزيع مركز دراسات الوحدة العربية)، ط1، 2008.
- وصفي، عاطف. الأنتربولوجيا الثقافية. بيروت، دار النهضة العربية، لا تاريخ.
- ويمر، روجر ودومينيك، جوزيف. مدخل إلى مناهج البحث الإعلامي. تر. صالح أبو إصبع، فاروق منصور. بيروت، المنظمة العربية للترجمة (توزيع مركز دراسات الوحدة العربية)، ط1، 2013.

ب - بالفرنسية:

- Balle, Francis et Gerard Eymery. Les nouveaux médias. Paris, Que suis-je, 1984.
- Breton, Philippe, proulx Serge. L'explosion de la communication. Paris, la Découverte, 4ème édition, 2012.
- Chalmers, Alan. Qu'est ce que la science? Paris, La découverte, 1987.
- Cabin, Philippe et Jean François Dortier. La communication. Paris, éditions sciences humaines, 2008.
- Dewey, John. Le public et ses problèmes. Paris, traduit de l'anglais par Joelle Zask. Gallimard, 2005.
- Campenhoudt, Raymnond Quivy. Manuel de recherche en sciences sociales. Paris, Dunod, 4ème édition, 2011.
- Lagache, Daniel. La psychanalyse. Paris, Que suis-je? 12ème édition, 1978.
- La Coadic, Yves François. La science de l'information. Paris, Que suis-je? 2ème édition, 1997.
- Laramée et Bernard vallée. La recherche en communication (Eléments de méthodologie). Québec, presses de l'université de Quebec, 1991.
- Popper, Karl. A la recherche d'un monde meilleur. Traduit de l'allemand par Jean Luc Evard. Paris, 2011.
- Mueller, Fernand-Lucien. La psychologie contemporaine. Paris, 1983.
- Rieffel, Rémy. Sociologie des médias. Paris, ellipses, 4ème édition, 2015.

جـ - موسوعات ومعاجم:

- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم. لسان العرب. بيروت، دار صادر، 1955-1956.

- الموسوعة الفلسفية العربية، رئيس التحرير معن زيادة. بيروت، معهد الإنماء العربي، 1986-1997.
- وهبة، مراد، يوسف كرم ويوسف شلالة. المعجم الفلسفي. ط2، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، 1971.
- م. روزنتال، ب يودين. الموسوعة الفلسفية. تر. سمير كرم. بيروت، دار الطليعة، ط6، 1987.
- الياس، جوزيف. المجاني المصوّر. بيروت، دار المجاني، ط1، 2000.
- البعلبكي، منير. المورد. بيروت، دار العلم للملايين، 1993.
- LE ROBERT. Paris, 1991.
- Lexique d'information-communication, Paris, Dalloz, 1ère édition, 2006.

د - مواقع لكترونية

www.alalettre.com
www.arrafid.ae
www.biblestudytools.com
www.capitecorpus.com
www.cours-de-droit-net
www.eco-psychologie.com
www.enquete.revues.org
www.google.com
www.ketab4pdf.blogspot.com
www.maktabah.com
www.plato.stanford.edu
www.spiralconnect.univ-lyon1.fr

المحتويات

أ. د. حسين سعد

إعلامي - باحث وأستاذ جامعي

- ❖ مواليد 1957 فرون - محافظة النبطية.
- ❖ حائز على دكتوراه دولة في الآداب - جامعة القديس يوسف - 1998.
- ❖ دكتوراه في الفلسفة - جامعة القديس يوسف - 1991.
- ❖ إجازة في الفلسفة كلية الآداب - الجامعة اللبنانية - 1980.
- ❖ إجازة في الإعلام - كلية الإعلام - الجامعة اللبنانية - 1981.
- ❖ أستاذ في الجامعة اللبنانية منذ العام 1994؛ وأستاذ مادة الأطر المعرفية في علوم الإعلام والاتصال في المعهد العالي للدكتوراه منذ العام 2009.

من مؤلفاته:

- ❖ الآراء العمانية عند بعض المفكرين العربي والمسلمين.
- ❖ إشكاليات الأصولية العربية الإسلامية المعاصرة بين النص الثابت والواقع المتغير.
- ❖ عشرات المقالات والأبحاث المنشورة في مجلات لبنانية عربية محكمة.
- ❖ يشرف على رسائل ماستر وأطاريح لطلاب الدراسات العليا والدكتوراه.